

المجلس الأعلى للثقافة



المشروع القومى للترجمة

تاريخ الشراكسة

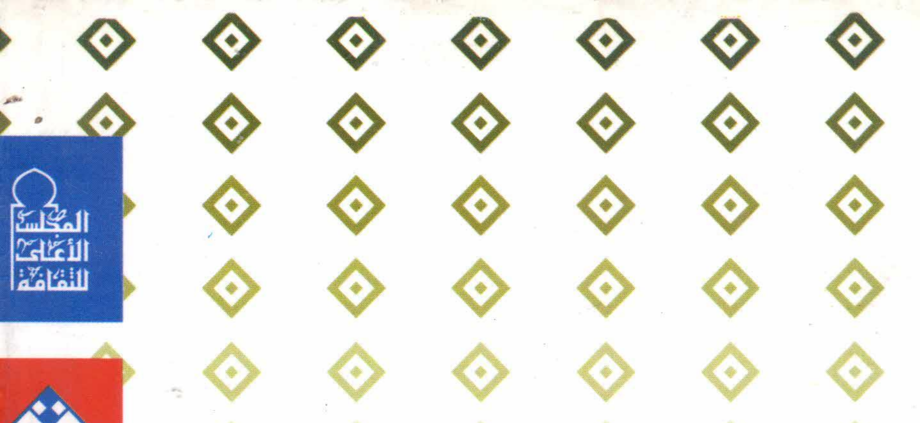
(الأباظية)



1048

تأليف: خيرى أرصوى
آيصون قاماجى

ترجمة: فؤاد أحمد كامل
مراجعة: الصفصافى أحمد مرسى

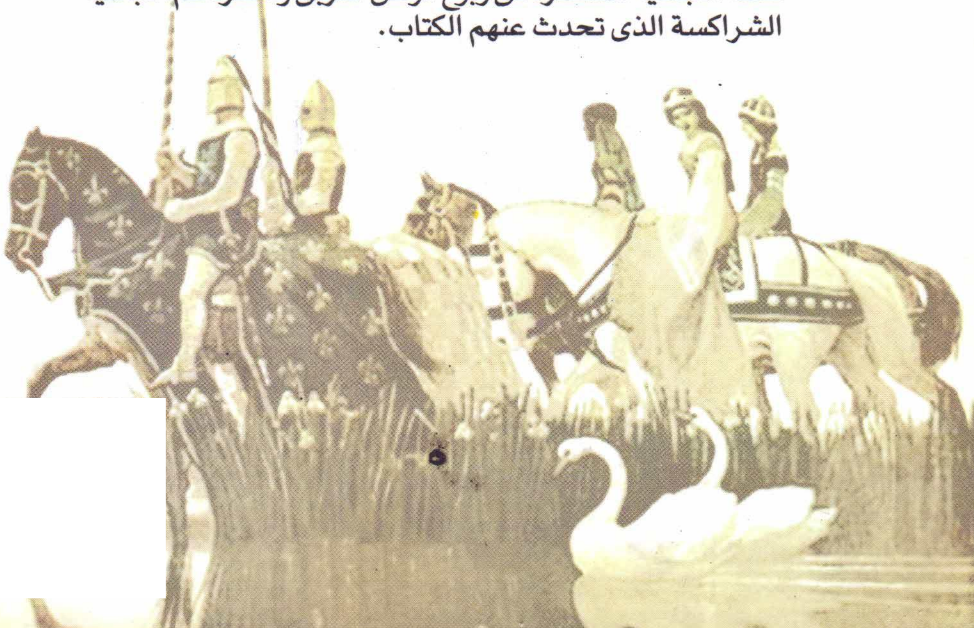


كلنا نسمع عن دول الشيشان والداغيستان وأوستيا وأبخازيا، لكن لا نعلم أين تقع هذه الدول، وما اللغات التى يتحدثونها، وكم عدد سكانهم، وما الحروب التى خاضوها ضد الروس فى سبيل استقلالهم.

كانت هذه الدول تمثل للقارئ العربى لغزًا يصعب حله أو فك رموزه، حتى تُرجم هذا الكتاب من التركية إلى العربية، والذى احتوى على كثير من الحقائق التى تتحدث عن هذه الشعوب؛ تاريخها وعاداتها وأعرافها، ومدى الاضطهاد والإبادة التى واجهوها على يد الروس فى الماضى وحتى وقتنا هذا.

كانت أقرب حروب الإبادة هى حرب جورجيا ضد جمهورية أبخازيا الصغيرة واقتحامها بالطائرات والمدافع والدبابات على مرأى ومسمع من العالم - لا لشىء إلا لأنهم مسلمون.

إن هذا الكتاب يعتبر بانوراما حقيقية على هذه الشعوب الشركسية (شعوب شمال القوقاز) وهناك حقيقة أخرى هى أن عائلة الأباظية المنتشرة فى ربوع الوطن العربى ومصر، هم الأباظية الشراكسة الذى تحدث عنهم الكتاب.



تصميم الغلاف: هند

تاريخ الشراكسة
(الأباظية)

المشروع القومى للترجمة

إشراف : جابر عصفور

- العدد : ١٠٤٨
- تاريخ الشراكسة «الأباظية»
- خيرى أرصوى - أيصون قاماجى
- فؤاد أحمد كامل
- الصفصافى أحمد المرسى
- الطبعة الأولى ٢٠٠٦

هذه ترجمة الكتاب :

ÇERKES TARIHI

HAYRI ERSOY - AYSUN KAMACI

شارع الجبلاية بالأوبرا - الجزيرة - القاهرة ت : ٧٣٥٢٣٩٦ فاكس : ٧٣٥٨٠٨٤

El Gabalaya St., Opera House, El Gezira, Cairo

Tel : 7352396 Fax : 7358084.

المشروع القومى للترجمة

تاريخ الشراكسة
(الأباظية)

تأليف : خيرى أرصوى - آيصون قاماجى

ترجمة : فؤاد أحمد كامل

مراجعة : الصفصافى أحمد المرسى



٢٠٠٦

بطاقة الفهرسة

إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية

إدارة الشئون الفنية

أرصوى ، خيرى

تاريخ الشراكسة / تأليف خيرى أرصوى ، آيصون قاماجى ، ترجمة فؤاد أحمد كامل ، مراجعة الصفصافى أحمد المرسى ، إشراف جابر عصفور

- ط ١ - القاهرة : المجلس الأعلى للثقافة ، ٢٠٠٦

٢٠٤ ص ، ٢٤ سم (المشروع القومى للترجمة) .

١ - مصر - تاريخ - عصر المماليك (١٢٥٠ - ١٥١٧م) .

(أ) قاماجى ، آيصون (مؤلف مشارك) .

(ب) كامل ، فؤاد أحمد (مترجم)

(جـ) المرسى ، الصفصافى أحمد (مراجع)

(د) عصفور ، جابر (مشرف)

(هـ) العنوان

٩٥٣,٠٨٢

رقم الإيداع ٢٠٩٢١ / ٢٠٠٦

الترقيم الدولى I.S.B.N. 977-437-068-6

طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

تهدف إصدارات المشروع القومى للترجمة إلى تقديم مختلف الاتجاهات والمذاهب الفكرية للقارئ العربى وتعريفه بها ، والأفكار التى تتضمنها هى اجتهادات أصحابها فى ثقافاتهم ولا تعبر بالضرورة عن رأى المجلس الأعلى للثقافة .

المحتويات

تقديم المترجم

مَنْ منا لم يسمع عن الشركس أو الشراكسة أو الچراكسة فى الأخبار الإذاعية والتلفازية ، ويشاهد المعارك والحروب الطاحنة التى تدور فى دول الاتحاد الروسى ، لاسيما بعد تفكك الاتحاد السوفيتى فى بدايات التسعينيات من القرن الماضى ، خاصة بين دولة جورجيا بزعامة شفرنادزه ودولة أبخازيا وما فعلته جورجيا بأبخازيا تلك الدولة الصغيرة بعدد سكانها وعتادها ، لكنها كانت تمتلك عزيمة وقوة استطاعت أن تدمر بهما هذه القوة الطاغية ؟!

كنا نسمع عن دولة الشيشان (الچچن) ، تلك الجمهورية الصغيرة التى استطاعت أن تنال استقلالها ، وتقف فى مواجهة جبروت روسيا وتدحرها بقيادة دوداييف .

وهل ننسى دولة الداغيستان ، وكذلك أوستيا التى حدثت فيها حادثة أطفال المدارس ؟ كنا نسمع ونشاهد فى وسائل الإعلام المسموعة والمرئية عن هذه الدول ، لكن لا أحد يعلم شيئًا عن تاريخهم أو حضارتهم أو ثقافاتهم أو عاداتهم وأعرافهم التى مازالوا يحافظون عليها على الرغم من الظروف الصعبة التى مروا بها من نفى وتشريد وتهجير ، وبخاصة هجرتهم عام ١٨٦٤م – ١٢٨١هـ ، وتخلى الدول الإسلامية عنهم ، لاسيما الدولة العثمانية التى كانت آنذاك دولة الخلافة الإسلامية .

مازالت هذه الدول تمثل للقارئ العربى المسلم لغزًا يصعب حله أو فك رموزه ، حتى وقع فى يدى هذا الكتاب الذى يعد نبراسًا للقارئ التركى والعربى على حد سواء ؛ فهو يتحدث عن هذه الشعوب نشأتها وتاريخها السحيق الذى تمتد جذوره آلاف السنين ؛ فبعد قراءتى لهذا الكتاب قراءة جيدة استشرت أستاذى العالم الكبير الأستاذ الدكتور الصفصافى أحمد المرسى فى ترجمته ونقله إلى القارئ العربى

فرأيت فى وجهه البشاشة لاختيارى هذا العمل ، وقام على الفور بإرشادى وتوجيهى لكى أتمّ ترجمته وأقدمه إلى القارئ العربى . إن أول ما استرعى انتباهى فى هذا الكتاب أنه اعتمد على بعض الحقائق والصور الأرشيفية التى كان يمتلكها أصحاب المكتبات القديمة ؛ حيث انفرد هذا الكتاب بأدق التفاصيل وأخصها عن هذا الشعب العريق .

كذلك استرعى انتباهى أيضًا أن أكثر الشعوب التى تناولها هذا الكتاب هما شعبا الأبخاز والأديغه بالمقارنة بالشعوب الشركسية الأخرى .

ومن الملاحظ أن هذا الكتاب قد اتسم بالمنهجية والموضوعية إلى حد كبير ؛ فلقد احتوى على مقدمة ومدخل وسبعة فصول ؛ المدخل بعنوان «هوية الشراكسة» ، أما الفصول السبعة الأخرى فهى على النحو التالى :

الفصل الأول : تناول الشراكسة فى العصور الموغلة فى القدم .

الفصل الثانى : تحدث عن مَنْ هم شعوب الشراكسة ؛ فتناول بصفة خاصة الأبخاز (الأباظية) ، ثم الأبخاز والميجريل منذ القرن الأول حتى القرن الخامس الميلادى ، ثم كفاح شعب الأبخاز من أجل نيل حريته واستقلاله ، ثم ظهور شعب الأبسليان قوة لا يستهان بها من بين هذه الشعوب الشركسية .

كذلك وجدنا أن هذا الكتاب قد أفرد عنوانًا مفصلاً عن الحروب التى دارت بين الفرس والبيزنطيين على أراضى الأبخاز فى النصف الأول من القرن السادس الميلادى ، ثم حدثنا عن أحد الشعوب الشركسية الأخرى ألا وهو شعب الميسيميان وثورته على الدولة البيزنطية ، والحروب التى قام بها لطرد هذا المستعمر البغيض ، ثم يأتى لنا أيضًا هذا الفصل بعنوان تحدث فيه عن الحروب البيزنطية ضد الفاتحين العرب الذين استولوا على مملكة الأبخاز ، ثم انضمام هذه المملكة واتحادها مع جورجيا ؛ حيث ينتهى بالتعريف باللغة الأبخازية . وبعد أن عرّفنا هذا الفصل بالأبخاز ، انتقل بنا ليعرفنا على شعب الأديغه ، فتناول تاريخ هذا الشعب وعلاقاته بروسيا وكذلك علاقاته

بالدولة العثمانية ، وهجرة هؤلاء الأديغه وتشردهم فى أرجاء المعمورة عام ١٨٦٤م - ١٢٨١هـ على يد الروس ، ثم مواطنهم وأماكن إقامتهم بعد الهجرة .

كما تناول هذا الفصل أيضًا الشعوب الشركسية الأخرى ، كشعب الأوبيخ (Ubih) والأوستين (أوستيا) (Ösetin) وشعب القارجاى (Karcay) والبلقار (Balkar) ثم الشيشان (Cicen) وداغيستان (Dagistan) .

أما الفصل الثالث فقد تناول الشراكسة بعد المنفى . وفى الفصل الرابع تناول الشراكسة فى أثناء حرب استقلال تركيا والدور الذى لعبوه فى هذه الحرب . وتحدث الفصل الخامس عن ثقافة الشراكسة وحضارتهم وأعرافهم وعاداتهم وتقاليدهم ، وقد انقسم هذا الفصل إلى :

١ - الشخصية الشركسية .

٢ - البناء الاجتماعى عند الشراكسة .

أما الفصل السادس فقد عرض مشاهدات وآراء بعض الأجانب عن الشراكسة .

واختص الفصل السابع بلغات شعوب القوقاز شماله وجنوبه ؛ حيث سرد لنا جميع هذه اللغات وأصولها اللغوية وعلاقاتها ببعضها البعض ، ثم انتهى بخاتمة شرح فيها الغرض من تأليف هذا الكتاب .

وقد حرصنا على الالتزام بالنص ، ولم نضف سوى التاريخ الهجرى بجانب الميلادى إذا ما تطلب الأمر ذلك .

فؤاد كامل

المقدمـــة

إن محاولة التعرف على شعب ما ، تاريخه ومبادئه وعاداته الاجتماعية ، ووضع كل هذا أمام أعين الباحثين ؛ إلى جانب أن ذلك أمر صعب فإنه يتطلب وقتًا و خبرة طويلة ، لاسيما أن هذا العمل يتناول بالدراسة جزءًا كبيرًا من حياة الإنسان على مر العصور ؛ فنحن أول من طرأت عليه فكرة التعريف بشعب الشراكسة ، وإذا لم نقم بنشر أدق التفاصيل عن هذا الشعب العظيم فإننا قد هدفنا من ذلك توجيه أنظار القراء والباحثين لهذا الموضوع ، ولم يكن هدفنا عرض كل شيء في هذا العمل ، بل إعطاء لمحة علمية ومنطقية .

لكي يخرج هذا العمل إلى الوجود فقد كان للعديد من الشخصيات المعروفة بصماتهم وإضافاتهم من أمثال السيد (آيدين توران) والسيد (يالتسشين كارادش) ؛ فبينما قام كل منهما بفتح مكتبته لنا فإن السيدة (ماهينور تونا) قد قدمت لنا خدمات جليلة بفتحها الأرشيف المصور و جعلته رهن استفادتنا.

نود أن نتحدث قليلاً حول محتوى الكتاب ، فإن أول شيء يلفت نظر القارئ بمجرد قراءة هذا الكتاب أن الأبخاز والأديغه هما أكثر شعوب الشراكسة التي تم بحثها في هذا الكتاب ، وهذا في الأصل حدث قد تطور بعيداً عن رغبتنا ، وهناك سببان لعدم الوقوف طويلاً أمام تاريخ الأبخاز ، أولهما : احتلال جمهورية جورجيا لأبخازيا الذي يعتبر موضوع الساعة . وثانيهما : عدم معرفتنا للغة الأبخازية مما لم يمكنا من الاستفادة من الأعمال المكتوبة باللغة الأبخازية.

أما عن موضوع الشراكسة وحروب التحرير فقد اضطررنا إلى المرور مر الكرام على هذا الموضوع على الرغم من أهميته ؛ حيث قام الباحثان المتميزان (سفرإزسين برزك) و (برزج محيي الدين آغاجه) ببحوث قيمة في هذا المضمار ، وما زلنا نُشاهد أبحاثًا

لهذين الباحثين حول هذا الموضوع ؛ فقد قام الباحث (سفرإزسين برزك) بعمل بحث بعنوان (هجرات الشراكسة فى أثناء حرب استقلال تركيا) ؛ حيث اعتبر هذا العمل نتاج بحث جاد وعمل مكثف ، وكنا قد أشرنا بأن مَنْ يريد الاستفادة من هذا الموضوع فعليه الرجوع إلى هذا الكتاب .

وموضوع " تاريخ الشراكسة " من الموضوعات التى يصعب دراستها ؛ لأن تاريخ شمال القوقاز الذى كان يتسم بالاستقرار والثبات فترة تزيد عن قرن من الزمان ، اكتسب تحولاً سريعًا فى السنوات الأخيرة ، مثالاً على ذلك دولة الشيشان التى – على الرغم من أنها لم يعترف بها دولة حتى الآن – أعلنت استقلالها تحت قيادة "دودايف" القائد المشهور .

وعندما أعلن الأبخاز استقلالهم وجدوا دبابات جورجيا فى مواجهتهم ، حيث رأينا عنادهم وإصرارهم فى مواجهة جيش جورجيا المحتل ، وقد وقفت بجانبهم شعوب الشراكسة الأخرى مثل : الأديغه والقراجاى والشيشان والأوستن واللازجى والآوار وغيرهم .

وقد نتج عن احتلال جورجيا أبخازيا الدمار الواقع على الشعبين ، وقد كانت الحرب بين جورجيا والأبخاز مؤلمة ، فبعدما عاش هذان الشعبان إخوة وأصدقاء ، وصلوا إلى هذا الحد من الكراهية والعداء الأمر الذى يدعو للحزن والأسى .

كان الجورجيون يقولون على أبخازيا إنها أرض جورجية وكان الأبخاز يقولون أيضًا : إن أبخازيا هى وطننا القومى ولن نتركه لأحد أبدًا ؛ فإذا ضاعت أبخازيا من أيدينا فإلى أين نذهب ؟

ونحن نرغب والعالم كله يرغب فى أن تنتهى الحرب سريعًا بين جورجيا والأبخاز وأن تندمل جراحهما ، فشعب جورجيا شعب يتمسك بتاريخه العريق ويرتبط به ؛ حيث نجدهم يتفاخرون دائمًا بعظمائهم أمثال : (الملكة تمارا) و(الملك شوتاروستغالى) الذى ترك فى القرن العاشر أثرًا خالدًا أطلق عليه (النمر ذو الفرو) . إن شعب

جورجيا مهما مدح هذا الأثر أو تفاخر به فهو قليل ، ففى أيامنا هذه وبعد مئات السنين ، بدلاً من أن يترك الجورجيون لأولادهم ميراثًا كهذا يتفاخرون به ، وجدناهم يتركون ميراثًا آخر هو قتلهم أصدقاءهم فى أبخازيا بلا شفقة ولا رحمة .

لم يكن هذا مصدر فخر أو مدح للجورجيين ولكنه يعتبر بقعة سوداء فى تاريخ جورجيا ، وإنه أمر يدعو للخجل ، فنحن أناس نؤمن بأخوة الشعوب فالمادة لا تمثل شيئًا بجانب حياة الإنسان من وجهة نظرنا ، وقد صدق أحد شعراء الأبخاز إذ يقول : "إذا هب الشباب للقتال ، نجد الشيوخ قد تكاسلوا أو تقاعسوا عنها" ، وإذا حدث هذا فلن توجد حروب فى الدنيا ، والدرس المستفاد من هذه الكلمة ، أن الشباب ليسوا مثل الشيوخ ، لم يتركوا القيم الإنسانية بسهولة من أجل الطبقية أو المصالح الشخصية ، لأن الشباب وهم فى ربيع العمر يغمسون أنفسهم فى الحروب دون خوف ولا رهبة ليحققوا الغايات الصعبة.

المؤلفان : خيرى أرصوى ـ آيصون قاماجى

مدخل

هوية الشراكسة

يشبه شعب الشراكسة من بين الشعوب والثقافات الموجودة فى وطننا - لوحة الفسيفساء المزركشة ، وإذا نحن دققنا النظر فى هذا الشعب وفى بنيته نجده أيضاً كمقطوعة موسيقية متعددة الأنغام ، كما هى لوحة جميلة تشع بالألوان الزاهية ، فالشراكسة بتعبير آخر هم شعوب شمال القوقاز ، هذه الشعوب على الرغم من صعوبة البحث فيها فإنها تجذب الباحثين المشتغلين بهذا الموضوع دائمًا ، لاسيما وأنه توجد نقطة غير واضحة أو غامضة حول ثقافتهم وأسمائهم وتاريخهم ، وإلى جانب التباين الذى يُشكل بنيتهم نجد أن أثر امتداد تاريخهم الإنسانى الطويل كبير على حياتهم الثقافية والتاريخية . وإذا ما حاولنا التعريف بهذه الشعوب الذين هم أحفاد الشعبين (القوبان والقولخيد) اللذين تركا أهم وأقدم ثقافتين على مر العصور سأتحدث عنهما فى الصفحات القادمة .... أريد أن أقدم للقارئ التركى معلومات تتعلق بالشراكسة الذين دارت حولهم العديد من المناقشات والمناظرات الساخنة. وقد اتفق الكثير من الباحثين على أن مصطلح الشراكسة قد جاء من الاسم "خرخت" ، الذى كان يطلقه اليونانيون فى العصور القديمة على شعب الأديغه الذى كان يعيش فى شمال غرب القوقاز ، فهذا التعريف قد عرف من قبل الباحثين المعاصرين وبالتحديد من قبل القوقازيين الشماليين بثلاثة تعريفات : التعريف الأول : إن الشراكسة اسم مشترك للشعوب التى عاشت على أراضى شمال القوقاز الممتدة من البحر الأسود إلى بحر الخزر (قزوين) ، وقد استخدم العرب والأوروبيون والأتراك هذا المصطلح ، ولكن لم

نجد أى شعب من شعوب شمال القوقاز يستعمل اسم "شركس" فى لغته ، وقد اشتهر القوقاز منذ أقدم العصور بأنه الإقليم الذى استخدم لغات عديدة فى كلامه ، وعندما طاف المؤرخون الرومان فى العصور القديمة بأرجاء القوقاز سجلوا ما شاهدوه وكان هذا كافيًا لترجمة أو نقل بعض الألفاظ من القوقاز إلى اليونان أو العكس . ونجد أن الشعوب التى يتكون منها شعوب الشراكسة تتحدث لهجات متعددة ؛ أى ما يقرب من عشر لغات ، تميزوا بها واختلفوا عن كثير من الشعوب . فعلى الرغم من تعدد هذه اللغات وكثرتها ، فإن الذى يجمع بين الشراكسة ويربطهم رباط قوى ، هو قيافاتهم وملابسهم المميزة ، وكذلك عاداتهم وأعرافهم ونظامهم الاجتماعى المتشابه ، وأصالتهم وثقافاتهم الموغلة فى القدم كل هذا أعطاهم الشكل والصفة التى تميزوا بها واختلفوا بها عن كثير من الشعوب . فالأباظية الموجودون على سواحل البحر الأسود والقراجاى والأديغه الذين يبعدون عنهم مئات الكيلومترات فى الشمال ، والأوستن والشيشان فى الشرق ، والآوار على سواحل بحر الخزر يتحدثون لهجات مختلفة تمامًا ، إلا أنهم منذ آلاف السنين كانوا يرتدون الملابس نفسها ، ويلتزمون بالقواعد الاجتماعية نفسها ويقومون بتربية أطفالهم بالطريقة نفسها ؛ فالشركس يؤمنون بسمو نظمهم الاجتماعية والثقافية المشتركة ورفعتها بصرف النظر عن اختلاف لغاتهم ، والدليل على صدق هذا الاعتقاد أن جماعات القازاق والأرمن الذين قام الروس بتوطينهم فى القرن التاسع عشر فى بلاد الشراكسة ورفعتها اندمجت معهم ، وطبقت عاداتهم ، وقد وصف الشراكسة من قبل الغرب بأنهم مجتمع حضارى متغير . تتكون مجموعة شمال لغات القوقاز من الأديغه والأباظجية والأوبيخية والشيشان والآوار وبعض الجماعات الداغستانية الأخرى ؛ فوفقًا لأحد الآراء ، إنهم يكونون القسم الشمالى لمجموعة الشمال القوقازية ، ويتحدثون لغات قريبة من بعضها البعض ، أما القارجاى والبلقار وهم من شعوب الشركس أيضًا فإنهم يتحدثون اللغة التركية .

ويرى البروفسير (إن مار) أن القرجاى هم يافس القوقاز الذين تتركوا، أما البروفسير (ميللر) فيرى أن القرجاى والبلقار ورثة بلغار القوقاز الذين ظهروا بعد

القضاء على إمبراطورية الخون ، أما الأوستن واللاق الذين هم من ضمن مجموعة الشراكسة ؛ فيتحدثون لغات تنتمى فى الأصل إلى العائلة الهندأوروبية . فالأوست يمثلون أقوام الآلان ، وهم أعظم قوم اشتهروا عبر التاريخ .

تميز الشراكسة بخصائص اجتماعية وثقافية ، سمت ليس فقط على الاختلافات العرقية أو اللغوية وإنما أيضًا فوق الاختلافات الدينية ؛ فاليهودية والمسيحية دخلت إلى شمال القوقاز فى القرن الرابع الميلادى ، أما الإسلام فقد وصل إلى هناك فى القرن السابع ، ثم بدأ الانتشار من الشرق إلى الغرب ، فالفروق الدينية سواء بين المسلمين الشركس أو المسيحيين منهم لم تكن موضع خلاف بينهم ؛ فأديانهم تم قبولها على أنها ضمن القيم الاجتماعية والثقافية المشتركة .

وهناك نقطة مهمة يجب إلقاء نظرة عليها ، وهى مسألة الدين التى هى شديدة الخصوصية ، فهناك تعارض بين الأسس الدينية والقيم الثقافية والاجتماعية للشركس ؛ والتوفيق بين العادات والتقاليد الشركسية وقواعد الدين من الأمور صعبة التطبيق ، فمثلاً على الرغم من أنهم قد اعتنقوا الإسلام منذ أكثر من ١٣٠٠ سنة ، فإنهم لم يهتموا أو يشغلوا أنفسهم بمصطلح السلاملك أو الحرملك .

التعريف الثانى :

الشركس هو اسم مشترك لأقوام الأديغه والأبخاز والأوبيخ الذين يعيشون فى شمال غرب القوقاز ، ومن وجهة نظر الباحثين الذين يعرفون الشراكسة بهذا الشكل ، وكما أشرت ، فالشراكسة هو اسم مشترك بين شعوب الأديغه والأبخاز والأوبيخ الذين يعيشون فى شمال غرب القوقاز ؛ فمن وجهة نظر الباحثين الذين يعرفون الشراكسة أن شعوب شمال القوقاز ليست كلها شراكسة ، ولكنهم يشتركون جميعًا فى ثقافة واحدة .

التعريف الثالث :

هذا التعريف هو تعريف محلى إلى حد ما ، وطبقًا لهذا التعريف فإن الشراكسة هو اسم شعب الأديغه الذى كان يعيش فى شمال غرب القوقاز .

ومن وجهة نظر المدافعين عن هذا التعريف أن شعب الأوبيخ قد اندمج مع شعب الأديغه وشعب الأباظية ؛ حيث ترك لغته وتحدث باللغة الأديغية ، ولذلك فهم يعتبرون أيضًا من الشراكسة .

وهناك أيضًا بعض التعريفات إلى جانب التعريفات التى ذكرناها من قبل ، منها على سبيل المثال ، أن الشركس يتكونون من شعوب الأبخاز والأديغه وكذلك من الشيشان واللازجى الذين ترجع جذورهم إلى شعوب الأوتوختون فى شمال القوقاز ، وإنِّى على قناعة تامة بأن من الخطأ الدفاع عن أحد هذه التعريفات التى ذكرتها سواء كان هذا التعريف خطأ أو صوابًا ، لأننا إذا ماحاولنا البحث فى الوثائق التاريخية ؛ فإننا لا نستطيع أن نخرج بشىء منها .

فعلى سبيل المثال : كما لا يمكن أن نبحث فى تاريخ المماليك المصريين الشركس مقتنعين بصحة التعريفين الثانى والثالث ، كذلك إذا قبلنا بالتعريف الأول فإنه لا يمكن أن نأخذ أو نقتنع بالمصادر العثمانية أيضًا .

إن هدفنا الذى نسعى إليه هو أن نقدم بعض المعلومات فى هذا الصدد للقارئ التركى حول مفهوم الشركس وأن نبعده عن المفهوم المشوش ، ولهذا تناولنا موضوع تاريخ الشراكسة معتمدين فى هذا البحث على التعريف الأول فقط .

الفصل الأول

الشراكسة فى العصور القديمة

كنا قد ذكرنا من قبل فى بداية كتابنا هذا أن تاريخ الشراكسة بقدر ما كان تاريخًا ذا جذور عميقة ، كان أيضًا تاريخًا موغلاً فى القدم ، وإذا أردت أن أتوسع فى كلمتى هذه ، وأضيف إليها ، أقول إن جماعة الأديغه والأبخاز اللتين يرجع جذورهما إلى الأوتختون فى القوقاز ، قد تركوا بصماتهم على ثقافتى "القوبان والكولخيد" اللتين تمثلان أقدم حضارتين ظهرتا فى هذه المنطقة ؛ فثقافة القوبان تمتد حتى أربعة آلاف عام ، أما حضارة الكولخيد فتمتد حتى ثلاثة آلاف ومائتى عام .

ويرى البروفسير " تورجانينو" أستاذ علم اللغويات فى بحث نشره فى أكاديمية العلوم بالاتحاد السوفيتى سابقًا الذى كان بعنوان " النقوش المتعلقة بكتابة ولغات شعوب القوقاز وأوروبا الشرقية " ؛ حيث أوضح فيه أن اللغة الأبخازية لغة الكتابة الأولى بين لغات الاتحاد السوفيتى ؛ وقد نشر نماذج من اللغة الأبخازية (الأباظية) ، التى ظهرت فى نقوش (مايقوب) فى الكولخيد وشمال القوقاز .

ونستطيع أن نستشف من خلال نقوش مايقوب أيضًا أنه كانت توجد صناعة للمعادن فى القوقاز ، كما عرف أنه وصل إلى اليونانيين ثروات ثقافية كثيرة من الشرق ، ومن بلاد ما بين النهرين ومن أوناسيا ، ونعلم أن بروميثيوس هو الذى جلب النار إلى الإنسان ، وبسبب هذا غضبت عليه الآلهة وقيدته بالسلاسل فى القوقاز ؛ فأينما يوجد الإنسان توجد النار ، كما توجد آثار لهذه النار حتى فى الطبقات السفلى التى توجد فيها الهياكل العظمية للإنسان ، وعلى هذا النحو عاش الإنسان

حياته مرتبطًا بالنار دائمًا ، وأن الميثولوجيا الإغريقية هذه كانت القوقاز تتدرج بين طياتها ، وصناعة البرونز والحدادة قد انتقلت قديمًا من القوقاز إلى اليونان ، وأن " هيفاستوس " المفكر اليونانى قد عمل بمهنة الحدادة فى القوقاز .

إن الآثار التى ظهرت فى نقوش القوبان ، تظهر اختلافات أيضًا من ناحية تنوع المعادن التى قاموا بصناعتها ؛ فقد وجدت مشغولات معدنية وذهبية وفضية بحجم كبير ، لم ير لها مثيل من قبل فى الأضرحة الضخمة التى كان يطلق عليها " قورجان " ومن بين الآثار الضخمة الموجودة فى تلك الأضرحة إناءان مصنوعان من الفضة ؛ فكل إناء مرسوم عليه صور لأشكال مختلفة من الحيوانات من أمثال النمر والثور والماعز الجبلى ؛ فهذه الرسوم كانت تتناسب تمامًا مع البيئة التى كانوا يعيشون فيها ؛ فنجد على الإناء الأول كذلك أربع صور لحيوانات من أمثال الخروف البرى والحصان والأسد والجاموس ، كما توجد أنواع من الحيوانات الأخرى أمثال الماعز الجبلى والنمر وذكر الخنزير والبقر الوحشى ؛ حيث نجدها تحت صف الحيوانات الأربعة الكبرى .

ويقول العالم " هانتز " إن هذه الحيوانات كانت تسير فى المراسم الدينية ؛ حيث كانت تطوف حول الآلهة ، كما كان يلاحظ فى علم النجوم أو الفلك أن من الحيوانات التى تكوِّن دورة الدنيا الثور والأسد وهما الشمس والقمر فى الشرق القديم ؛ وتمثل الجهات الأربع للدنيا أربعة حيوانات هى الثور والماعز الجبلى والنمر والأسد ، كذلك يوجد الحمار وذكر الخنزير . كما توجد صورة لمنظر حقيقى فى إناء وهو أول منظر نصادفه فى تاريخ الفنون ، كان هذا المنظر مقدسًا ، كما كانت الحيوانات مقدسة أيضًا ، وقد رسمت أشجار تشبه الجبال ذات القمم العالية أو تشبه أشجار الباليا ، ويتدفق من هذه الجبال نهران ، وهما يتحدان عند بحيرة تسبح فيها الحيوانات ، وقد رأى العالم " فارمكويسكى" صورة القوقاز فى هذه الجبال ، كما رأى جبلى الأوشبا والقازبك وهما أعلى جبلين فى القوقاز قاطبة .

والنهران طبقًا لما قال " فارمكويسكى " هما نهر القوبان ونهر تاراك ، وبهذه الصورة ظهرت دولة القوقاز كزهرية مليئة بالورود ، وفى الوقت نفسه فإن هذه المملكة

كانت لديها فكرة السيطرة على الدنيا، إلى جانب أنهم كانوا يرون أن هذه الأنهار تشبه نهرى دجلة والفرات ، وهذين النهرين يصبان فى خليج البصرة ، ولكن كل هذه الافتراضات لم تصل إلى نتيجة قاطعة .

وقد حاول الأمريكيون الكشف عن أسرار نقوش مايقوب وكذلك الكشف عن النقش الذى ظهر فى آستراباد فى جنوب شرق بحر الخزر (قزوين) ، كما اكتشف العالم الألمانى (ف. شميت) قلعة " تبة حصار "؛ حيث وجد أوانى تشبه تماماً الأوانى الموجودة فى القوبان . وفى ضوء هذه المعلومات يمكننا أن نقول مثلما كانت القوقاز مسرحاً للثقافة الشرقية العابرة إلى أوروبا كانت أيضاً مهبطاً للثقافة القادمة من أوروبا بفعل تفاعل الحضارات ؛ فهناك حقيقة أسطورية هى أن (برومثيوس) و(هيفاستوس) قد انتقلا من القوقاز إلى اليونان .

إن ثقافة الكولخيد تحمل خصائص ثقافة القوبان على الرغم من كونها أكثر حداثة منها ؛ بمعنى أنها تحمل بين طياتها ثقافة الأديغه والأبخاز كجزء لا يتجزأ من قوميتها ، وقبل أن نخوض فى ثقافة الكولخيد وجدنا من المفيد توضيح الحدود القومية والجغرافية لهذه الثقافة ؛ فكما هو معروف فإن حضارة الكولخيد قد بدأت فى القرنين الثانى عشر والحادى عشر قبل الميلاد ، وأن ثقافتها تمتد من نهر " بسوف" فى الغرب وسلسلة جبال القوقاز فى الشمال ومنطقة " صورام" فى الشرق ، أما فى الجنوب فتمتد حتى "طريزون " على طول سواحل البحر الأسود .

وقد أوضح المؤرخون المحايدون الذين كتبوا عن شعوب ثقافة الكولخيد ذلك حيث قالوا : " إنها نتاج مشترك لثقافات شعوب الأبخاز واللاذ والميجرال " .

وفى عصرنا الحاضر فإن المؤرخين الجورجيين قد تأثروا أيضاً بعدوى كتابة التاريخ الرسمى التى عمت أرجاء الدنيا ؛ فكلمتنا هذه لا تنطبق على المؤرخين الصادقين أمثال (ن مار) على أية حال ؛ فقد بدأت الخلافات التى تعكس وجهة نظر المؤرخين الجورجيين حول ثقافة الكولخيد ؛ فهم يعتبرون أنه لا يمكن أن تكون ثقافة القوقاز ثقافة أصلية مالم يوافقوا هم عليها ، وعلى أية حال فإن الأبخاز واللاذ والميجرال

والجورجيين الذين ينحدرون من جذور قومية واحدة عاشوا حياة أخوية تسودها علاقة الجوار الطبيعية مدة تزيد عن ثلاثة آلاف عام ؛ فهذه الشعوب الشقيقة إلى جانب أنها عاشت فى ظل حضارة الكولخيد عاشت أيضًا فى ظل مملكة الأيريسى ، وكذلك فى ظل مملكة أبخازيا وفى ظل مملكة الأبخاز وجورجيا ، مهما كانت تحت مسميات مختلفة .

فكما كانوا يتحاربون جنبًا إلى جنب ضد المعتدين ، لم تحدث فيما بينهم حروب حقيقية سوى اشتباكات بسيطة ؛ فعلى سبيل المثال فإن حكومة دولة الكولخيد القديمة التى كنًّا قد أشرنا إليها والتى كانت فى قبضة مملكة الأيريسى (اللاذيقا) ؛ فلم يسجل التاريخ عنها أية اشتباكات فعلية وهى تحت إمرة مملكة الأبخاز فى القرن الثامن ، كذلك وفى القرن العاشر الذى يعتبر من أزهى عصور مملكة الأبخاز ، حكمها حكام جورجيون ، ولم تحدث حروب أو سفك دماء بين الدولتين ، بل آلت دولة الأبخاز إلى الجورجيين بطريقة سلمية .

إن المصادر التارخية تذكر أسماء بعض الدول فى القرن العاشر الذى يعتبر ألمع فترة من فترات حكم الجورجيين منها على سبيل المثال مملكة الأبخاز والران والقاخت والصومت ، والتى حلت محل مملكة جورجيا ومملكة الكارتوال والصارتول . وخلاصة القول إن الجورجيين واللاذ والمجرال والأبخاز الذين هم من شعوب الأوتختون لجنوب القوقاز ، يشتركون فى جذور ثقافية عريقة بعكس الافتراءات التى ظهرت فى القرون الأخيرة ، وأول وثيقة تشهد بهذا هى حضارة الكولخيد .

ظهرت آثار شديدة الأهمية لحضارة الكولخيد ، بفضل ما قام به العالم الأثرى "ميخائيل طرابش" وجهوده حول النقوش الأثرية فى أبخازيا . فوفقًا لما قاله كل من العالمين الأثريين (آياسين) و(ميخائيل طرابش) ؛ بأنه ظهر فى أبخازيا موقد للطهى يعود للفترة التى تعلَّم فيها الكولخيد الطهى فى الأوانى الطينية ، كذلك وفى الزمن نفسه استخرجت أبخازيا النحاس من أماكن كثيرة وقامت بصبه فى أشكال رائعة ، كما تُبين الاكتشافات الأثرية أيضًا أن أبخازيا كانت مركزًا لصناعة المعادن فى الحضارة الكولخيدية ، ويرجع إليها الفضل فى تطوير صناعة المعادن .

كذلك ظهرت فى "طاجليون" و"كلاشيرن" أوان مصنوعة من الحجر ، كانت تستخدم فى صناعة الحديد بأشكال خاصة بهم ، وإذا نظرنا إلى النقوش التى ظهرت فى أبخازيا وجدنا الأبخاز ، قد صنعوا الفئوس والمعاول التى استخدموها فى حروبهم ، كذلك وجدنا اكتشافات أثرية أخرى تُبين أن أبخازيا فى أثناء حضارة الكولخيد كانت مركزًا لصناعة الحديد المحلى ، وكذلك صناعة البرونز الذى يحمل نقوشًا وزخرفات بأشكال متعددة ؛ حيث كانت هذه النقوش وهذه الزخرفات أبخازية لا يمكن مصادفتها فى أماكن أخرى .

ومن أشكال النقوش الكولخيدية ، فى قرية "قولانيرخا" الأبخازية صادفنا أيضًا آثارًا لحضارات قديمة أخرى ، هذه الحضارة هى حضارة "الإسكيت" التى تتميز بمميزات رائعة ، وبصفة عامة فإن آثار الإسكيت الموجودة إلى جانب آثار الكولخيد ، كانت عبارة عن أشياء خاصة بالزينة وأطقم كانت توضع على ظهر الخيول وغيرها .

وإذا نظرنا إلى العصر الذى عاش فيه الإسكيت ، نجد أن هؤلاء القوم كانوا أكثر عددًا بالقياس إلى الشعوب الأخرى . لم يكن هذا الشعب معروفًا من قبل ولم يعرف بالتحديد وطنه الأصلى ؛ فهم جاءوا من آسيا وكانوا يتحدثون لغة تشبه لغة الشعوب التى كانت تعيش فى شمال إيران ، فهم قوم رُحل ومحاربون أقوياء ، كان أول ظهور لأسمائهم فى القرن السابع ق.م ، وأغلب الظن أن هؤلاء القوم عاشوا ، ثم ساروا صوب آسيا الصغرى فى عام ٦٧٠ ق.م ؛ فاستولوا على إيران وسوريا وفلسطين ، فمن وجهة نظر المؤرخين الذين أرخوا لتلك الحقبة أنهم عاشوا فى تلك البلاد ما يقرب من ثمانية وعشرين عامًا ، إلا أنه أمام إصرار الإيرانيين وعنادهم قد اضطروا للتقهقر والعودة من حيث أتوا ؛ حيث وجدناهم بعد هذا الحدث يعيشون فى أماكن كثيرة ومتفرقة فى القوقاز والقرم حتى القرن الثانى قبل الميلاد .

ووفقًا لما ذكره العالم الأثرى "ميخائيل طرابش" من خلال النقوش التى اكتشفها أن هؤلاء الإسكيت قد عاشوا فى قرية "قولانيرخا" ، وأنهم لم يستطيعوا العيش فى أبخازيا ، لأن (هيرودوت) كتب عن الإسكيت أنهم وهم ينزلون إلى الجنوب

اتجهوا صوب اليمين من جبال القوقاز ولم يتجهوا نحو الشمال ؛ حيث لا يوجد احتمال ضئيل بأنهم أقاموا بأبخازيا . وإذا ما حاولنا إحصاء آثار الإسكيت الموجودة فى "قولانيرخا" نجدها أربعة عشر أثرًا جميعها من النحاس ، إلى جانب خمسة فقط من الفولاذ ، وبذلك يصبح مجموع هذه الآثار تسعة عشر أثرًا ، كذلك يُعتقد أن لجام الحصان الذى وجد فى هذه القرية من آثار الإسكيت أيضًا ؛ لأننا وجدنا أمثال هذه الآثار عند القوبان و"دينيابير" ؛ حيث يرجع تاريخها إلى ٢٦٠٠ ق.م .

إن ما يسترعى الانتباه فى هذه النقوش ، أن الكولخيد والإسكيت قد عاشوا سويًا فى هذه المنطقة ، وليس أدل على ذلك من قبورهم التى كانت مشتركة .

وبعد أن ألقينا نظرة على ثقافة القوبان والكولخيد الذين هم ضمن النسيج الاجتماعى والثقافى للأديغه والأبخاز ، وكذلك على حضارة الإسكيت التى أثَّروا فيها تأثيرًا جزئيًا ، نجد من الواجب علينا أن نلقى نظرة أيضًا على الظروف التاريخية لقوقاز الشمال الذين يطلق عليهم اسم (الشراكسة) .

الفصل الثانى

شعوب الشراكسة

١ - الأبخاز (الأباظية)

(أ) شعوب الأبخاز واللاذ والميجرال فى الفترة ما بين القرن الأول والخامس الميلادى:

الأبخاز هم أقوام استقروا على سواحل البحر الأسود شمال غرب القوقاز ، وهو موطنهم منذ القدم ؛ ففى العصور القديمة كان يطلق على الأبخاز إما اسم الأباسكوى (آرين) أو الأباظجى (بيلنيوس). هؤلاء الأبخاز عاشوا جزءًا لا يتجزأ من مملكة الكولخيد التى كانت قد أسست بين القرنين (١٢) و (١١) ق.م ، وقد عاشوا مع جيرانهم الميجرال واللاذ فى سلام ووئام ، وأطلق على الأبخاز فى هذه الفترة أربعة مسميات منفصلة هى :

(١) الأبسليا. (٢) الأباظجية. (٣) الصانيجيا. (٤) الميسيميان.

وقد وجدنا أن الأيريسى الذين كانوا من الشعوب الواقعة تحت سيطرة مملكة الكولخيد القديمة فى القرن الثالث والرابع الميلادى قد وسعوا من نفوذهم ؛ حيث ضمت كل الشعوب المنحدرة من أصل أبخازى تحت سيطرتها ؛ فظهور هذه المملكة كقوة اقتصادية وسياسية هائلة ؛ إنما يرجع إلى النظام الرأسمالى والإقطاعى الذى كانوا يطبقونه فى معاملاتهم ، ولما رأت الشعوب الأبخازية مدى التقدم التى وصلت إليه مملكة الأيريسى ، قامت باتباع الخطوات نفسها التى كانت تسير عليها ، وقد ساعد على ذلك قادة الأباظجية والأبسليان .

كانت مملكة الأيريسى واقعة تحت سيطرة الدولة البيزنطية ، وكان جيران الأبخاز فى الفترة التى كنا قد أشرنا إليها من ناحية الشمال والشرق (الأديغه والشراكسة) وكذلك الآلان الذين هم أجداد الأوستين فى وقتنا الحاضر . جاء فى هذه الفترة نفسها إلى هذه المنطقة شعوب تنتمى فى أصولها إلى الأتراك ؛ حيث حدث بين هذه الشعوب جميعها ، الأبخاز والميجرال ما يشبه الاتفاق السياسى والعسكرى .

هذا التعاون الذى أشرنا إليه زاد أكثر فى الفترة التى استولت فيها إيران وهى من القوى العظمى فى ذلك الوقت على هذه المنطقة . ومن القوى العظمى آنذاك أيضًا والتى كانت تقف بالمرصاد للقوى الإيرانية الدولة البيزنطية ، وكانت هاتان القوتان فى منازعات ومشاجرات مستمرة ؛ فالكل يسعى للاستيلاء على مملكة الكولخيد التى هى أجمل دول القوقاز ، وقد وقعت هذه المملكة (الكولخيد) تحت سيطرة كل من الإيرانيين والبيزنطيين ، وقد ألحقت هذه الحروب ضررًا كبيرًا بشعبى الأبخاز والميجرال واللاز .

كانت هذه المملكة أحيانًا تحارب إلى جانب الإيرانيين وأحيانًا أخرى إلى جانب البيزنطيين ، حتى إنهم كانوا أحيانًا يحاربون بعضهم بعضًا ، وقد وجدنا من الضرورى الرجوع قليلاً إلى الوراء للوقوف على الحقائق المهمة لدولة الكولخيد ؛ فكما هو معلوم فإنه أمام عناد شعب الكولخيد وإصراره وجدنا البيزنطيين فى القرن الثانى الميلادى ، قد استولوا على مملكة الكولخيد وربطوهم بهم وأعطوهم حكمًا ذاتيًا .

وفى الوقت نفسه كوّن البيزنطيون تحالفًا عسكريًا على سواحل البحر الأسود ، وكان هدف هذا التحالف فى البداية هو منع وصول البربر إلى الجنوب ، إلا أنه بعد ذلك تغيرت هذه الأغراض تمامًا . ففى القرن الثالث الميلادى قاموا بمنع نزول الجوت وفى القرن الرابع منعوا أيضًا الخون من النزول إلى الجنوب ، كما منعوا الأقوام الجبلية الأخرى وبذلك وصلوا إلى أهدافهم .

وفى النصف الأول من القرن الرابع الميلادى ظهرت الإمبراطورية البيزنطية ووقفت على أقدامها ، وقامت بنقل عاصمتها التى كانت مهددة بالفناء ، إلى أراضى

البسفور فى البلقان ؛ حيث أطلقوا على هذه العاصمة الجديدة اسم بيزنطة ، ثم مالبثوا أن غيروا اسمها فيما بعد إلى (القسطنطينية) .

كانت الأراضى الشرقية للإمبراطورية البيزنطية القديمة هى مقر الحكومة البيزنطية ؛ حيث كانت شبه جزيرة البلقان وآسيا الصغرى وسوريا ضمن حدود هذه الإمبراطورية ، أما مملكة الكولخيد فكانت تتمتع بالاستقلال السياسى والإدارى ولكن تحت قيادة الأيريسى .

بدأت الاشتباكات العنيفة بين الفريقين الإيرانى والبيزنطى فى بداية القرن الخامس الميلادى ، وكان الغرض من هذه الاشتباكات العنيفة هو السيطرة على طرق التجارة التى تربطهم بالهند والصين ، وكان من مخططاتهم أيضًا الاستيلاء على المواقع الحيوية على سواحل البحر الأسود فى القوقاز .

استولت إيران على بلاد اللاذ والأبخاز ؛ فأصبحت صاحبة طرق تجارة الحرير القادمة من آسيا ؛ فكانت تفرض الضرائب الباهظة على التجار البيزنطيين ، لكى يُسمح لهم بالمرور وأيضًا على الذين يمرون من أراضى أباظجيا واللاذيقا وكذلك على الذين يمرون من أراضى الشراكسة . وتحقق لهم مراقبة طرق التجارة الوافدة إلى آسيا الوسطى ؛ فكانوا يقومون بغارات على الأراضى البيزنطية متخذين من هذا الإقليم قاعدة لغاراتهم .

كان هناك سبب آخر يدعو الإيرانيين للاستيلاء على الكولخيد وهو وجود البربر بكثافة فى شرق أوروبا وأعالى القوقاز ، وكذلك لكى يتمكنوا من الهجوم على الدولة البيزنطية من هناك ؛ فجميع الطرق التى كان يفكر فيها الإيرانيون تمرُّ من أبخازيا ، وكان أهم هذه الطرق هو الطريق الساحلى ، وكذلك الطرق الجبلية التى تمر من القيليخورة والماروخة .

وفى مثل هذا الوقت قامت الإمبراطورية البيزنطية بمنح الأيريسى وأباظجيا وأبسيليا استقلالاً جزئيًا على الصعيدين السياسى والاقتصادى ، كما قامت بتقليل أرباحها من العائد التجارى للتجارة البحرية .

وفى القرن الخامس الميلادى ، بدأت مملكة الأيريسى فى التحرك ضد البيزنطيين بمساندة الشعوب الأبخازية ، وكان قائد هذا التمرد هو "جوباز" ملك الأيريسى واستمرت الحروب أعوامًا . وفى عام ٤٦٥ ميلاديًا ، تم توقيع معاهدة سلام أنهت الحرب بين الطرفين ، ولكن قامت بيزنطة بعزل الملك جوباز ، وتعيين ابنه تساتا حاكمًا على مملكة الأيريسى .

فى نهاية القرن الخامس الميلادى انفصل الأبخاز عن مملكة الأيريسى ، وانضموا إلى بيزنطة ولكن تحت حكم ذاتى ، أما شعوب الميسيميان والأبسليان الذين هم من الأبخاز ؛ فقد ظلت مرتبطة باتحاد الأيريسى حتى القرن السابع .

وفى القرن السادس تطور النظام الإقطاعى فى الإمبراطورية البيزنطية ، وازداد معه النظام العسكرى والاقتصادى قوة ، وقد أحدثت هذه التطورات شعورًا بالتفوق لدى البيزنطيين .

كان الإمبراطور البيزنطى (جستنيان الأول ٥٢٧م - ٥٦٥م) ، يسير صوب الهدف الذى يريد تحقيقه ؛ حيث اتخذ من المسيحية قوة داعمة ومساندة له ؛ فقد نجح فى جعل المسيحية دينًا رسميًا لملكة الأيريسى عام ٥٢٣م ؛ فانتشرت المسيحية على وجه السرعة فى هذه المملكة واعتنقها شعوب الميسيميان والأبسيليا والأبخاز ، ولم يتراجع الإمبراطور البيزنطى "جستنيان" عن فرض المسيحية على شعوب الأبخاز جميعها فى ذلك الوقت .

هاجمت إيران أراضى مملكة الكولخيد متزرعة بلجوء الملك جورجن ملك جورجيا إلى مملكة الأيريسى عام ٥٢٣م ؛ فاحتلت بعض القلاع المهمة ، وفى عام ٥٢٨م ، رأينا هجومهم مرة أخرى على أراضى الأيريسى ، ولكن هذه المرة وبفضل مساعدة الجيش البيزنطى للأيريسى هُزم الإيرانيون وانسحبوا من الأيريسى . وفى عام ٥٣٢م ، تم توقيع معاهدة سلام بين إيران وبيزنطة .

بدأ البيزنطيون فى إنشاء القلاع والحصون فى أبازجيا والأيريسى خوفًا من تكرار الهجوم الإيرانى ، كما قاموا بتنصير هذه الشعوب ، وبأمر من الإمبراطور (جستنيان) تأسَّست كنيسة فى مدينة (بيتسوندا) الأباظية فى الفترة ما بين عامى (٥٣٢م و٥٤٢م) ، وفى عامى (٥٣٢م و٥٤٢م) سار الإمبراطور " خسرو " شاه إيران بجيوشه نحو أراضى الكولخيد بناءً على رغبة شعوب الكولخيد والأيريسى والأبخاز للقضاء على الحكم البيزنطى .

قامت حرب طاحنة بين الكولخيد وأنصارهم من الشعوب الأخرى الجيش البيزنطى ، استمرت من عام ٥٤٢م إلى عام ٥٥٥م أى حوالى ثلاثة عشر عامًا.

انقسمت شعوب الأبخاز على نفسها فى هذه الحرب ؛ فمنهم من وقف ضد الأيريسى كالأبخاز والصانيجيا الذين حاربوا بجانب الدولة البيزنطية ، ومنهم من وقف بجانب الأيريسى كالأبسيليا والميسيميان ووقفوا بجانب الإيرانيين ، وفى نهاية هذه الحرب تم تقسيم مملكة الأيريسى بين الإمبراطورية الإيرانية والإمبراطورية البيزنطية .

(ب) حرب تحرير آبازجيا :

تعد حرب الاستقلال التى قامت بها آبازجيا ضد الدولة البيزنطية من أهم أحداث القرن السادس الميلادى ؛ حيث تحتل هذه الحرب مكانة لا نظير لها فى تاريخ حروب استقلال الأبخاز.

ومثلما أوضحت فى الأجزاء السابقة من الكتاب فإن آبازجيا كانت تعتبر ضمن التحالف السياسى لدولة الأيريسى ، ولكن ما لبثت أن انفصلت عنها فى النصف الأول من القرن السادس ، وبهذا ظهرت كقوة سياسية لايستهان بها .

لقد كانت دولة صانيجيا (الأسادز) والتى تجاور آبازجيا من الشمال الغربى تحت سيطرة حكومة آبازجيا ، وطبقًا لما ذكره المؤرخ "بروكوبى كراسياتى " : أن دولة آبازجيا هى الدولة الوحيدة التى كان يحكمها حاكمان وأن هذين الحاكمين كانا

يبيعان الأطفال الذكور للدولة البيزنطية ؛ مما كان سببًا فى كثرة الموظفين الآبازجيين فى قصر الإمبراطور البيزنطى .

وفى القرن السادس الميلادى ، وجدنا إمارتين من إمارات آبازجيا هما "باسيلفس" و"ليدرى" يحققان دخلاً كبيرًا من تجارة الرقيق لعدم وجود مصادر دخل أخرى مثل الدول الخارجية ، وقد كانت آبازجيا مثل بقية شعوب الكولخيد الأخرى مضطرة إلى عملية التبادل التجارى مع بيزنطة ، لكنها اضطرت لإغلاق هذه التجارة ؛ أى تجارة الرقيق . ولم يكن أمامها اختيارات أخرى مثلها فى ذلك مثل بقية الدول .

فى البداية اتبع البيزنطيون مع دولة آبازجيا سياسة معتدلة ،لأنهم يرغبون فى تقوية أوضاعهم فى الدولة ، وكما أشار "بروكوبى" من قبل كانت هناك إدارتان رئيسيتان فى آبازجيا ؛ ففى العقدين الثالث والرابع من القرن السادس رأينا بداية التناوش بين البيزنطيين والإيرانيين من أجل تعارض مصالحهما فى مملكة الأيريسى ؛ حيث اضطر الإمبراطور " جستنيان " إلى تقوية وضعه فى الجزء الساحلى لدولة الآبازجيا ، لاسيما بعدما رأى تعاونًا بين مملكة الأيريسى وإيران والذى كان سببًا فى زيادة أهمية آبازجيا بالنسبة للبيزنطيين .

قامت الدولة البيزنطية ببذل الجهود من أجل نشر الدين المسيحى فى هذه الدولة من ناحية ، ومن ناحية أخرى سعت إلى إضعاف نفوذ حكومة آبازجيا ، ولهذا وجدنا الإمبراطور "جستنيان" قد تدخل للمحافظة على وجودهم فى هذه الدولة .

ويثنى المؤرخ الرسمى للدولة البيزنطية " بروكوبى " على ما فعله (جستنيان) فى آبازجيا بقوله : قام الإمبراطور (جستنيان) بتغيير أشكال الحياة فى آبازجيا إلى الأفضل واعتنق شعب آبازجيا فى عهده المسيحية ، وقد أرسل (جستنيان) إلى شعب آبازجيا مَنْ يدعى " إفرات " وهو يمت بصلة النسب إلى آبازجيا ؛ ليكون حاكمًا عليهم ، وأصبحت فى يده جميع السلطات كقائد لآبازجيا وقد استقبل الآبازجيون هذا الخبر بفرح شديد .. ونتيجة لوجود هذا الإمبراطور العادل لم يسكت شعب آبازجيا عن أية مخالفات إدارية ، وعاش فترة من الاستقرار والهدوء .

ولكن من الطبيعى ألا يستمر هذا الوضع للأبد ؛ فقد بدأ (جستنيان) فى إخراج الجنود من آبازجيا ، وقام بتوطينهم فى المناطق الساحلية الاستراتيجية ، كما قام بمـداهمة منازل المواطنين لإلقاء القبض على الكثيرين منهم لاتخاذهم عبيداً أو نفيهم أو الزج بهم فى السجون .

وبالطبع كان لهذا السلوك آثار سلبية على الشعب الذى ثار ثورة عارمة ضد الحكم البيزنطى ، ولكن هذه الثورات لم تكن كافية لطرد هؤلاء المستعمرين من أرضهم ، وفقد الناس آمالهم فى التحرر يوماً بعد يوم ، ولخوفهم الشديد من أن يصبحوا عبيداً للبيزنطيين قرروا اختيار "سكبارنا " قائداً للمناطق الغربية من بلادهم و " أويسيتا " قائداً للمناطق الشرقية ، وعندما أدركوا عدم قدرتهم على مواجهة البيزنطيين بمفردهم طلبوا مساعدة إيران لهم ؛ حيث فعلوا مثلما فعل الأيريسى من قبل ؛ فكى يتخلصوا من محتل استعانوا بمحتل آخر .

ولم تكن قوة الشعوب الصغيرة المحدودة تكفى لصد القوى البيزنطية العاتية ، وبينما كان قائد المنطقة الشرقية يستعد لمواجهة بيزنطة ، قام (سكبارنا) قائد آبازجيا الغربية بزيارة إيران وهو ملىء بالفخر والغرور ، واستحسن الشاه "خسرو" هذا الطلب وهو طلب أبازجيا المساعدة من إيران وانقلابهم ضد الدولة البيزنطية وهذا فى حد ذاته حدث بالغ الأهمية .

كان لجوء دولة آبازجيا إلى إيران بمثابة غنيمة كبيرة جاءت للإمبراطور "خسرو" ، الذى قرر اغتنام هذه الفرصة ووافق على عقد معاهدة صداقة بين البلدين قام بتوقيعها سفراء الدولتين إيران وأبازجيا ؛ حيث اكتسب هذا التحالف صفة رسمية . ولكى يضمن الإيرانيون أن يحققوا أهدافهم المرجوة قاموا باعتقال " سكبارنا " فى إيران الذى كان على رأس مجموعة السفراء . وأخذ الجيش الإيرانى استعداده بسرعة ، وفى فترة وجيزة اتجه صوب مملكة الأيريسى تحت قيادة القائد "نابد" .

قضى الجيش الإيرانى سريعًا على الأيريسى والأبسيليا ، ووصل إلى أبازجيا ؛ حيث رأيناه وقد أتى بأفياله الضخمة ، وعبر الطريق الجبلى لأبسيليا وآبازجيا

الذى كان له أهمية بالغة ؛ فهو ينحدر مباشرة إلى الممرات الجبلية لمدينة " صورام " ، كما يمر مباشرة أمام مدينتى " قوتش " و " أناقوبيا " ، وكان لهذا الطريق أهمية كبيرة فى العصور الأولى ؛ لأنه يوصل بسهولة إلى المرتفعات والممرات الجبلية .

وإذا نظرنا إلى الجيش الإيرانى ، نجده لم يمكث فترة طويلة فى أراضى آبازجيا والأبسيليا ؛ فقد انسحب كما حدث من قبل .

أما عن الجيش البيزنطى فنرى أنه قد جاء أيضًا إلى هذه المنطقة من أجل الحرب ، ووجد المجاهدون الآبازجيون أنفسهم فى مواجهة الجيش البيزنطى بدلاً من الجيش الإيرانى ، الذى قام قائده "نابد" بنهب البلاد بمجرد أن دخلها ، على الرغم من أنه كان قد أعلن أنه سيقوم بمساعدة الأباظجيين .

جمع "نابد" جيشه وانسحب قافلاً إلى بلاده ، بعدما رأى عنادًا ومواجهة قوية من الشعب الأباظجى ، لكنه عند عودته اصطحب معه ستين طفلاً من أطفال النبلاء فى آبازجيا كرهينة ، كما قام أيضًا بتهريب زوجة أحد النبلاء الأباظجيين .

لم يتفق مؤرخو تلك الفترة على رأى حول سبب انسحاب "نابد" وعودته إلى وطنه ، ولكن المؤكد أنه فعل ذلك بسبب المواجهة القوية التى قابلها من هذا الشعب .

قام شاه إيران (خسرو) باحتجاز (سكبارنا) رهينة عنده لعدم ثقته بشعب آبازجيا ، ولم يكتف (نابد) بهذا بل قام بسرقة ستين طفلاً من أطفال العائلات الشريفة ، ولم تصل إلينا حتى الآن أية وثيقة تتعلق بمصير هؤلاء الأطفال أو "سكبارنا" .

ونستطيع أن نقول بإيجاز إنه وسط كل هذه الظروف العسكرية الصعبة لم يستطع الفرس أن يجدوا الجو الملائم لهم فى أراضى آبازجيا ، لأن آبازجيا وأبسيليا كان الاستقلال والحرية فى مقدمة آمالهم مثل شعب الأيريسى تمامًا ؛ فكما لم يرد شعب آبازجيا رؤية البيزنطيين ، لم يرد أيضًا رؤية الإيرانيين .

ذكرت من قبل أن الدولة الآبازجية الصغيرة بعدما أعلنت استقلالها عن الدولة البيزنطية لم تحصل على المساعدة التى كانت تأملها من إيران ؛ فالشىء الوحيد الذى

عاد عليها من علاقتها بالإيرانيين هى اضطرارها لمحاربة البيزنطيين بمفردها دون مساعدة أحد . أما الأيريسيون الذين كانوا قد تحرروا حديثًا من احتلال الإيرانيين لهم لم يجدوا حلاً أو وسيلة أخرى سوى اللجوء إلى الدولة البيزنطية .

كان الموقف الآبازجي مختلفًا تمامًا ؛ فقد بدأوا صفحة دامية مع البيزنطيين ، فعلى الرغم من جهادهم المتواصل فإنه لم يؤت بثماره ، أما دولة الأبسيليا فكان لها استقلالها الخاص ؛ حيث تعتبر ضمن اتحاد دولة الأيريسى .

كان يجاور دولة آبازجيا وصانيجيا شعوب البروخ والزيخ والأديغه الذين هم شعوب شقيقة ، انحدرت من جذور الأبخاز اللغوية والعرقية نفسها .

لقد توصلنا إلى هذه النتائج من كتابات المؤرخ (بروكوبى) الذى قال : منطقة غرب القوقاز لا توجد عليها منازعات إيرانية أو بيزنطية ؛ حيث كانت فى أيدى الإيرانيين تارة وفى أيدى البيزنطيين تارة أخرى ، ولم يستمر وجود أى من هاتين الدولتين على هذه الأرض ؛ فلا توجد إدارة دائمة إيرانية أو بيزنطية فى هذه المنطقة ؛ فقد بدأت حرب استقلال آبازجيا عام٥٥٠ م.

إن المصادر السياسية لا توجد بها معلومات صريحة عن علاقة شعوب الآبازجيا والبروخ والزيخ والصانجيا بعضها ببعض . ومن ملاحظات "بروكوبى" نصل إلى بعض النتائج المهمة ، فمما أوضحته كتاباته عن الحدود الشمالية الغربية لأباظجيا : " تتكون الحدود الشمالية الغربية لشمال القوقاز من سلاسل جبلية " وفى فصل آخر من كتاباته نجده يقول : " عاشت دولة الآبازجيا فى الإقليم الذى يمتد حتى جبال القوقاز بينما عاش البروخ والزيخ والصانيجيا على سواحل (بوتى)" .

كانت الحدود الشمالية الغربية لكل هذه الشعوب هى جبال القوقاز ، وربما ما أراد أن يوضحه المؤرخ فى تعريفه الأول أن الحدود السياسية ليست هى الحدود القومية ؛ فإذا حالفنا الصواب فإنه من الممكن أن تأتى تفاصيل أخرى قريبة للعقل ، وهى أن شعوب الشمال الغربى للقوقاز عاشت ضمن وحدة سياسية مع آبازجيا .

هناك أحداث أخرى اتسمت بالصدق ، وهى أن أوبسيتا قائد آبازجيا ، كما سنرى فى الفصول القادمة بمجرد أن خسر معركة الاستقلال التى قام بها ضد البيزنطيين ترك وطنه ، ولم يلجأ إلى جيرانه المقربين كالبروخ والزيخ ، بل ذهب إلى قبائل الخون فى شمال القوقاز.

وأعتقد أن سبب ذلك هو أن هزيمة آبازجيا قد سببت هزيمة معنوية وسياسية لشعوب البروخ والزيخ والصانيجيا ، تلك الشعوب التى من الممكن أن تقف معها وتساندها وتتخلى عن الدولة البيزنطية التى تهيمن عليهم ؛ فسيطرتهم على آبازجيا يعنى سيطرتهم الكاملة على شمال غرب القوقاز ، وحصولهم على منافع سياسية واقتصادية كثيرة .

لكل هذه الأسباب ؛ فإن الحكومة البيزنطية أيقنت تمامًا مدى أهمية احتفاظها بدولة آبازجيا مهما كلفها ذلك ، ولهذا فعندما أعلنت آبازجيا استقلالها عنهم وجدناها قد بذلت كل المساعى من أجل منعها من هذا القرار .

إن حب هذا الشعب للحرية وولعه بها قد جعله يضحى بأرواحه وأمواله فى سبيلها . فالخبراء العسكريون للدولة البيزنطية كانوا يعلمون أنه من الصعب الاستيلاء على آبازجيا أو احتلالها بسبب طبيعة أرضها وجبالها .

ويقول "بروكوبى" مؤرخ تلك الفترة والذى عرف جيدًا خصائص هذه البلد : " هناك قمم عالية فوق أراضى آبازجيا بين آبازجيا ودولة الأبسيليا ، هذه القمم تنحدر إلى أسفل كدرجات السلم ؛ حيث تمتد من منطقة " أوكسى " إلى منطقة " بوتى " . وعلى هذه القمم الشاهقة أنشأ الآبازجيون القلاع الضخمة التى يصعب الوصول إليها . فهذه القلاع إذا ما حاول المحتلون الاقتراب من هذه البلاد أو احتلالها تقف حائلاً دون ذلك . وإذا أراد أحد الوصول إلى إحدى هذه القلاع أو الاقتراب من أطراف آبازجيا ، كان عليه أن يعبر ممرًا ضيقًا جدًا لا يستطيع شخصان السير فيه جنبًا إلى جنب" .

وهناك ناحية لهذا الممر الذى هو عبارة عن أخدود يصل إلى البحر ، هذه الناحية أو هذه المنطقة أطلق عليها الرومان قديماً اسم "تراقيا"، ولا نعرف لماذا لم يذكر المؤرخ اسم هذا المكان ، ولا أين يقع هذا الممر فى وقتنا الحاضر ؟ .

قام بعض الباحثين بالدفاع عن (بروكوبى) ؛ لأنه أشار إليها وذكرها بأنها (جاجرا) بدلاً من أن يذكرها (تراقيا) ، لكن البحوث العلمية أظهرت كون المنطقة المسماة بـ (أفونجيتز) أو (أفون الجديدة) هى المكان نفسه المقصود بـ (تراقيا) حالياً.

وفى وقتنا الحاضر شاهدنا بعض المساكن الباقية من العصور القديمة بجانب الجبال الموجودة فى منطقة أفون الجديدة ، والتى يطلق عليها قلعة (أناقوبيا).

ذكرت بعض المصادر الجورجية فى العصور الوسطى هذه القلعة أيضاً ؛ فهى ترتفع عن سطح البحر ارتفاعاً يصل من ٢٥٠ :٣٠٠ متر لا سيما الأجزاء السليمة منها ؛ فهذه القلعة التى أشرنا إليها لا زالت سليمة حتى وقتنا الحاضر .

ووفقًا للكتابات الأثرية فإن هذه القلعة تتميز بأبراجها العالية وأبنيتها المتعددة ، التى أعجزت الجيوش البيزنطية على اقتحامها فى حربها ضد أبازجيا عام ٥٥٠ ميلادية .

تحرك قائد الجيش البيزنطى "بس" بسفنه تجاه أبازجيا ، وكان الجيش آنذاك ينقسم إلى قسمين كبيرين : هما سلاح المشاة ، وسلاح البحرية تحت قيادة اثنين من القادة "وليجاج" و"يوان" ، وكان كلٌ منهما يعرف مملكة "الكولخيد" جيداً ، لأنهما كانا وحتى عهد قريب يترددان على هذه المنطقة .

فعلى سبيل المثال اشترك "وليجاج" فى بدايات القرن السادس فى الحروب التى دارت بين إيران وبيزنطة ، وكان (يوان) قائداً عسكرياً مشهوراً .

توجه الجيش البيزنطى إلى صحراء أبازجيا الشرقية سيراً على الأقدام ، وقام سلاح البحرية باقتفاء أثرهم عبر الطريق البحرى بالزوارق ومن ورائهم السفن حتى اقتربوا من السواحل .

وعندما اقترب الجيش البيزنطى من (تراقيا) وجد الجيش الآبازجى متحفزًا لمواجهته ، وفكر الجيش البيزنطى فى الضغط عليه ، ومحاصرته ولكن وجده صلبًا لا يتزحزح ؛ فارتبك ولم يعرف ماذا يفعل ، وبدأ يبحث عن طريقة للخروج من هذا المأزق .

بدأ القادة العسكريون البيزنطيون يفكرون فى عاقبة الهزيمة وماذا سيحدث لهم لو هزموا ؟! فقاموا بتغيير خططهم العسكرية ، وأمروا بأن يظل نصف الجيش فى موقع المعركة بينما يركب النصف الآخر الزوارق البحرية ، وينزل خلف منطقة (تراقيا) دون أن يراهم الجيش الآبازجى فى محاولة لتطويقه .

كانت أولى خطواتهم الإغارة على القلاع بكامل قواتهم من ناحية الشمال الغربى ، ثم الهجوم فى الوقت نفسه بالنصف الآخر من الجيش من ناحية الجنوب الشرقى .

اكتشف الآبازجيون خدعتهم ، لكن بعد أن وجدوا أنفسهم محاصرين من جميع الجهات ؛ فلم يستطيعوا الصمود فى مواجهتهم فانسحبوا سريعًا إلى قلاعهم فى تراقيا ، إلا أن المحتلين نجحوا فى الدخول معهم إلى هذه القلاع وبدأ الكفاح المرير بداخلها ، لأن الآبازجيين مصممون على ألا تستولى بيزنطة على هذه القلاع التى لم تستطع الاستيلاء عليها من قبل .

كانت أعداد المحاربين البيزنطيين تفوق إلى حد كبير أعداد المحاربين الآبازجيين ، كما كانت أسلحتهم متطورة إلى جانب خططهم العسكرية الحديثة التى أحدثت فرقًا كبيرًا بين الجيشين المتحاربين ؛ حيث استولى البيزنطيون فى النهاية على القلعة ، وكان هذا منتهى أملهم ولذلك لم يعكر صفو انتصارهم أى شىء .

وثار الآبازجية فى البيوت القريبة من القلعة ، وقاموا بمهاجمة الجيش البيزنطى هجومًا عنيفًا ، وهنا ارتبك القادة البيزنطيون الذين ظنوا أنهم وصلوا إلى منتهى أملهم باستيلائهم على قلعة (تراقيا) ، وقد وصف المؤرخ (بروكوبى) هذا الموقف قائلاً :

" ظل البيزنطيون وجهًا لوجه فى مواجهة هذا الموقف الصعب ؛ فقد كانت المنازل الآبازجية كثيرة العدد ومتجاورة ، تحيط بها الحدائق والأسوار من كل جانب ، وبهذا

الخط الدفاعى الطبيعى المكون من المنازل والغابات استطاع مقاتلو الآبازجية أن يقفوا موقفًا بطوليًا أمام البيزنطيين ؛ حيث قاتلوا بشراسة فى هذه الحرب غير المتكافئة من أجل الدفاع عن أعراضهم وأسرهم . وعندما أيقنت القوات البيزنطية أنها لن تستطيع الوقوف أمام هؤلاء المقاتلين ، قامت بإضرام النار فى المنازل ؛ حيث تحولت الحرب لصالحهم " .

بعدما خسرالآبازجيون الحرب فى مواجهة البيزنطيين قنعوا بحالهم ، وعاشوا تحت سيطرة الدولة البيزنطية إلا أنها رغم ذلك قد نجحت فى إشعال شرارة الحرية فى مواجهة الدول المستعمرة ، هناك حقيقة يجب أن نعرفها وهى أن الآبازجية الشرقيين هم الذين قاتلوا بشراسة فى هذه الحرب ، بينما لم يحارب الآبازجية الغربيون لأن البيزنطيين كانوا قد قسموا هذه الدولة إلى قسمين ، وكان لهذا التقسيم الأثر الكبير فى انتصار البيزنطيين على الآبازجيين ، وانتهت الحرب مثلما أراد البيزنطيون على الرغم من البطولات والتضحيات التى قام بها الآبازجيون .

ويتحدث البروفسير "أنجابادزة"عن هذا الموقف بقوله : " هذا الوطن الصغير العزيز أدرك أن الحظ لم يكن يحالفه ، وأنهم يقاتلون جنودًا مدربين وعلى الرغم من ذلك فإنهم لم يكفوا عن القتال للحصول على استقلالهم " .

وقد انتظر الآبازجيون المساعدة التى وعدهم بها الإيرانيون ، إلا أن الإيرانيين لم يفوا بوعودهم ، و ظل الآبازجيون يقاتلون هذا الجيش الإمبراطورى القوى بمفردهم ؛ حيث تكبدوا خسائر بشرية كثيرة تُقدر بالآلاف ماتوا حرقًا ، أما الآخرون فقد أصبحوا عبيدًا ، واستولى البيزنطيون على كل المنطقة ؛ حيث أصابهم الغرور بعدما استولوا على قلعة (تراقيا) .

لجأ (أويسيتا) قائد الآبازجية ومن معه ممن ظلوا على قيد الحياة إلى قبائل الخون مارِّين بشمال القوقاز ؛ فاستقبلوا بحفاوة لم يكونوا يتوقعونها .

نحن نعرف أن الإيرانيين قد أخذوا (سكبارنا) رهينة عندهم ؛ فاختفى واختفت أخباره ولم تقم بلاده بأية محاولة لاسترداده أو مساعدة إخوانها فى حروب تراقيا أو تشترك معهم فى الحرب .

وهنا تُثار عدة أسئلة ، لماذا لم يحاربوا إلى جوار الآبازجية ؟ ولماذا لم يقدموا يد المساعدة إلى إخوانهم فى مواجهة بيزنطة؟ وهل يوجد سر وراء أسر (سكبارنا) رهينة فى إيران ، وعدم مساعدتهم لإخوانهم ؟ كلها أسئلة لم نجد لها حلاً حتى وقتنا هذا.

وبعد هذه الحرب بدأت بيزنطة فى تحجيم سلطات قادة آبازجيا ؛ حيث قاموا بربط هذه الدولة بالسلطة المركزية فى بيزنطة ، كما أنهم ضموا المناطق الشمالية المجاورة لها إلى حوزتهم .

لقد احتلت حرب الاستقلال الآبازجية عام ٥٥٠م ، مكانة مهمة بين حروب استقلال مملكة الكولخيد .

(جـ) ظهور الأبسيليا :

انعكست حرب استقلال آبازجيا أول ما انعكست على دولة الأبسيليا ؛ حيث وجدناها وقد قامت بإعلان استقلالها فى عام ٥٥٠م .

تضم حدود دولة أبسيليا فى وقتنا الحاضر مقاطعتين هما : "جال" و"أوتشامجيرا" ؛ حيث يحدها من الشمال أراضى "صوخوم" و "جولريبش" ، التى تمتد من تسبال وحتى نهر "جوميستا" فى الغرب.

كانت "أبسيليا"واقعة تحت حكم مملكة الأيريسى وكانت تتمتع بالحكم الذاتى ، وقامت الحروب فى هذه المنطقة ضد المحتلين من أجل إعلان استقلال الكولخيد وأبسيليا مثل الشعوب الأخرى التى دخلت ضمن اتحاد الأيريسى .

ظهر النظام الإقطاعى فى أبسيليا فى بدايات القرون الوسطى ، وبدأت تظهر طبقة الإقطاعيين ، كما تكونت طبقة الموظفين الحكوميين من العائلات الأرستقراطية وكبار التجار ، ولم تكن بيزنطة راضية عن السياسة الاقتصادية فى هذه الدولة ، مما كان سببًا للتدخل شيئًا فشيئًا فى شؤون هذه البلاد .

لم ينشأ العداء بين القوتين العظميين إيران وبيزنطة من فراغ ولكن كان له أسبابه ، وهكذا عندما سنحت الفرصة سارع كل منهما لاقتناصها ؛ فأول شيء فعلته إيران هو الإيقاع بين الأبسيليا والأيريسى .

ومثلما أوضحنا فى الصفحات السابقة أن الآبازجية قد أعلنوا العصيان على البيزنطيين عام ٥٥٠م ، بعد أن طلبوا المساعدة من إيران التى كانت تحت حكم الدولة الساسانية ، فقام الملك "خسرو" بإرسال جيش إلى الكولخيد بقيادة (نابد) الذى قام بسلب أبسيليا ، كما قام كذلك بخطف "فيوبرا" الجميلة التى كانت زوجة الأمير (أوبسيتا) حاكم اللاذ وعم القائد جوباز .

كانت إيران تقصد من وراء تصرفها مع دولة (أبسيليا) أن تراقب تحركات الدولة البيزنطية فى المنطقة ، ولذلك وجدناها وقد زرعت بذور الفرقة والخلاف بين أبسيليا وآبازجيا .

عاد "نابد" أدراجه إلى بلاده عندما لم يجد ما يصبو إليه ، وإذا رجعنا إلى الوراء قليلاً وبالتحديد عام ٤٥٩م ، نجد أن شعبى الأيريسى والأبسيليا قاما بطرد الإيرانيين من مملكة الكولخيد .

اضطر الجيش الإيرانى بقيادة (نابد) لمغادرة هذه البلاد ، لكنهم لم يتخلوا عن نواياهم فى أبسيليا ، والتى تتمثل فى الاستيلاء على أراضيها ، ولذلك قاموا باستمالة الزعماء الموجودين فى هذه المنطقة وأولهم (تاردت) .

ويصف بروكوبى هذه الواقعة بقوله :

" كانت توجد قلعة حصينة فى هذه الدولة أطلق عليها قلعة (تسيبيلا) ؛ فعندما فسدت العلاقة بين حاكم اللاذ و (تاردت) ، اتفق (تاردت) خفية مع الفرس على

مساعدتهم فى الدخول إلى قلعة (تسيبيلا) ، ولما وصلوا إليها توقف الجيش الإيرانى ، وتقدم (تاردت) الذى أعطى الأمان بوجوده لمن فى القلعة فلم يقوموا بأى رد فعل لمقاومة العدو بسبب الصداقة بين اللاذ والأبسيليا ؛ حيث بدأ الإيرانيون الهجوم من الخارج و(تاردت) من الداخل حتى سقطت هذه القلعة فى أيديهم" .

وبعد هذا النجاح وضع الإيرانيون فى حسبانهم مرة ثانية الاستيلاء على أبسيليا كلها إلى جانب (اللاذيقا) ، وفى أثناء ذلك اتفق اللاذ والبيزنطيون على استرداد قلعة (بترا) من الإيرانيين ، الذين أصبحوا فى موقف لا يحسدون عليه جعلهم لا يطلبون المساعدة من الأبسيليا.

وإذا نظرنا إلى موقع هذه القلعة حاليًا ، نجدها تقع فى مكان يبعد حوالى ثلاثة كيلومترات عن (تزابال) ، التى هى من أعمال مقاطعة (جوريبش) فى أبخازيا ، وكان هذا موافقًا للنتائج التى توصل إليها الباحثون من النقوش والآثار ، التى استمرت عدة سنوات فى تلك المنطقة .

وإذا ما شاهدنا قلعة (تزابال) نجدها لا تزال على حالتها حتى الآن ؛ فقد أنشئت قمتان مرتفعتان تطلان على نهر كودرى ، كما تحيط بها أبراج للمراقبة من كل جانب من ناحية الشمال والغرب والشرق ، أما من ناحية الجنوب فنرى المرتفعات ، وقد مثلت حماية طبيعية لها .

كان حكام تزابال حتى عهد قريب مسئولين عن أمن وسلامة الطريق الذى يمر فى بلادهم ؛ فهذا الطريق سواء فى العصور القديمة أو العصور الوسطى يعد ممرًا فى غاية الأهمية ؛ لأنه يربط سواحل البحر الأسود بأودية الماروخ والقيليق خورة والنهار ، كما كان يوجد بجوار قلعة (تزابال) أبنية أثرية تدل على أن هذا الإقليم ، كان مركزًا حيويًا كبيرًا .

إن الذى يستطيع السيطرة على قلعة "تزابال" ، يمكنه أن يسيطر على قلعة الدال وتزابال معًا ، كما يمكنه أيضًا التحكم فى طريق أبسيليا الذى كان يطلق عليه "دارى" ،

ولذلك فنحن فى حيرة من هذا الأمر وهو كيف يتنازل شعب أبسيليا للفرس عن قلعة بهذه الأهمية ! إن المؤرخ بروكوبى الذى أوضح سهولة استيلاء الفرس على هذه القلعة ، لم نشاهد عليه أية حيرة أو دهشة من هذا الأمر جعلنا نشك فى صدق ما قاله . من المعلوم أن الاستيلاء على قلعة (تزابال) لم يكن أول تدخل للإيرانيين ، لأنهم بإحكام قبضتهم على سفانيتا والميسيميان يستطيعون الاستيلاء على هذه القلعة مرة أخرى التى كانت تمثل بالنسبة لهم أهمية كبيرة . ووفقًا لتخميناتنا ، فإن (نابد) قد أراد من قبل الاستيلاء على هذه القلعة ولكن لم ينجح .

ولهذا عقد شاه إيران مع معارضى الملك (جوباز) اتفاقية تعاون مشترك ، وكان (تاردت) ومَنْ تحت إمرته من (اللاذ) ضمن المعارضين لهذا الملك ؛ حيث ضمت مجموعة المعارضين نبلاء (الأبسيليا) ، التى أرادت أن تؤسس حكومة مستقلة عن الأيريسى ، ولهذا عقدوا تحالفًا مع أعداء الملك (جوباز) فى الأيريسى ، وأخذوا يراقبون بدقة ما يحدث أو ما يدور من أحداث فى مملكة الأيريسى التى كانت تحت سيطرة الدولة البيزنطية ؛ حيث كانوا يثيرون الفتن ويشعلونها كلما أتيحت لهم الفرصة إيمانًا منهم بأنهم فى حالة حرب دائمة مع البيزنطيين ، ولهذا فقد حاول هؤلاء النبلاء الحصول على قلعة "تزابال" دون حرب ؛ لأنهم لم يريدوا رؤية البيزنطيين أو الأيريسى فى أبسيليا ، وقد وجد (تاردت) ومن معه الذين كانوا على خلاف مع ملك الأيريسى أنه لا مناص من أن يسلموا القلعة للإيرانيين .

بعد ذلك وبعد أن تطورت الأحداث ، وجدنا أن الأبسيليا قد حصلت على استقلالها عن الأيريسى والبيزنطيين ، أما الشعب الذى كان يعيش فى (تزابال) ، فقد أصابه الخوف عندما فقد قلاعه التى كانت تمثل له أهمية كبيرة .

وفى هذه الفترة نفسها أرادت كلٌّ من الدولتين البيزنطية والأيريسى أن تسترد قلعة (بترا) من الإيرانيين ، إلا أنهما كانا فى حالة من الضعف لم تجعلهما يساعدان أبسيليا مما ساعد جيش الفرس على الاستيلاء على (تزابال) ، والسطو على البلاد وسرقة أموال الناس ، إلا أن البدو لم يستسلموا لهذه الهزيمة واشتعلت الحرب بينهم ؛

فقد كان أهم هدف يسعى إليه الأبسيليان ، هو استعادة قلعة (تزابال) من الإيرانيين ؛ حيث وجدوا الفرصة سانحة ، ويصف بروكوبى هذه الواقعة بقوله :

" كان فى هذه القلعة زوجة القائد العسكرى الأبسيلى والتى كانت سيدة جميلة ؛ فوقع قائد الجيش الإيرانى فى هواها ، وحاول إغواءها بشتى الطرائق ، إلا أنها حافظت على شرفها ، وقد أغضب هذا العمل زوجها الذى قام على الفور بقتل قائد الفرس ، كما قتل الكثير من الجنود الذين ذهبت أرواحهم فداءً لقائد العجم المسكين ، واستولوا على القلعة " .

طرد الفرس من البلاد وفروا من قلعة (تزابال) ، ويرجع الفضل فى هذا لقائد الأبسيليان وحده ، كان الأبسيليان يعرفون معرفة جيدة أن الإيرانيين يريدون الاستيلاء عليهم مثل دولة الأيريسى تمامًا ، إلا أنهم نجحوا فى مقاومة هذا الاحتلال بضراوة ، كانت قلعة "تزابال" تحت سيطرة الإيرانيين ولكن لفترة قصيرة فى عام ٥٥٠ م ، وتدل على ذلك النقوش الأثرية التى اكتشفت فى هذه المنطقة ؛ وهى عبارة عن أوانٍ وأدوات ومستلزمات الخيول وبعض العملات الذهبية وغيرها ، فجميع هذه الأشياء صنعت فى إيران بين عامى (٤٨٣م - ٥٣١م) فى عصر الشاه (قاواد) ، وكانت تستخدم فى ميدان الحرب قديمًا ، وكان من بينها نصل وسهم ، ويرجع الباحثون هذه الآثار إلى رجال الحامية العسكرية الذين قتلوا فى قلعة "تزابال" .

كانت الحرب ضد الحامية العسكرية الإيرانية القوية أمرًا بالغ الصعوبة ويحتاج إلى شجاعة ؛ لأن القلعة التى كانت تحتمى فيها تلك الحامية التى كان يطلق عليها قلعة (تزيبيليوم) كانت بحالة جيدة ، خاصة أنها أُنشئت فى الأصل للدفاع عن الإيرانيين ، وكل ما كان يوجد بالقلعة كان للدفاع عنها .

يفهم من هذه الروايات أن قلعة "تزابال" ، كانت مسرحًا لحرب شرسة عام ٥٥٠م ، وكان قائدها قائد الأبسيليان ، الذى كان يحارب الفرس الذين استماتوا فى الدفاع عن هذه القلعة ، وقد استولوا عليها بالمكر والخديعة .

كانت هذه الحرب مأساة كبيرة لهذه الحامية العسكرية الإيرانية ، التى راح ضحيتها أعداد كبيرة من الأبسيليان والإيرانيين ما بين قتيل وجريح .

ويواصل بروكوبى حديثه قائلاً : " بمجرد أن استعاد الأبسيليان قلاعهم من الفرس ، انفصلوا عن الاتحاد الكولخيدى لأنهم لم يقفوا بجانبهم ولم يقدموا لهم يد المساعدة فى حربهم ضد الإيرانيين " . وما نستنتجه من هذه الأحداث أن إعلان استقلال الأبسيليا لم يكن موجهًا للأيريسى فقط ، بل كان للبيزنطيين لأن مملكة الأيريسى كانت تحت الحكم البيزنطى ، ولم تمنح الأيريسى المساعدة المطلوبة للأبسيليا بل وقفت إلى جانب بيزنطة .

ووفقًا لملاحظات البروفسير "أنجابادزة" : فإن الشعوب التى ارتضت النظام الإقطاعى نظامًا لها ، اضطرت لإعلان استقلالها ؛ فلم ترض أن تكون تابعة لهذه الدول المستعمرة ، وشعب الأبسيليا مثل هذه الشعوب الشركسية قد كره الفرس كما كره البيزنطيين ولم يرغب فى رؤيتهم داخل بلادهم .

كان استقلال دولة الأبسيليا عن الدولة البيزنطية بداية حروب ومشكلات سياسية عديدة استمرت لسنوات طويلة ؛ حيث كان لها أبلغ الأثر على البيزنطيين ، وتسببت عن ذلك مشكلات سياسية جديدة داخل الإمبراطورية ، التى كانت تحكم عدداً كبيراً من شعوب شمال القوقاز ، ولهذا وجدنا الحكام البيزنطيين قد تركوا حل هذه المشكلة لحكومة الأيريسى ، وقد تناول المؤرخ "بروكوبى" هذا الموضوع بقوله :

" أرسل جوباز إلى أراضى الأبسيليا فرقة عسكرية قوامها ألف شخص تحت قيادة القائد العسكرى (يوان فوما) ، للتفاهم معهم بلغة تسودها الأخوة والصداقة ؛ حتى يبتعدوا عن شبح الحرب ، وهكذا تم الاتفاق معهم ومع اللاز بموجب معاهدة اتفاق فيما بينهم ".

إن النتيجة المؤكدة التى يمكن أن نخرج منها من هذا الحدث ، هو أن الإمبراطورية البيزنطية قد أرادت أن تحل مشكلة دولة الأبسيليا بالطرائق السلمية ، وكان

لهذا عدة أسباب أهمها أنها لا تريد أن تشتت قوتها فى جبهات مختلفة ، لاسيما وأنها كانت تحارب الإيرانيين فى تلك الفترة ؛ فإذا لم تستطع الوصول إلى نتيجة مع الأبسيليان بالطرائق السلمية ؛ فإن الإمبراطور "جستنيان" سيضطر إلى استخدام القوة ، وإذا نظرنا إلى القائد (يوان) الذى أرسله الإمبراطور البيزنطى إلى دولة الأبسيليا لم يكن من واقع المصادفة ، ولكن كان هذا القائد هو الذى أرسل من قبل إلى آباظجيا وقتل منها الكثير فى حرب تراقيا ؛ فكان إرساله من أجل إرهاب الأبسيليان .

وبإعلان الأبسيليا الاستقلال عن بيزنطة دخلت مرحلة جديدة من الصراع مع البيزنطيين ، ولم تتلق المساعدة من إيران ؛ فليس من المعقول أن تطلب المساعدة من إيران بعدما صنعت بهم فى قلعة "تزابال" .

كانت دولة الآبازجيا تحت الحكم البيزنطى ، حتى إن قائدها (أوبسيتا) قد سجن من قبل البيزنطيين مثلما سجن "سكبارنا" من قبل ، وكذلك القادة الآخرون ، وكان الموقف السياسى والجغرافى لدولة الأبسيليا فى حالة لا تحسد عليها ؛ فهى دولة صغيرة كدولة الآبازجيا تمامًا ، لا تحصل على مساعدة أو دعم من أحد ، تقف فى مواجهة أكبر قوة عظمى فى العالم فى ذلك العصر وهى الدولة البيزنطية .

كان حكام أبسيليا على علم تام بهذا الموقف ، فهم حتى إذا نالوا استقلالهم ، وظفروا بالنصر ؛ فمن المستحيل أن يستطيعوا حماية هذا الاستقلال مدة طويلة وسط أراضى الكولخيد ، التى كانت مسرحًا للقتال فى ذلك العصر . فهم فى النهاية سيقبلون سيطرة إحدى القوتين العظميين ، فحتى إذا أصبحوا تحت سيطرة إيران ؛ فإن هذا لن يكون عاقبته حسنة من أجل الأبسيليان ، لأنه ومنذ فترة قصيرة كانت الحامية الإيرانية فارغة من المدافع ، كما أن الإيرانيين لم ينسوا ما فعله الأبسيليان معهم ، وسيأخذون بثأرهم منهم . كذلك لم ينس الإيرانيون أنهم كانوا قد طُردوا من أراضى الكولخيد بعدما أعلنت هذه البلاد استقلالها .

انضم الأبسيليا إلى اتحاد مملكة الأيريسى ، ولكن البيزنطيين لم ينعموا بأى سكون أو هدوء خلال هذه الفترة ، لأنهم فقدوا الثقة بالأبسيليان ولم يأمنوا جانبهم ؛ فكانت كل لحظة تمر بهم كانت معها مشكلة جديدة .

وإليك بعض الأحداث التى تُظهر هذا الخوف الذى انتاب البيزنطيين آنذاك ؛ فقبل إعلان الميسيميان استقلالهم ، وعندما كانوا يسيطرون تمامًا على قلعة (تزابال) ، وجدناهم بعد أن تراجعوا عن هذا الاستقلال ، قد تركوا إدارة هذه القلعة لحامية بيزنطية . ووفقًا لما ذكره بروكوبى " أنه فى عام ٥٥١م، أوقفت الحامية العسكرية البيزنطية الموجودة فى قلعة (تزابال) جيش القائد (مرمروس)" .

وقد شاهدنا فى هذه القلعة الكثير من الآثار التاريخية كالموائد والأصداف البحرية ومواضع تقديم القرابين ، وأشياء أخرى خلفتها الحامية العسكرية البيزنطية التى أقامت فى تلك القلعة ، وحسب اعتقادنا أنه فى هذه الفترة ، قد أقامت الحاميات العسكرية البيزنطية فى القلاع الموجودة فى أبسيليا ، وبصفة خاصة المطلة على سواحل البحر . قامت الدولة البيزنطية بإخماد ثورات الآبازجيا ، ثم بعد ذلك ثورات الأبسيليا ، ثم وقفت فى مواجهة الإيرانيين وأحرزت انتصارات كثيرة عليهم ، وعلى الرغم من كل هذا ؛ فإن رغبة شعوب الأبخاز والكرتفال ، الذين يعيشون على أراضى الكولخيد فى الاستقلال ، قد وقفت حائلاً فى مواجهة راحة البيزنطيين فى هذه المنطقة .

وإذا ما حاولنا أن ندقق النظر ؛ فإن حادثة استقلال الأبسيليان تعد من أهم الأحداث التى ظهرت فى هذه المنطقة ، مثلما حدث مع شعب آبازجيا من قبل .

(د) الحروب الإيرانية البيزنطية فوق أراضى الأيريسى فى الأعوام الخمسين الأولى من القرن السادس الميلادى :

بينما كنا نرى شعبى الآبازجيا والأبسيليا يحاربان من أجل استقلالهم فى عام ٥٥٠ م ، وجدنا فى هذه الفترة أن أراضى مملكة الأيريسى كانت مسرحًا لحروب حامية الوطيس بين الإيرانيين والبيزنطيين ؛ فمنذ بدايات القرن السادس الميلادى كانت دولة الكولخيد تعيش حروبًا لا تنتهى ؛ وقد رأيناها عاشت أصعب فترات حياتها ؛ إذ وجد الأبسيليان والآبازجية أنفسهم مضطرين للوقوف مع البيزنطيين فى محاربتهم ضد الإيرانيين ، لاسيما بعدما خسروا حرب الاستقلال التى خاضوها ضدهم .

كانت قلعة (بترا) حتى ذلك الوقت فى يد الإيرانيين ، أما قائد الحامية العسكرية المدافعة عن تلك القلعة فهو "مرمروس" .

حاصر محاربو بيزنطة والأيريسى قلعة (بترا) ، كما قام الشاه (خسرو) بتقديم كل أنواع المساعدة للمدافعين عن هذه القلعة ؛ لأنهم من أجل أن يسيطروا على الكولخيد ، كان لزامًا عليهم أن تكون هذه القلعة فى أيديهم .

وجدنا أنه عندما أخمدت جيوش بيزنطة والأيريسى ثورات الأبسيليان والآبازجية ، وجهت جميع قواتها إلى هذه القلعة ؛ حيث اضطر المحاربون الآبازجيون والأبسيليان إلى الاشتراك فى هذه الحروب مع الدولة البيزنطية ، ولم تكن أمامهم خيارات أخرى. وإذا نظرنا إلى شعوب الأبخاز والكرتفال فى هذه الفترة وجدناها قد اضطرت للقتال بكل قواتها إلى جانب الدولة البيزنطية ففى عام ٥٥١م ، وسار جيش قوى يتكون من الآلان والفرس تحت قيادة قائد يدعى (خوريان) فى اتجاه مملكة الأيريسى ؛ حيث أقام هو وجيشه معسكرًا بالقرب من نهر (جيبس) ، وعندما علم (جوباز) ملك الكولخيد و (داجيسفى) قائد جيش الروم بهذا ، اتخذوا قرارهم سريعًا ، ثم جمعوا جيوش الروم واللاذ واتجهوا إلى هناك ؛ حيث كان يتقدمهم فرسان اللاذ كقوة أمامية ، ثم يأتى بعد ذلك فرسان الروم الذين كان يقودهم القائد "فيلاجاج" ؛ فكانت هناك مسافة بعيدة بينهما ، أى بين فرسان اللاذ وفرسان الروم .

كان "فيلاجاج" هذا مصريًا اتصف بالحيوية والنشاط ، من بعده يأتى القائد (يوان) ، الذى كان أرمنى الأصل ، وكان خبيرًا بالفنون الحربية والعسكرية .

تقدم (جوباز) ملك اللاذ و(داجيسفى) قائد الروم الجيش ، لبث الحماس فى نفوس الجنود ومنعهم من الفرار.

وقعت الحرب بالقرب من (موخاريس) الواقعة بين نهرى (شيخا نسكالى) و (ريون) . وخسر الجيش الإيرانى المعركة وقتل عدد كبير من جنوده مع قائدهم (خوريان).

وبعد أن انتصر البيزنطيون فى هذه المعركة حاصروا قلعة (بترا) مرة ثانية ، واستولوا عليها ، ولكن هذه المرة حاصروها حصاراً شديداً هلك فيه الحرث والنسل .

قامت بيزنطة بتخريب القلعة خوفًا من استيلاء الإيرانيين عليها ثانية ، وأيضًا لكى يجعلوها غير صالحة للاستخدام إذا قامت الكولخيد بمحاولة استخدام هذه القلعة فى حربها من أجل الاستقلال . ويقول بروكوبى فى هذا الصدد : " قام القائد "بس" بتدمير القلعة وإرسال كل شىء استولى عليه إلى الإمبراطور البيزنطى ، وقام بتخريبها خوفًا من بناء قلعة أخرى ، وقام الإمبراطور بمكافأته لنجاحه ولم تكن هذه المكافأة لانتصاره ولكن لتخريبه القلعة " .

وعلى الرغم من هزائم الإيرانيين فى موقعة (موخاريس) وفى قلعة (بترا) ، فإنهم لم يفكروا فى التراجع أو الانسحاب من أراضى الكولخيد ، ففى عام ٥٥١م ، هجم الإيرانيون والخون على الأيريسى ؛ حيث أعطيت كافة الصلاحيات للقائد (مرمروس) لكى يعمل ما يريده فى الأيريسى .

أراد قائد الفرس أن يصل إلى أبخازيا ، وتمر جيوش بيزنطة واللاذ التى كانت تنتظره فيما بين نهرى كوروريون دون حرب ، إلا أنه لم يستطع الوصول إلى هدفه ويصف المؤرخ هذا الموقف بقوله : " من حسن الحظ أن توجه الجيش الإيرانى إلى آبازجيا بكامل قواته وعتاده دون أن يتعرضوا للجيش البيزنطى أو جيش اللاذ ، ولكن الأنفاق والسراديب المؤدية لهذه القلعة قد منعت الجيش الإيرانى من مواصلة سيره ؛ حيث تراجع بسرعة واتجه صوب (آرخيوبوليس) وحاصر القائد (مرمروس) هذا المكان " .

كان السبب الوحيد لتقدم الجيش الإيرانى نحو آبازجيا ليس من أجل الحامية العسكرية الرومية ، ولكن من أجل الأبسيليان الذين كانوا يقومون بهجمات بربرية وحشية على الجيش الإيرانى ، مما أنهكهم وأضعف قواهم .

إن الجيش الإيرانى الذى اضطر للتراجع عن حدود أبخازيا ، كان هدفه الجديد هو الاستيلاء على مدينة (أرخيوبوليس) ، التى كانت مركزًا لحكومة مملكة الأيريسى ،

إلا أنه لم ينجح فى تحقيق هدفه ، ولهذا وجدنا الإيرانيين والخون ينتشرون فى هذه المنطقة من أجل إبراز عضلاتهم أمام البيزنطيين وشعوب المنطقة.

وفى عام ٥٥٢ م ، تم توقيع معاهدة سلام بين بيزنطة وإيران ، ولم تكن أراضى الأيريسى ضمن هذا الاتفاق ، واستمرت الحروب الضارية فى هذه المنطقة ، ووفقا لما كتبه المؤرخ الرسمى " أجاييف " : "لم يكن أساس هذا الاتفاق هو الصداقة ، ولم يفكروا فى إنهاء الحرب الدائرة بينهم ، ولا توجد علاقة أبداً بين هذه المعاهدة والحرب الدائرة على أراضى الكولخيد " .

أوضح الباحثون وكذلك المصادر الخطية والمكتوبة ، أن الاتفاق الموقع فى عام ٥٥٢م بين إيران وبيزنطة ، قد حقق امتيازات عديدة بالنسبة لهم ؛ فبعد وفاة (مرمروس) ، قام شاه إيران بتعيين القائد العسكرى (ناخوراجان) قائداً للجيش الإيرانى فى أراضى الكولخيد .

إن شاه إيران (خسرو) الذى كان يحسب جيداً ظروف تلك الفترة ، ويقدرها تماماً أراد أن يوجه رغبات الملك (جوباز) إلى الطريق الصحيح عن طريق الترغيب تارة ، والترهيب تارة أخرى ؛ فكان يسعى من وراء ذلك إلى تحويل أنظاره صوب إيران .

كان الملك (جوباز) يعلم جيداً أنه بتصرفه هذا ومحاولته الميل نحو إيران سيحرز أشياء كثيرة لنفسه ولبلاده ، وعلى الرغم من ذلك لم يوافق على إغراءات شاه إيران.

كانت شعوب الكارتفال والأبخاز فى حروب متواصلة مع إيران التى كانت تسيطر على هذه الشعوب ، وقد روى المؤرخ الرسمى الذى عاش فى تلك الفترة فقال: " إن الكثرة الكاثرة من اللاذ لم يكونوا يحبون البيزنطيين ، ولأنهم كانوا يعرفون جيداً قوة الجيش البيزنطى ؛ فإن الأغلبية منهم قد فضل السكوت على الثورة " .

ولم يكن هناك ثمة اختلاف كبير بين نظرة اللاذ ونظرة الآبازجيا والأبسيليا والميسيميان ، وكذلك نظرة شعب سفانيتا إلى البيزنطيين . وقبل الفتن التى حدثت فى عام ٥٥٢م دبت الخلافات بين جوباز وبعض الزعماء البيزنطيين .

كنا قد أشرنا إلى قوة القائد (يوان) السياسية ، وعلمنا أيضًا أن القادة الآخرين أمثال (داجيفى) و (بس) و (مارتينز) لم يريدوا أن يظهروا أضعف منه ، خاصة وأن الملك (جوباز) كان يبلغ الإمبراطور "جستنيان" وبصورة منتظمة عن الطريقة التى كان هؤلاء القادة يتبعونها فى مملكة الأيريسى ، وكان الإمبراطور بدوره يمنع التصرفات التى كان يراها غير لائقة من هؤلاء القادة .

فعلى سبيل المثال أقال الإمبراطور (جستنيان) القائد (داجيفى) من وظيفته لعدم رضا (جوباز) عنه ؛ حيث قام بتعيين القائد (بس) بدلاً منه.

وقد رأينا المؤرخ "«بروكوبى» يتناول هذا الموضوع بقوله :

" عندما استولى القائد (بس) على قلعة (بترا) ، لم يرد الدخول فى مشكلات أخرى ؛ حيث ذهب إلى مناطق (البونتوس) وأرمينيا وانغمس فى جمع الجزية ، مما كان سببًا فى إلحاق الضرر الكبير بالبيزنطيين وسياساتهم ؛ فبمجرد أن استولى على قلعة (بترا) توجه صوب حدود (أيبريا) مع اللاذ ، وهناك استولى على مناطق غاية فى الأهمية ، مما جعل الإيرانيين لا يستطيعون الاستيلاء على دولة اللاذ" .

كذلك بدأ هذا القائد الكبير فى إحداث بعض المضايقات للإمبراطور (جيستنيان) ، كان يسند لنفسه كثيرًا من الأمور التى لا يجب أن تسند إليه ، ولهذا قام الإمبراطور بعزله كما عزل القادة الآخرين الذين لم يراعوا مشكلات الإمبراطورية .

كانت هناك عدة مشكلات فى هذه المنطقة وهى البيروقراطية التى كان يمارسها قادة هذه البلاد ، أما جيش الاحتلال فكان شغله الشاغل هو نهب مملكة الكولخيد وتجريد الشعب من أمواله ؛ حيث كان يقوم باتباع كل وسائل السلب والنهب .

وفى هذه الفترة أخذ موظفو الدولة البيزنطية أصحاب الرتب العالية موقفًا معاديًا للملك (جوباز) بسبب تصرفاته معهم ؛ فكانوا يخططون ويتآمرون من أجل القضاء عليه أو عزله ، والملك جوباز أيضًا لم يسكت بدوره ؛ فكان يقوم بإبلاغ

الإمبراطور (جيستنيان) بكل الأعمال التى كان يقوم بها الموظفون فى مملكة الكولخيد .

ولهذا وجدنا هؤلاء الزعماء يقررون قتل هذا الملك فى عام ٥٥٢م ، ووفقًا لما كتبه المؤرخ (أجاييف) :فإن الإيرانيين قد دعموا من أوضاعهم فى شرق مملكة الأيريسى ؛ حيث استولوا على قلعتى (موخاريس) و(أوخيمريون) ، وفى عام ٥٥٣م ، حدثت مصادمات شديدة فى قلعة (تلافيس) ؛ حيث انتصر الإيرانيون فى هذه الحرب وتشتت الجيش البيزنطى . وبعد فترة ، استولى الفرس على قلعة (أونو جوريس) ولكن بطريقة وحشية ؛ حيث أحزنت هذه الهزائم المتلاحقة الملك (جوباز) كثيراً ، لأنها عرضت مستقبل أمته للخطر ، وقد أرجع (جوباز) مسئولية تلك الهزائم إلى القادة (بس) و(مارتينز) و(روستيك) .

إن الإمبراطور (جستنيان) الذى نظر إلى هذه الأحداث الطارئة إلى جانب الأحداث السابقة ، قام بإقالة القائد (بس) من قيادة الجيش ، ثم أرسله إلى أبازجيا محدداً إقامته.

وفى الحقيقة كانت هناك مشاحنات وعداءات قديمة بين "بس" و"جوباز" وكذلك بين القائدين (روستيك) و(مارتينز) من ناحية أخرى ؛ حيث كان كلٌ منهم يحاول إخفاء هذه المشاحنات أو عدم إظهارها ، إلا أن قلعة (تلافيس) فتحت أعين الإمبراطور (جستنيان) على جميع ادعاءات (جوباز) ، كما أظهرت المسئول عن هذه الهزائم ، وما سببته هذه الهزائم من أعمال غير إنسانية لشعب هذه المنطقة ، وعلى هذا قرر (مارتينز) و(روستيك) وآخرون من أصحاب النفوذ التخلص من (جوباز) ؛ حيث اتفقوا على إعداد (يوان) شقيق (روستيك) للذهاب إلى القسطنطينية ، وقد ذهب (يوان) من نفسه إلى الإمبراطور ، وأقنعه بقدرته على الذهاب إلى إيران ، وكان الملك (جوباز) فى حالة ارتباك من جراء هذه المشكلات .

وقد أصدر الملك (جستنيان) على الفور أمراً بإحضار (جوباز) إلى القسطنطينية ، وأوضح له عدم وجود أية نية لإعدامه . فإصدار الإمبراطور (جستنيان) أمراً كهذا يعد أمراً مثيراً للدهشة والحيرة .

ووفقًا لما كتبه المؤرخ (أجاييف) ؛ فإن الإمبراطور (جستنيان) اعتقد فى البداية أن (جوباز) كان مؤيدًا لإيران ، ولذلك استصدر أمرًا بإعدامه ، وقد ذهب "جوباز" إلى القسطنطينية ، و لم يلق الترحاب اللائق به لأن (جستنيان) كان قد عزم على قتله .

كان (جوباز) قائدًا قويًا محبوبًا من قبل شعبه ، لأنه استطاع بدهائه أن يوقف انتشار الفكر البيزنطى فى أراضى الكولخيد ، إلا أن أعداءه كانوا له بالمرصاد ؛ فقد أعدوا الخطة لإعدامه ، ثم أعطوها للإمبراطور (جستنيان) ، وقد وصف لنا المؤرخ (أجاييف) بعض هذه الوقائع بقوله : " تألم القادة السياسيون البيزنطيون القائمون على الأيريسى أمثال (بوذه) و (جوستين) ، عندما علموا بقتل (جوباز) وعلى الرغم من أنهم اعتبروها كارثة ، فإنهم لم يظهروا أى رد فعل لهذه المأساة لأنهم كانوا موقنين أن هذا الصنيع من فعل الإمبراطور (جستنيان) " .

وكما سنرى فى الصفحات القادمة ؛ فإن (آيت) وأعوانه قاموا باتهام (جستنيان) بقتل (جوباز) فى اجتماع كبير لشعب الأيريسى ، ولكن التجار الذين رأوا هذه الحادثة لم يتحدثوا مطلقًا عنها.

لقد أشاع أعداء (جوباز) من أجل إيقاعه أن الحرب ستكون فى جانبهم ، وأنه من السهل استرجاع قلعة (أونو جريس) من إيران ، إلا أن (جوباز) رفض كل ادعاءاتهم ، وقام بالقبض على الذين تسببوا فى ضياع هذه القلعة فى أيدى الإيرانيين ، ولهذا عقدوا النية لقتله ؛ حيث ذهبوا به إلى شاطىء نهر "خوبى" ، ثم قتلوه هناك عام ٥٥٣ م .

تسبب مقتل (جوباز) فى نفور أهالى الأيريسى الشديد من البيزنطيين وكراهيتهم لهم ؛ فلقد قام جنود الأيريسى بالثورة ، وأعلنوا الحرب ضد البيزنطيين ، كما بدأت شعوب الأبسيليان والميسميان والأيريسى فى السعى من أجل الاستقلال عن البيزنطيين .

نظم الأيريسى اجتماعًا سريًا على أعلى مستوى ؛ وفى هذا الاجتماع ، تم بحث الموقف الصعب الذى كانت تمر به البلاد ، وكذلك ما يمكن أن يحدث فى المستقبل ، وقد

اتفق المنظمون لهذا الاجتماع على أن البلاد غير مستعدة الآن لدخول حرب الاستقلال ، كما ناقشوا فكرة هذا الاستقلال .

ووفقًا لكتابات المؤرخ (أجافى) : " فإن هذه المناقشات قد استغرقت وقتًا طويلاً ؛ حيث عرض كثير من الأيريسى آراءهم حول هذا الموضوع ، وكان من الطبيعى أن يكون للأغنياء والنبلاء الكلمة العليا فى هذا الاجتماع ، وقد وجدناهم منقسمين إلى قسمين : قسم يتبع الفرس ، وقسم يتبع البيزنطيين ، وقام (أيت) الذى كان مواليًا لإيران ؛ فتحدث وأبان عن أفكاره حول المصادمات والحروب الإيرانية البيزنطية ، التى دارت على أراضى الكولخيد عقودًا طويلة ؛ فأظهر بجلاء مميزات ومساوئ كلا البلدين إيران وبيزنطة ، ثم أشار إلى السياسة السلبية التى وضعها البيزنطيون لحكم مملكة الكولخيد ، وفى النهاية أوضح أن مقتل جوباز هو من صنيع الإمبراطور (جستنيان) ليس غيره ، ولهذا يجب الانفصال عن البيزنطيين والانضمام إلى جانب الإيرانيين ، وقد أعجب الحاضرون بكلام (أيت) هذا ووافقوا على كل ما قاله" .

بعد ذلك جاء (فاراتزى) وجلس على الكرسى ، وكان هو المتحدث عن المجموعة الموالية للبيزنطيين ؛ حيث قال : "لقد كان (جوباز) أقوى رجل فى هذه الدولة ؛ فكل شخص يعرف كم كان مستبدًا ، ثم بدأ (فاراتزى) فى نقد (أيت) وأنه لا يتفق مع ما قاله عن (جوباز) ، وأن ما قاله عنه يبتعد كثيرًا عن الحقيقة ، ثم تحدث عن وضع الأيريسى والأبسيليان من الناحية السياسية ، ثم ندد بمقتل (جوباز) ، وأكد بأنها جريمة بشعة لا تدانيها جريمة أخرى ، ولا يمكن لأحد أن يقبلها ؛ فهم بهذا لم يحافظوا على أحاسيس الشعب ومشاعره ، ثم تناول بعد ذلك أمور الشعب ومستقبل الدولة بصورة أوسع ورؤية أشمل" .

وقد وجدنا (فاراتزى) فى هذا الاجتماع ينفى مسئولية (جستنيان) عن مقتل الملك (جوباز) ، وأردف قائلاً : إن (روستيك) و (مارتنيز) هما المسئولان عن هذا ، وهما المستفيدان الوحيدان من هذه الحادثة ، ومن أجل هذا يجب أن يتم محاسبتهما ومعاقبتهما .

هناك شىء آخر لاحظه (فاراتزى) ، وأكد عليه وهو أن الأيريسى والأبسيليان وشعوب الكولخيد الأخرى ، إذا انحازت إلى إيران وأصبحت موالية لها ؛ فستحل بها مصائب كثيرة ، وقد أكد (فاراتزى) على وجوب اتحاد الكولخيد مع البيزنطيين لوجود خصائص مشتركة تجمعهم ؛ فكلاهما يدينان بالديانة المسيحية ، كما تجمعهم خصائص ثقافية مشتركة لها قدسيتها واحترامها ، أما الفرس فيختلفون عنهم ثقافيًا وعقائديًا ، إلى جانب أن الجيش الإيرانى كان قابعًا فى (آيبريا) ، ولهذا فلا يمكن له حماية الكولخيد من البيزنطيين ، كذلك هناك شىء آخر وهو أن إيران وطن بعيد عن الكولخيد .

لقد أخذ (فاراتزى) يجول بكلماته هنا وهناك ، وفى النهاية أخبر الإمبراطور (جستنيان) بما دار فى هذه الاجتماعات ، ثم طلب منه معاقبة الجناة الحقيقيين ، ثم أنهى حديثه بوجوب التعاون مع البيزنطيين وليس مع الإيرانيين ؛ فالظروف السياسية الراهنة ، والتى وصفها (فاراتزى) بحلوها ومرها جعلت الحاضرين يفكرون فى كلماته تفكيرًا عميقًا .

كان هناك شىء واحد يجب عمله فى هذا الموقف هو اختيار الأفضل ، وفى النهاية قرروا البقاء إلى جانب البيزنطيين ، وعلى الفور أرسلت لجنة من الأيريسى إلى إستانبول دون أن يضيعوا وقتًا ؛ حيث قال السفراء للإمبراطور "جستنيان" إنهم لن يفكروا فى الاستغناء عن بيزنطة ، غير أن هذه اللجنة لم تتناول مقتل الملك (جوباز) ، ولم يدرجوه فى جدول أعمالهم ، وصمموا على عدم مناقشة هذا الموضوع .

ومن أجل تحسين العلاقات بين الأيريسى والبيزنطيين ، أوضح القرار أنهم سيقفون جنبًا إلى جنب مع البيزنطيين فى حروبهم ، كما طلبوا من الإمبراطور (جستنيان) ، أن يحضر (تساتة) شقيق الملك (جوباز) إلى المملكة .

وحقيقة الأمر فإن الحكومة البيزنطية لم تكن راضية بالمشكلات التى كانت تحدث فى الكولخيد مرة ثانية ، ولهذا قبلت طلب السفراء بتولية (تساتة) الحكم فى الأيريسى .

عاش (تساته) فى القسطنطينية وارتبط بالثقافة البيزنطية ، وكان واحداً ممن وثق فيهم إقطاعيو الأيريسى ، وقامت الحكومة البيزنطية بمراسم توديع (تساته) ، ثم عين فى القيادة كلٌ من (مايستر أفوناسى) والسياسى (سوتريخ) ، وابتهج الكولخيد بوصول (تساته) إلى الوطن واحتاج الحاكم الجديد إلى قادة وإداريين جدد ، وقام (أفوناسى) بمعاقبة المذنبين فى قضية مقتل الملك (جوباز) وإنهاء أمر هذه القضية ، أما السياسى (سوتريخ) ؛ فقد كانت مهمته توزيع الضرائب التى كانت تدفعها شعوب جبال القوقاز.

بدأ (أفانوسى) فى التحقيق فور أن وصل إلى الكولخيد ، وألقى بالمجرمين (روستيك) و (يوان) فى سجن (أبصار) ، أما (مارتينز) ، فقد ظل على رأس الموظفين فى الكولخيد لأنه استطاع مواصلة الحرب بضراوة مع الإيرانيين ، كما كانت سلطته ونفوذه فى الجيش كبيرين إلى حد بعيد ، ولهذا فالفرصة لم تسنح بعد لتأديبه أو معاقبته .

وعندما وطأ جيش الفرس أرض (ناخوراجان) ، وأعلن الميسيميان استقلالهم سنحت الفرصة لمعاقبة (يوان) و (روستيك) ؛ فحلت المشكلات وهدأ الشعب وعوقب الجواسيس والمتلصصون على يد القضاة الذين أتوا من القسطنطينية لمحاكمتهم ؛ فحكم عليهم بالإعدام .

وهكذا انتهت الأزمة الناتجة عن مقتل (جوباز) فيما بين الدولة البيزنطية ومملكة الأيريسى ، وكانت نهاية هذا الموقف فى صالح جميع الدول مثل : السفانيتا والميسيميان والأبسيليا والأيريسى ، أما أبازجيا فقد كانت تابعة للحكومة البيزنطية ولكن فى شكل حكم ذاتى ؛ فكان مع كل يوم يمر تتعرض هذه الدولة لظروف داخلية صعبة .

إن الفائدة الوحيدة التى عادت على مملكة الكولخيد من جراء تبعيتهم للسلطة البيزنطية ، ربما كانت عدم تقسيم شعوبهم الأبخازية الأصل ، أما الضرر الذى لحق بهذه المملكة ؛ فهو تقسيمهم إلى قسمين أحدهما تابع للسيادة الإيرانية والآخر للسيادة البيزنطية ؛ فكان فى كثير من الأحيان يحارب الفصيلان بعضهما بعضاً .

وعندما انتهت المشكلات فيما بين الدولة البيزنطية ومملكة الأيريسى فى الشكل الذى بيَّناه سلفًا ، أعطى البيزنطيون بعض الحرية السياسية لدولة الكولخيد ومن ضمنهم الأبسيليا أيضًا . ونحن على قناعة تامة بما ذكره المؤرخ "أجافى" الذى قال : "عندما تولى (تساته) عرش الأيريسى بدأ يعمل بكل ما أوتى من قوة أعمالاً نافعة لبلاده ؛ حيث ظل مخلصًا لشعبه ولعاداته وأعرافه ، وسار بوطنه إلى الطريق الصحيح" .

كان البيزنطيون يدفعون تعويضات باهظة من أجل تقوية أوضاعهم ، التى بدأت تفسد فى الأيريسى ، وكان الإقطاعيون هم المستفيدون من هذه التعويضات .

وإذا نظرنا إلى الأحداث التى فرضتها الظروف التى جعلت من الملك (تساته) ملكًا فى هذه الفترة ؛ فإننا نخرج بنتيجة وهى أن هذا الملك كان أضعف من الملك (جوباز) ؛ ويرجع هذا إلى سببين اثنين : أولهما أنه كان أكثر ارتباطًا بالدولة البيزنطية ، وثانيهما زيادة ظلم الإقطاعيين واستبدادهم ، على العكس من عهد سابقه الملك (جوباز) الذى حاولوا إضعاف سلطاته .

وفى الفترة التى تولى فيها (تساته) الحكم ، كانت المناطق الشرقية للأيريسى فى أيدى الإيرانيين ، كما كانت الأعلام الإيرانية ترفرف على قلاع (أونوجريس) و (قوتش) و(موخاريس). وقد قام التجار بمجرد أن قتل الملك (جوباز) بمحاصرة قلعة (أنوجريس) ، وكان هدفهم تحويل الأنظار عن هذا الحادث الأليم ، وكذلك الاستيلاء على هذه القلعة من أجل رفع أسهمهم كى ينقذوا أنفسهم من المحاكمة . ولكن الاستيلاء على هذه القلعة ليس بالأمر اليسير ؛ حيث كانت توجد فى هذه القلعة حامية إيرانية قوية ، لكن الجيش البيزنطى بسبب وجود البربر ومساندتهم له استطاع فى عام ٥٥٤م أن يهزم الجيش الإيرانى ، الذى كان قوامه ثلاثة آلاف شخصٍ وكان يحتل الطريق المؤدى إلى قلعة (أونوجريس) .

ولكن فى المرة التالية فإن الحامية العسكرية الإيرانية التى كانت تحمى هذه القلعة استطاعت أن تهزمهم وتطردهم شر طردة ؛ حيث ألحقت خسائر كبيرة بجيوش الأيريسى والبيزنطيين ، وقد استطاعت إيران بعد هذا الانتصار أن تتدخل فى الشئون الداخلية للأيريسى .

وما نريد قوله هو أنه على الرغم من انتصار إيران فى الحرب التى حدثت فى عام ٥٥٤م ، فإن أحوالها وأوضاعها لم تتغير عن ذى قبل ، وقد أرادت أن تغير من موقفها وتحوله لصالحها فى أوائل عام ٥٥٥ م ؛ فأمرت جيشها الضخم بالتوجه إلى الأيريسى تحت قيادة (ناخوراجان) الذى قاد جيشًا قوامه ستون ألف جندى. كانت الوحدات الإيرانية العسكرية التى تسيطر على القلاع الأيريسية كثيرة ، والمسافات بينها قليلة وكان شاه إيران يسعى من وراء ذلك إلى تشتيت الجيش البيزنطى عن طريق الحاميات الموجودة فى الأيريسى ، وكذلك بواسطة الجيش الجديد ، ساعيًا إلى كسب تأييد شعوب الأبخاز والكرتفال الذين يعيشون فى الكولخيد وضمهم إلى جانبه ، مما سهل عليه الاستيلاء على السواحل الشرقية للبحر الأسود ؛ فالجيش الإيرانى بقيادة (ناخوراجان) بمجرد أن وصل إلى مملكة الأيريسى توجه إلى (ناسوس) ، وهناك انتظرهم جيش التحالف المكون من البيزنطيين والخون والصابير والأيريسى والآبازجيا حيث كان على رأس هذا الجيش القائدان (مارتينز) و (جونستين) .

كان (ناخوراجان) يهدف فى المقام الأول إلى القضاء على المرتزقة من الخون والصابير ؛ حيث استولى بجيشه المجهز بالأسلحة الثقيلة على وادى (موخاريس) ، وكان كل همه الدفاع عن مملكة الأيريسى الغربية .

أرسل (ناخوراجان) أقوى محاربيه إلى الجنود الخون ، وكانت مهمة هؤلاء المحاربين المجهزين بأحدث الأسلحة هى مفاجأة هؤلاء الجنود على حين غفلة ، إلا أن أهالى هذه المنطقة بسبب أنهم أخبروا الخون بهذا الموقف لم يستطع الإيرانيون الوصول إلى أهدافهم التى كانوا ينشدونها ؛ حيث انهزم الجيش الإيرانى على يد الخون الذين حاصروهم من كل جانب متخذين من الغابات ، التى كانت تحيط بالمنطقة مسرحًا حربيًا لم يكن للإيرانيين دراية بها من قبل ، وقتل من الإيرانيين جنود كثيرون ولاذ من بقى منهم بالفرار ، وقد قام الخون بتعقبهم بمساعدة البيزنطيين والأيريسى .

وعندما علم (ناخورجان) بما حدث فى هذه المعركة الفاشلة ، أقام معسكرًا بالقرب من (ناسوس) وهناك نشر أسلحته وقواته ، وكان يقصد بذلك إرهاب

البيزنطيين ، وبعد ذلك أرسل سفراءه إلى القائد البيزنطى (مارتينز) ، واقترح عليه أن ينسحب الجيش البيزنطى من الكولخيد ويرحل فوراً ويتركها إلى الإيرانيين ، وكان من الطبيعى أن يرفض (مارتينز) هذا الاقتراح ؛ فما كان من (ناخوراجان) الذى لم يتوصل إلى نتيجة معه ، إلا أن أخذ جيشه وتوجه به إلى مدينة (فازيس) ، غير أن جيوش البيزنطيين والأيريسى واللاذ نجحوا فى الدخول قبل الإيرانيين هذه المدن وقطعوا الطريق عليهم .

قام البيزنطيون أولاً بتقوية دفاعاتهم فى هذه القلعة ، بإنشاء القواعد العسكرية القريبة للدفاع عنها .

وقبل أن يمر وقت طويل قام القائد (ناخورجان) بمحاصرة مدينة (فازيس) بجيش كبير قوامه آلاف من المشاة ونحو ألفين من الفرسان الشجعان المزودين بأحدث الأسلحة الموجودة فى هذه الفترة ، وعلى الرغم من كل هذا لم يستطع "ناخوراجان" اقتحام هذه القلعة ، وقد استمرت هذه الحرب فترة طويلة ، قام الجيش الإيرانى خلالها بالاستيلاء على ثروات هذه المنطقة والقضاء على الغابات والحقول .

أصاب الضعف قوات التحالف وكذلك الجيش البيزنطى الذين كانوا يدافعون عن مدينة (فازيس) ، وطلبوا المساعدات العاجلة ، ولكن لم يجدوا صدى لكلامهم فى الإمبراطورية البيزنطية ، وذهبت آمال القائد (مارتينز) أدراج الرياح . إلا أنه ذات يوم جاء رجل إلى هذه القلعة ومعه خطاب من (جستنيان) يثير فيه حماستهم ، ووعدهم بالمساعدات العاجلة التى ستصل إليهم فى أقرب وقت .

بعث هذا الخبر الأمل فى نفوس البيزنطيين ، وعادوا إلى الدفاع عن القلعة من جديد ، بعدما ارتفعت معنوياتهم ، وعندما بلغ الجيش الإيرانى خبر المساعدة الوهمية للبيزنطيين ، صدَّقها وانقسم على نفسه إلى قسمين ؛ فأرسلوا نصف جيشهم لمواجهة هذه المساعدات القادمة من الإمبراطورية ، وقد اغتنم البيزنطيون هذه الفرصة ، وباغتوا الجيش الإيرانى معتمدين على المساعدة المزيفة فهزموه شر هزيمة ، مما اضطره إلى سحب الجزء الأكبر من جيشه إلى الأيريسى الشرقية ، كما انسحب القائد (ناخوراجان)

إلى "آيبريا" ، وعندما علم شاه إيران "خسرو" بهذه الهزيمة استدعاه إلى إيران ؛ حيث أعدمه فى الحال .

وفى عام ٥٥٥ م ، كان لانتصارات البيزنطيين فى "موخاريس "و" فازيس" الأثر الكبير فى بعث الأمل لديهم بالتفوق فى الحروب الإيرانية البيزنطية ، التى دامت أزمنة طويلة .

كنا قد أوضحنا فى الصفحات السابقة ، أن هناك دلائل تشير إلى أن للقائد (مارتينز) يدًا فى مقتل الملك (جوباز) ، ولكن بسبب الحروب المستمرة ؛ فقد أصبح عزله أو إقالته أمرًا بالغ الصعوبة ، إلى جانب أن هذا القائد كان يتمتع بشخصية محبوبة من قبل جنوده ، ولهذا أرجأ الإمبراطور إقالته إلى ما بعد الحرب .

وهناك حقيقة لا يجب إخفاؤها وهو أنه فى ظل (مارتينز) ظفر البيزنطيون فى حروب كثيرة ، وأهم هذه الانتصارات هو طرد الإيرانيين من الأيريسى . فكل هذه الأحداث جعلت الإمبراطور (جستنيان) يصرف النظر عن قتله ، ولكن عندما انتهت الحروب انتزع منه سلطاته التى كان يتمتع بها فى أرمينيا واللاذيقا ، وقام بتعيين (جستين) الذى كان أحد أقاربه ؛ ففى ظل قيادة (جستين) هذا تمتع البيزنطيون والأيريسى والأبخاز بحرية كبيرة على أراضى مملكة الكولخيد ، التى كانت تحت السيطرة الإيرانية إلى جانب أنه فى ظل هذا الرجل ، تم استرداد مدينة (رودوبوليس) التى كانت تحت سيطرة الفرس لسنوات عديدة .

(و) تمرد الميسيميان :

بينما كانت رحى الحرب تدور بين البيزنطيين والإيرانيين فى الفترة ما بين عامى (٥٥٤م – ٥٥٥م) على حدود مملكة الأيريسى وقعت أحداث مهمة ، وهى ثورة الميسيميان على الدولة البيزنطية وإعلان استقلالهم .

كانت دولة الميسيميان دولة صغيرة ، عدد سكانها قليل جداً وقد دارت الشكوك حول جذورهم وأصولهم ، ولكن طبقًا لما جاء عنهم فى المصادر القديمة ، وكذلك فى ضوء بحوث علم السلالات نستطيع أن نقول إنهم من الناحية القومية شعب جبلى ضمن شعوب الأبخاز .

يحدُّ هذه الدولة الصغيرة من ناحية الشمال (تزابال) الواقعة فى أعالى جبال (قودرى) ، وكانت تعيش هذه الدولة فى قرى (دال - وآجارا - وجنجويش - وصاقن) وغيرها .

ووفقًا لما ذكره المؤرخ البيزنطى (أجافى) ، فإن دولتى الميسيميان والأبسيليا تربطهما صلتان مهمتان هما صلة القرابة وصلة الجوار .

وكان للميسيميان فى القرن السادس حكامها الخاصة بها مثلها فى ذلك مثل شعوب الكولخيد الأخرى ، كما كان لها نظامها الاجتماعى الذى كان يعتمد على الأغنياء الذين كانوا قوة اقتصادية لا يستهان بها ، كما كان لها قلاعها الحصينة للدفاع عنها.

كان النظام الاقتصادى للميسيميان فى بدايات العصور الوسطى لا يعد شيئًا بالمقارنة مع شعوب الكولخيد الأخرى ؛ فالأزمات الناتجة عن تباين الطبقات الاجتماعية لم تكن قد ظهرت بجلاء حتى ذلك الوقت ، وكان النظام العسكرى والديموقراطى ، وكذلك النظام القروى المبنى على سلطة الأب هو النظام السائد عندهم أكثر من النظام الإقطاعى .

كانت دولة الميسيميان فى هذه الفترة ضمن دول اتحاد الأيريسى الواقعة تحت سيادة الدولة البيزنطية ، ولهذا تأثرت هذه الدولة بالحروب البيزنطية الإيرانية التى دارت رحاها على أراضى الأيريسى .

سيطر البيزنطيون على دولة الميسيميان بفضل حكام الأيريسى ، كما كانت تقع أحيانًا تحت طائلة الاحتلال الإيرانى ؛ أى أنه إذا حدث أى حدث فى مملكة الكولخيد ، كان يُسمع صداه فى دولة الميسيميان .

كـان شعب الميسيميان بالمقارنة بشعوب الكولخيد الأخرى مشتاقًا للاستقلال ؛ فـهم لا يريدون رؤية البـيزنطيـين ولا الإيرانيين فى بلادهم ، فعندما اقتنعوا بقواتهم ووجدوها مستعدة للقتال بدأوا قتال تلك القوتين ، وهكذا تطورت الأحداث التى كانت سببًا فى إعلان الميسيميان استقلالهم عن بيزنطة .

علمنا فى الصفحات السابقة أنه عندما جاء حاكم الأيريسى الجديد (تساته الثانى) من إستانبول ، جاء ومعه أيضًا (سوتريخ) المستبد ، الذى ذهب بعد فترة قصيرة إلى دولة الميسيميان هو واثنان من أبنائه وحاشيته ؛ فإلى جانب الصداقة التى كانت تربطه بـ (تساته) إلا أنه كانت له مهمة أخرى ، وهى تقسيم الغنائم على شعوب شمال القوقاز التى كانت تحارب إلى جانب البيزنطيين ؛ فقد كانت هذه الأموال توزع مرة واحدة فى العام على الشعوب الموالية للإمبراطورية البيزنطية.

أقام (سوتريخ) ومن معه عندما وصلوا إلى دولة الميسيميان معسكرًا بالقرب من قلعة (بوخلون) ، وفى تلك الفترة كثرت الإشاعات بأن (سوتريخ) ، سيأخذ هذه القلعة من الميسيميان ويعطيها إلى شعب (الآلان) ، وذلك من أجل إنقاذ الذين جاءوا لتوزيع الغنائم من مشقة تخطى الجبال الوعرة .

وفى ظل هذا استطاعت شعوب شمال القوقاز أن تحصل على حقوقها وأموالها من قلعة (بوخلون) .

لم يطمئن الميسيميان إلى هذه الإشاعة ولذلك أرسلوا إلى سوتريخ رجُلين من زعمائها أحدهما يدعى (خاده) والآخر (فيان) ؛ وتحدث هذان السفيران مع سوتريخ ؛ حيث انتهى هذا الحديث بضرورة إقامة هذا المعسكر بعيدًا عن القلعة .

لم يقبل (سوتريخ) هذا التصرف وقال ، كيف وجد الميسيميان فى أنفسهم الجرأة بعرض هذا الأمر فهم ضمن اتحاد الأيريسى وهم تابعون لنا ؟! وقام بجلد حراس السفيرين بلا رحمة .

أغضب هذا التصرف الميسيميان وقاموا على الفور بالهجوم على معسكر (سوتريخ) فى تلك الليلة ، وقتلوا (سوتريخ) وأبناءه وكل مَنْ كان فى المعسكر ؛ فبعد هذا الحادث أعلن الميسيميان استقلالهم عن الدولة البيزنطية ، ثم أرسلوا سفيرًا لهم بعدما قاموا بتوقيع معاهدة صداقة وتعاون مع إيران ، وقد تصادف تاريخ توقيع هذه المعاهدة مع التاريخ الذى سار فيه (ناخوراجان) بجيش قوامه ستون ألف شخص نحو الأيريسى ؛ حيث كان يطلب العون والمساعدة من الكولخيد . فهم لهذا قابلوا عرض الميسيميان هذا بفرح شديد.

هناك نقطة أخرى لا يجب إغفالها ، وهى أن هذا التصرف من قبل الميسيميان ، قد أغضب كثيرًا الزعماء البيزنطيين. ولكن لأنها كانت مشغولة فى هذه الأثناء بمحاربة الإيرانيين ؛ فقد أرجأت سلوك هذه الدولة الصغيرة إلى وقت آخر .

ومثلما أشرنا فى الصفحات السابقة ؛ فقد ألحق بالفرس هزيمة ساحقة عام ٥٥٥م على أراضى الأيريسى. فكان أول عمل فكر البيزنطيون القيام به هو تأديب دولة الميسيميان ؛ حيث أرسلت إليهم جيشًا قوامه أربعة آلاف جندى من خيرة جنود الدولة البيزنطية ، ولأن الجيش الإيرانى لم يكن قد غادر الأيريسى تمامًا نجد هذا الجيش البيزنطى لم يذهب على الفور إلى دولة الميسيميان ، ولكن انتظر فترة فى قلاع الأبسيليا .

ومرت مدة طويلة لم يجد الجيش الإيرانى أو البيزنطى الشجاعة لمواجهة أحدهما الآخر ، ومن خلال كتابات المؤرخ (أجافى) نستطيع أن نضع أيدينا على معاناة البيزنطيين من التحالف الذى عقده الميسيميان مع الإيرانيين ؛ فهذه الدولة على الرغم من صغرها وقلة عددها ، فإن بها قلاعًا كثيرة ، إلى جانب مهارتهم فى القتال ، ولهذا قام البيزنطيون بتأجيل الحرب لأنهم لم يجدوا فى أنفسهم الاستعداد للقتال .

وفى خريف عام ٥٥٥م ، سحبت إيران قوات الاحتياط من الميسيميان ومضوا أولاً إلى (قوتش) ثم بعد ذلك إلى (آيبريا) ؛ فكأن هذه الانسحابات شكلية وليست حقيقية ، ولا يمكن التخمين بانسحاب الإيرانيين فى تلك الفترة .

ووفقًا لكتابات (أجافى) كان الإيرانيون لا يحبون قضاء الشتاء بعيداً عن أوطانهم ، لاسيما وأنهم لا يستطيعون الحرب فى الشتاء ، فهذا بالنسبة لهم يمثل عادة لا يمكن التخلى عنها ؛ فانسحاب الجيش الإيرانى وذهابه إلى بلاده ليس له سبب إلا هذا ؛ فالإيرانيون يعلمون جيداً أنهم لن يستطيعوا محاربة البيزنطيين فى هذه الأوقات ، والبيزنطيون كذلك ؛ فليست لديهم الرغبة فى قتال الإيرانيين ؛ فإذا كان الأمر غير ذلك لما مكث البيزنطيون فى أبسيليا منذ الربيع ، ولما انتظروا كل هذه المدة دون أن يهاجموا الإيرانيين ، فما الفائدة التى سيحققها البيزنطيون إذا تركوا الأوقات المناسبة للقتال فى الصيف والربيع وحاربوا فى الشتاء ؟

على أية حال فقد فكَّر الفرس أنهم إذا تركوا هذه الدولة فلن يستطيعوا الحصول على هذه المواقع مرة أخرى ؛ فمهما حدث فلن يخرجوا من هذه البلد ، والنتيجة المنطقية التى يمكن أن نخرج بها من تشابك هذه الأحداث هى احتمال حدوث بعض المشكلات بين الميسيميان و الإيرانيين .

كان يجب على الإيرانيين أن يجعلوا الحياة أكثر صعوبة على الشعب الميسيميانى ، وهناك احتمال آخر وهو أن الجيش الإيرانى الذى كان يعسكر فى الميسيميان انتظر نتيجة الحروب الأخرى الدائرة فى الكولخيد ، ولما لم يصل إلى النتيجة التى كان يريدها من تلك الحروب ، وأيقن أن أعماله لن تكلل بالنجاح ومصيرها الفشل ، قرر على الفور الرحيل من هذه البلاد .

ونتيجة لهذا الحادث انتهى الأمل الكبير الذى ربط شعب الميسيميان بالإيرانيين وكذلك انتهى الاتفاق من تلقاء نفسه ، والآن أصبح على هذه الدولة الصغيرة مواجهة عدوها بنفسها ، وأن تكون وجهًا لوجه أمام الجيش البيزنطى بمفردها ؛ فإما أن يكونوا أحراراً وإما أن يعطوا أرواحهم فداءً لبلادهم ؛ فعلى الرغم من الظروف الجغرافية السيئة لهذه الدولة الصغيرة ؛ فإنهم انشقوا وتمردوا على البيزنطيين وأعلنوا استقلالهم .

وصل الجيش البيزنطى إلى حدود الميسيميان فور أن رحل الإيرانيون عن الميسيميان ، إلا أن هذا الجيش قد اضطر إلى الفرار منهم ولم يتحمل قتالهم ؛ فقام بالبحث عن حل سلمى لهذه المشكلة عن طريق المفاوضات .

وقد كتب «أجافى» قائلاً :

" ظن البيزنطيون أن الميسيميان قد فضلوا الحلول السلمية ، وربما أنهم تخلوا عن قرارهم ، وعدلوا عنه أو استسلموا لهم ، وسيقومون برد الأموال التى حصلوا عليها عندما قُتل القائد (سوتريخ) ، ولهذا أرسلوا إلى الميسيميان هيئة من كبار أعيان الأبسيليا ، إلا أن هؤلاء السفراء لم يستطيعوا الوصول إلى نتيجة معهم ، وقام الميسيميان بقتلهم بدلاً من الاستماع إليهم " .

ونستطيع أن نستشف من هذه التصرفات ، أن الميسيميان بسبب صعوبة الحياة والفقر الذى عاشوه تحت الاحتلال البيزنطى ؛ فإنهم قد نفروا من هذا الاحتلال لدرجة أنهم قتلوا هؤلاء السفراء الذين هم من أقاربهم ، وقد صمموا على الاستقلال أو الموت دونه . وعلى الرغم من أن الميسيميان كانوا يعلمون أن سفراء الأبسيليا غير مذنبين ، فقد صمموا على قتلهم ، طالما أنهم جاءوا من طرف البيزنطيين .

والذى يدعو إلى العجب هو تصرف الميسيميان هذا مع الأبسيليان ، فقد عاش هذان الشعبان اللذان ينحدران من أصل واحد جنبًا إلى جنب إخوة وأصدقاء طوال السنوات الماضية ، ولم يحدث بينهما مثل هذا الشقاق من قبل . ولكن الآن ونظراً للظروف السياسية فقد أصبحا عدوين حتى إن الجيش البيزنطى كان يقوم بتجهيز عتاده وسلاحه فى دولة الأبسيليان ، من أجل الهجوم على أشقائهم الميسيميان ؛ ولهذا لم ينظر الميسيميان إلى الأبسيليان نظرة الأخ لأخيه كما كان من قبل ؛ فعملية قتل السفراء الأبسيليان التى ذكرناها آنفًا كان لها دور كبير فى إشعال هذه الفتن بين هذين الشعبين.

وعندما أدرك البيزنطيون أنهم لن يتمكنوا من التحاور مع الميسيميان ، اقتحموها على الفور ؛ حيث واجهوا المصاعب والمشكلات الكثيرة ، إلا أنهم نجحوا في تخطى الجبال الوعرة ، واستولوا على بعض القلاع وقد وضع الميسيميان نصب أعينهم قلة قواتهم أمام هذا الجيش البيزنطى الجرار ، ولذلك قاموا بتدمير قلاعهم بأيديهم حتى لا يستولى عليها العدو ،لأنه لا يمكن حماية جميع هذه القلاع بالقوات المحدودة .

وفى النهاية قاموا بتوحيد قواتهم ، وجمعها فى قلعة (زخارا) تلك القلعة المعروفة بحصانتها لدى الكولخيد ولهذا تسمى بالقلعة الصلبة .

وقد روى لنا المؤرخ (أجافى) حرب الميسيميان وبيزنطة ؛ حيث أثنى كثيراً على القادة والمحاربين البيزنطيين ، الذين شاركوا فى الحرب لشجاعتهم الحربية وتخطيطهم العسكرى الجيد ، كما وصف الميسيميان بكلمات مثل : "البربر" و"المتوحشين" و"البدو" ؛ حيث غضب كثيراً لانشقاقهم عن الإمبراطورية البيزنطية وإعلانهم الحرب عليها، وفرح كثيراً لهزيمتهم ، ولكننا نقول لأنه مؤرخ رسمى ؛ فمن الممكن أن يكتب كلاماً لا يتناسب مع الواقع.

آمن الميسيميان بقضيتهم فى سبيل الحرية وجعلوها فوق كل شيء ، وقدموا أرواحهم فداءً فى سبيل نصرة قضيتهم ، وزرعوا الرعب فى قلوب المحتلين وأظهروا مقاومة منقطعة النظير ، قلبت خطط البيزنطيين رأساً على عقب .

وبدأ الجيش البيزنطى يرتبك فى مواجهة تلك المقاومة الشرسة ؛ حيث فقد الأمل فى هذه الحرب ، ولذلك وجدنا أفراد قواته قد دبت فيهم روح السخط والتذمر ، وقد وجدنا المؤرخ "آجافى" يشير إلى المشاحنات التى حدثت بين قادة الجيش بسبب هذه المقاومة الشرسة والعناد الشديد للميسيميان .

لم يستطع البيزنطيون مجرد الاقتراب من قلعة (زخارا) ، واضطروا للانسحاب وإقامة معسكر لهم بالقرب من القلعة ومن هنا بدأوا فى استئناف غاراتهم ، إلا أن النتيجة كانت أيضاً سلبية .

وفور أن سمع الإمبراطور (جستنيان) بهذا المأزق الذى وقع فيه الجيش البيزنطى ، أرسل إليهم القائد (يوان قابادوكيا) ، الذى تم تعيينه قائداً للجيش بعد مقتل القائد (روستيك) .

أراد القائد الجديد أن يحاصر قلعة (زخارا) ويستولى عليها فى الحال ، لكن كان من الصعب عليه مواجهة عناد الميسيميان خاصة وأنه كان يوجد بجوار هذه القلعة أبراج بداخلها جنود الميسيميان ؛ فحاصرها وانتظر بالخارج .

كان هناك طريق سرّى يصل القلعة بالجبال المحيطة ، وكانت تأتى من هذا الطريق الأطعمة والأشربة ، وقد خمن البيزنطيون بوجود طريق كهذا ، وحاولوا البحث عنه لكنهم لم يجدوه .

كان مقاتلو الميسيميان يستخدمون هذا الطريق السرى ، الذى يعد المنفذ الوحيد لهذه القلعة ليلاً ، وذات ليلة قام الجاسوس البيزنطى (جوليوس) بالبحث عن هذا الطريق ؛ حيث وجده عندما كان بعض رجال الميسيميان يحملون الماء إلى القلعة ؛ فتعقبهم سراً حتى اكتشف هذا الطريق .

تتبع الجيش البيزنطى هذا الطريق ، واقتحموا القلعة ، وبدأت الحرب مع الميسيميان ، الذين حاولوا معرفة كيف تسلل البيزنطيون إلى قلعتهم ! .

وكانت الليلة التى اشتعلت فيها الحرب ليلة ليلاء ، وقتل العديد من المحاربين وامتلأت الأرض بالدماء وقتل الكثير من كلا الطرفين. وكان البيزنطيون يقتلون مَنْ يأتى أمامهم دون تفريق بين سيدة أو شيخ أو طفل .

واستمرت الحرب طوال الليل وفقد البيزنطيون أعداداً كبيرة من أفرادهم ، فى النهاية استولى البيزنطيون على القلعة وقتلوا كل مَنْ كان فيها بسيوفهم ؛ حيث استراحوا بعد عناء طويل ، وأخذوا يفكرون فى كيفية القضاء على الميسيميان ، وفى هذه الأثناء خرج خمسمائة مسلحٍ ، لا ندرى من أين جاءوا من القلعة ، ومع بزوغ الفجر كانوا وجهاً لوجه مع جنود بيزنطة ، وفى اللحظة التى ظن فيها جيش الروم أن الحرب

وضعت أوزارها وجدوا أنفسهم أمام خمسمائة محارب من أقوى المحاربين ، يقتلون أى شخص وقف أمامهم ، ومَنْ بقى على قيد الحياة من البيزنطيين لاذ بالفرار بعيداً عن القلعة .

وبعد ذلك تماالك الجيش البيزنطى نفسه ، وحاصر القلعة مرة ثانية واستمر فى حصارها مدة طويلة ولم يستطيعوا دخول القلعة هذه المرة ، وكذلك وجدنا الميسيميان وقد ضعفت قواهم ، وفى النهاية أرسلوا إلى القائد (قابادوكيا) سفيرهم ، وقاموا بعقد معاهدة سلام معه .

وإذا أمعنا النظر فيما قاله المؤرخ (أجافى) : فنجد أن القائد (يوان) ابتهج لهذا الخبر كالأطفال ، ووافق فى الحال على إجراء المقابلة ؛ فقد كلفت تلك الحرب البيزنطيين النفس والنفيس واستغرقت المفاوضات بين قادة الميسيميان وقادة البيزنطيين وقتًا طويلاً ، وعقدوا المعاهدات فيما بينهم ؛ فالخاسر فى الحرب فى كل زمان ومكان هو المضطر لقبول شروط المنتصر .

وقد عادت الميسيميان مرة ثانية إلى الدولة البيزنطية ، وأعاد الميسيميان الأموال التى حصلوا عليها من (سوتريخ) ، وأخذ (يوان) بعضًا من مواطنى الميسيميان رهائن ، وبعد ذلك ترك هذا الوطن وعاد إلى بيزنطة مع الغنائم ، التى استولى عليها ومَنْ ظل حيًا من جيشه .

وهكذا انتهت حرب استقلال الميسيميان بمأساة حقيقية ؛ حيث فقدوا عدداً كبيراً من مواطنيهم ؛ فإذا هم حاولوا اللجوء إلى إيران مرة ثانية ؛ فستقوم بيزنطة بإزالتهم من الوجود نهائيًا .

لقد كان هذا الشعب القومى يعيش فى أحضان الجبال وجهًا لوجه مع الموت والفناء ، هكذا قال سفراء الميسيميان بعد ذلك عندما قابلوا البيزنطيين : " لقد مرت بنا أيام عصيبة ؛ فلقد قتل كل مَنْ كان فى القلعة ، وخسرنا ما يزيد عن خمسة آلاف مقاتلٍ من أشرس مقاتلينا ، كما قُتل أكثر من خمسة آلاف فتاةٍ أيضًا ، أما أطفالنا

فقد نجوا من موت محقق ، و كان شعبنا وجهًا لوجه مع العدم والفناء ، وهذه هى أسباب تخلينا عن السلاح " .

ونعتقد أن الميسيميان يبالغون قليلاً فى عدد قتلاهم ، كما نعتقد أن الجيش البيزنطى يبالغ أيضًا فى كون أن مَنْ قُتل منهم لا يزيد عن ثلاثين شخصًا فقط ، فالمؤرخ الرسمى البيزنطى كان دائمًا منحازًا إلى جانب وطنه .

فإذا اعتبرنا أن المفقود من الميسيميان يبلغ خمسة آلاف شخص ؛ فإن هذا يعتبر بالنسبة لهم كارثة اجتماعية كبيرة بسبب قلة عددهم ، فهم أولاً قد أجبروا الإيرانيين على الرحيل من بلادهم ، وبعد ذلك قاتلوا البيزنطيين بمفردهم التى كانت تعدُّ أقوى دولة فى ذلك العصر ؛ فعلى الرغم من خسارتهم فى الحرب ؛ فإن انسحاب البيزنطيين وخروجهم من بلادهم لهو أكبر دليل على خوف البيزنطيين من هذا الشعب الجبلى الشرس .

لقد أعطى القائد (يوان) الحرية لشعب الميسيميان بالعيش فى بلاده كما يريد ، وأعطاهم الحرية أيضًا بأن يعيشوا ويستمروا فى حياتهم كما يحلو لهم ، ومثلما عرفنا من المصادر التاريخية ؛ فإنه على الرغم من انتصار البيزنطيين فى الحرب ؛ فإنهم لم يستطيعوا أن يحققوا سيادتهم على هذا البلد .

والسبب الذى ساعد على هزيمة الميسيميان أن الشعوب التى كانت تعيش فى الكولخيد كلها كانت مستعمرات بيزنطية ؛ فلم تستطع مساعدة الميسيميان ولو بشىء قليل ؛ حيث كانت الظروف آنذاك عائقًا لإقامة وحدة بين شعوب المنطقة فى مواجهة المستعمرين ، الذين كانت من أهم سياساتهم تقسيم هذه الشعوب وتفتيت وحدتهم.

وبعد الأحداث التى مرت بين عامى (٥٥٤م – ٥٥٥م) ، والتى ذكرناها آنفًا ؛ فإن البيزنطيين قد بدأوا فى تأسيس سياسة على أسس سليمة فى مملكة الكولخيد.

وعلى الرغم من هزيمة الميسيميان وعدم استقلالهم ؛ فإنهم استطاعوا أن يطردوا الإيرانيين من أراضى الكولخيد بمساعدة شعوب المنطقة كلها ؛ فعلى الرغم من كل هذا النجاح ؛ فإن أبخازيا والأيريسى لم يستطيعا التمتع بالسيادة على أراضيهم ، ولكن الذى كان يهمنا آنذاك هو تفجر حب الحرية فى هذه الشعوب .

اتفاق إيران وبيزنطة وأهمية هذا الحدث بالنسبة للكولخيد :

فى عام ٥٥٥م ، وبعد هزيمة إيران على أراضى الكولخيد ، بدأت فى اتخاذ سياسة مغايرة ؛ حيث قررت أن تحل المشكلة بالطرائق السلمية . وفى تلك السنة وقع (خسرو) شاه إيران معاهدة سلام مع بيزنطة وكان هدفها إيقاف الحرب ؛ فلم تكن هناك كيفية أو طريقة أخرى لحل المشكلات بينهما .

مرت فترة بعد هذه المعاهدة ، وفى عام ٥٦٢م بدأت المفاوضات مرة ثانية ؛ حيث استغرقت هذه المرة وقتًا طويلاً وقد اكتسبت هذه المفاوضات ثقلاً فوق أراضى "سفانيتا" ، وفى النهاية عقدوا معاهدة فيما بينهم تمتد إلى خمسين عامًا .

تحتوى بنود هذه المعاهدة على ثلاث عشرة مادة ، تشمل السياسة المستقبلية بين إيران وبيزنطة ، كما تشمل الأحداث المتعلقة بالتجارة والاقتصاد .

كانت حروب الكولخيد سببها الأول هى دولة الأيريسى ، ولكن لا توجد أى تفصيلات ولو صغيرة تتعلق بالأيريسى فى هذه المعاهدة. ووفقًا لكتابات المؤرخ (مناندر) الذى كان موكلاً بتسجيل وقائع هذه الاتفاقيات التى يقول فيها : "لقد اتسم هذا الحدث بروح الصراحة والوضوح ؛ فقد تجاهلت تمامًا خطط إيران نحو الأيريسى" ، وهكذا فلا يمكن أن يكون هناك تفكير للإيرانيين فى الحصول على أراضى أبخازيا اللهم إلا (سفانيتا) فقط ، التى ظلت تابعة لإيران نتيجة للمفاوضات الطويلة التى دارت حولها .

وكذلك فإنه بمقتضى هذه المعاهدة يتعين على بيزنطة أن تعطى مقدارًا من الذهب إلى إيران كل عام ؛ فبعد هذه المعاهدة استمرت اللقاءات حول موقف (سفانيتا) ؛ حيث وجدنا البيزنطيين يعملون كل ما فى وسعهم للاستيلاء على هذه الدولة الصغيرة (سفانيتا) نظرًا لأهمية هذه الدولة ، التى تتمتع بموقع استراتيجى ممتاز .

وقد تركت الدولة البيزنطية قواتها القوية على أراضى الكولخيد ، عندما علمت أن إيران تريد أن تستولى على سفانيتا ، وفى هذا الصدد كتب المؤرخ (مناندر) يقول :

" فى الحقيقة إن أراضى (سفانيتا) ليس لها أهمية اقتصادية ، بقدر مالها من أهمية استراتيجية ؛ فهى بالنسبة للبيزنطيين لا تقدر بثمن ، لأنه عن طريقها تستطيع إيران الاستيلاء فى أية لحظة على أراضى الكولخيد جميعها " .

وكأن إيران قد جاءت من أجل أن تخيف أو ترهب البيزنطيين ؛ حيث استطاعت أن تقوى من موقفها فى دولة (سفانيتا) عن طريق تأسيس مواقع لها على الحدود بين (سفانيتا) والميسيميان ، ولهذه الأسباب أصبحت (سفانيتا) فى السنوات الستين والسبعين الأولى من القرن السادس واحدة من أهم المشكلات السياسية بالنسبة للدولة البيزنطية .

وفى عام ٥٦٥م ، تقدم الإمبراطور (جستنيان) الثانى باقتراح لشراء سفانيتا من إيران ، واقترح على الفرس مبلغًا كبيرًا من المال ، ولكن هذه المحاولة باءت بالفشل ، ونتيجة لهذا بدأت المفاوضات السرية بين البيزنطيين وزعماء سفانيتا ، من أجل إقناع شعب سفانيتا بالوقوف فى صف بيزنطة ، وقد توصلوا إلى نتيجة مرضية .

وحتى إذا لم يكن موضحًا فى المصادر التاريخية ؛ فإنه فى بدايات السنوات السبعين الأولى من القرن السادس الميلادى ، كانت سفانيتا تحت السيطرة الإيرانية ولكن فى الفترة ما بين عامى (٥٧٥ م - ٥٧٦م) رأينا دولة "سفانيتا" قد أصبحت ضمن الحدود البيزنطية .

وهناك حدث يدعم صدق قولنا ويقويه ، وهو عدم إدراج (سفانيتا) فى المباحثات التى قام بها البيزنطيون والإيرانيون بالقرب من مدينة (دارا) فيما بين عامى (٥٧٦م - ٥٧٧م) ، ولكن تركزت المباحثات والمفاوضات حول دولتى "أيبريا "وبر"صارمنيا" .

والنتيجة القطعية التى نخرج بها هى أن البيزنطيين ضموا دولة (سفانيتا) إلى أراضيهم قبل هذه المفاوضات ، مما يؤكد أن الدولة البيزنطية قد اشترت هذه الدولة من إيران .

ونحن إذا نظرنا إلى ما حدث نجد أن ضم (سفانيتا) إلى بيزنطة يعدُّ حدثًا بالغ الأهمية بالنسبة للكولخيد ؛ فقد ضمن هذا الحدث لبيزنطة سيطرتها على الأراضى الشرقية للبحر الأسود ، ولكن على الرغم من هذا فلم تتخل شعوب الكولخيد عن حروب الاستقلال ، وكذلك فلم تتركهم الدولة البيزنطية يديرون شئونهم بأنفسهم .

فعلى الرغم من سيطرة هذه الدولة عليهم ، فقد استطاعوا إقامة تحالف فيما بينهم ، كما أخذوا يحاربونها بضراوة بصرف النظر عن الأخطار التى ستحيق بهم.

وهناك حدث يدلل على صدق ما قلناه ، وهو أنه فى عام "٥٧٢م" تمرد الأرمن ؛ فقاموا بطرد الإيرانيين من بلادهم ، كما قاموا بحروب مكثفة من أجل الحصول على استقلالهم ، إلا أنهم بسبب ضعف قواتهم ؛ فلم يتمكنوا من تحقيق أهدافهم ؛ واحتاجوا للمساعدة وكان شعب الأبخاز أحد الشعوب التى وقفت بجانبهم فى حربهم من أجل نيل الاستقلال .

وهكذا كتب المؤرخ (فيوفان بيزنطياتى) مؤرخ القرن السادس يقول : " لقد أصبح مارقيان ابن شقيق الإمبراطور (جوستين) قائدًا للمنطقة الشرقية ؛ ولم يكن قد مرَّ على حكم الإمبراطور (جوستين) ثمانية أعوام فقط ؛ حيث أرسل "مارقيان" لمحاربة الملك (خسرو) شاه إيران ، واستعد القائد الأرمنى (يوان) والقائد الإيرانى (ميريان) كلٌّ بجيوشه من أجل الحرب ، ووقف الكولخيد والأباظجيا وحاكم الألان إلى جانب الأرمن " .

فهذا التآزر وهذه المساندة دعمت من أواصر الصداقة بين الشعوب التى تشترك فى الظروف الجغرافية نفسها . فالبيزنطيون لم يكونوا يريدون أن تقوى الحكومة الأيريسية إطلاقًا ، لأنهم بقوتهم هذه يستطيعون الوقوف فى مواجهة السياسة البيزنطية كما حدث من قبل ، بل يستطيعون إسكاتها أحيانًا.

فإلى جانب ازدياد التعاون والتآخى بين شعوب المنطقة فى الستين سنة الأولى من القرن السادس ؛ فقد كان زعماء الكولخيد يساندون حكام الأيريسى مساندة قوية.

وبنهاية القرن السادس وبدايات القرن السابع تحسنت الظروف ، وأصبحت مناسبة لتأسيس سلطة قوية فى دولة أبخازيا ، وقد كان للبيزنطيين دور فى هذا التحسن الملحوظ.

(هـ) الحروب من أجل طرد المستعمرين البيزنطيين والعرب من المنطقة :

علاقات الأبخاز واللاذ والجورجيين والبيزنطيين فى القرن السابع الميلادى .

كما ذكرنا من قبل ؛ فإن الإمبراطورية البيزنطية هى التى أحرزت انتصارات عديدة فى الحروب التى قامت على أراضى الكولخيد فى القرن السابع ، وأخرجت إيران من هذه الأراضى بفضل مساعدة الأيريسى والأبخاز .

واستمرت الحروب الإيرانية البيزنطية فى القرن السابع وعلى الرغم من أنها لم تكن فوق أراضى الكولخيد ، فقد اضطر شعب الكولخيد للقتال إلى جانب البيزنطيين .

وفى النصف الأول من القرن السابع تغيرت الأوضاع ، وهزم الفرس الجيوش البيزنطية فى كثير من الجبهات ، كما احتلوا أجزاء كثيرة من الأراضى التى كانت تحت السيطرة البيزنطية .

وفيما بين عامى (٦١٠م – ٦١٥م) ، استولى الإيرانيون على سوريا ، وأصبحت أراضى الشام والقدس وأنطاكية (أنتيوخيا) أراضى إيرانية .

اجتاز الإيرانيون الأناضول واحتلوا مدينة (خالكيدون) ، وهناك استوطنوا فى ميناء (خريزوبوليس) .

وفى عامى (٦١٨ م – و٦١٩م) ، قاموا باحتلال مصر ؛ حيث دخلوها من الإسكندرية وكانت هذه هى نهاية انتصاراتهم ؛ لأن الجيوش البيزنطية قامت بالهجوم عليهم بالاشتراك مع قوات التحالف ، وكان الإمبراطور (هرقل) هو إمبراطور الدولة البيزنطية فى الفترة من (٦١٠م–٦٤٠م) ؛ حيث قام ببناء جيش على الطراز الحديث فى

آسيا الصغرى ، كما انضم معه حلفاء جدد من شعوب آيبيريا وأرمينيا واللاذ والأبخاز والخزر ؛ حيث أعطى أهمية خاصة لشعوب جنوب القوقاز عند تأسيسه للجيش البيزنطى .

وقد دارت رحى الحرب الإيرانية البيزنطية بضراوة فيما بين عامى (٦٢٢م - ٦٢٩م) .

وطبقًا لما ذكره المؤرخ (جلجر) فإن الإمبراطور (هرقل) كان يبحث عن مقاتلين شجعان من الأبخاز واللاذ والجورجيين للقتال بجانبهم دون أجر ، وقد أصبح لزامًا على شعوب الأبخاز واللاذ وجورجيا أن تحارب فى صف البيزنطيين ، ولكن هذه الشعوب شعرت بالملل من كثرة الحروب التى لا تنتهى ؛ فلم يكن هناك أدنى توافق بين أهدافهم الحقيقية والسياسة الخارجية للدولة البيزنطية ، وبدأ التذمر وعدم الرضا يتسرب إليهم .

وفى عام ٦٢٢م ، جاء الإمبراطور البيزنطى (هرقل) إلى أرمينيا بجيش قوى ، وعندما سمع بهروب شاه إيران من الجبهة اتجه إلى أراضى أزربيجان ؛ حيث قام بنهب القرى والمدن ، وبعد ذلك أرسل رسالة إلى قادة أرمينيا وجورجيا وألبانيا يطلب منهم الاستسلام ، وإذا لم يستجيبوا لطلبه سيضطر إلى هدم بلادهم فوق رؤوسهم .

وكانت هذه الدول وعلى الأخص ألبانيا تابعة للإمبراطورية الفارسية ؛ حيث تصرفوا بسلبية تجاه الدولة البيزنطية ؛ فما كان من الإمبراطور (هرقل) إلا أنه احتل ألبانيا بعد أن نهبها .

وفى هذه الحرب اضطرت جيوش أبخازيا واللاذ وآيبريا والآلان إلى القتال إلى جانب بيزنطة مرة أخرى ؛ فلم تكن هناك مغانم كثيرة لهذه الحرب عادت على الإمبراطور البيزنطى ، لأن دولة الأرمن وجزءًا كبيرًا من دولة جورجيا كانا مواليين لشاه إيران.

ووفقًا لكتابات المؤرخ (فيوفان) فإنه فى عام ٦٢٣م ، قاتل الإمبراطور البيزنطى هرقل من أجل الاستيلاء على أراضى ما بين النهرين الإيرانية ، إلا أننا قد رأينا فى

هذه الحرب انسحاب الأبخاز وشعوب الكولخيد الأخرى من الحرب بعدما كانوا يقاتلون فى صف الدولة البيزنطية .

وبناء على رغبة الملك خسرو الثانى شاه إيران ؛ فقد أصبح "صارابلانجا" قائدًا للجيش الإيرانى ؛ حيث لم يقدم على الحرب مع البيزنطيين فوق أراضى ألبانيا ، وانسحب واتجه نحو إيران ولم يستطع الإمبراطور البيزنطى أن يقطع عليه الطريق ، ويمنعه من دخول إيران ؛ فقد كان يسعى لملاحقته والدخول قبله إلى إيران .

وقد قال (هرقل) لجيشه هذه الكلمات : "أيها الإخوة ، إن موقف الجيش الإيرانى صعب للغاية ؛ فهم الآن يستريحون ؛ فقد أصاب جنودهم و خيولهم الإعياء والتعب ؛ لذا ينبغى علينا أن نخرج لمواجهة شاه إيران الآن ؛ فإذا استطعنا أن نحقق ما نصبو إليه ، وهو أن نباغته ونأتى به فى حالة سيئة أمكننا الاستيلاء على إيران" .

ووفقًا لما ذكره مؤرخ هذه الحقبة ؛ فإن فكرة الإمبراطور (هرقل) لم تلق قبولاً من بعض أفراد جيشه ، كما لم يشترك فى هذه الفكرة أيضًا الكثير من الأباظجية واللاذ والآيبيريين .

لقد سلكت شعوب الأبخاز وشعوب التحالف الأخرى ، التى كانت تشارك فى كل حرب مع الدولة البيزنطية سلوكًا سلبيًا هذه المرة ، مما سبب مرارة كبيرة للزعماء البيزنطيين ، ولهذا وجدنا الإمبراطور (هرقل) قد اتخذ معهم أسلوبًا آخر ، وهو أسلوب الترغيب تارة والترهيب تارة أخرى ، وقد عبر عن هذا المؤرخ (فيوفان) بقوله :

" لقد واجه الأبخاز واللاذ والآيبيريين جزاء قرارهم الخاطئ هذا ، والذى كانوا قد أخذوه دون تفكير أو روية " .

وبعد إخماد المعارضة بدأ الجيش البيزنطى الحرب وأقنع القوات المتحالفة بأن يقفوا إلى جانبه فى هذه الحرب .

وانقسم الجيش الإيرانى إلى قسمين أحدهما يريد أن يتعقب الجيش البيزنطى ، والآخر يريد أن يتقدم صوب أرمينيا ، واتفق الفريقان على مواجهة الجيش البيزنطى

بهذه الطريقة ، إلا أن البيزنطيين فهموا ما ينوى عليه الإيرانيون ؛ فعملوا جاهدين على الحيلولة دون اتحاده ، وأن يلحقوا الهزيمة بكل قسم على حده ، وقام الإمبراطور (هرقل) بحشد جيوشه على الحدود الإيرانية واشتبك مع الإيرانيين ؛ فهزم فى البداية جيش (صرابلانجا) ، وقتل قائده فى هذه الحرب ، وجاء مكانه قائد أخر يدعى (صائن) ، إلا أن هذا الجيش قد انهزم وفر هارباً أمام جيوش الحلفاء المكون من الأبخاز والبيزنطيين واللاذ . ولكن بعد أن ظهر القائد (صاربارازا) بجيشه جمع قوات القائد (صائن) التى ولت هاربة ، وهجم على الجيش البيزنطى بضراوة ، وعندما تأكد (هرقل) من أن خططه قد باءت بالفشل انسحب بسرعة دون حرب ، وتخطى الجبال الوعرة بجيشه ولجأ إلى شمال القوقاز ، إلا أن القوات المتحالفة من الأبخاز واللاذ المشاركة فى الحرب مع الجيش البيزنطى لم تنسحب مع القائد (هرقل) إلى دولة الخون ، بل ذهبوا إلى بلادهم منفصلين عن الجيش البيزنطى ، وقد عبر المؤرخ (فيوفان) عن هذا بقوله : "خاف اللاذ والآبازجيون وانفصلوا عن الجيش البيزنطى ، ثم عادوا إلى بلادهم" ، أما البروفسير (د. و. أنجابادزا) فقد علل انفصال جيوش الآبازجية والحلفاء عن الجيش البيزنطى ، ليس بسبب الخوف من الجيش الإيرانى ولكن لأنهم لم يريدوا أن تسفك دماؤهم من أجل مصلحة الإمبراطور البيزنطى .

ومثلما كنا قد أوضحنا من قبل ؛ فإن هذه الشعوب قد قالت لا للحرب التى ليس لها مبرر عام ٦٢٣م ؛ فقد أحجموا عن استخدام القوة ، وعندما أتيحت لهم الفرصة وجدناهم ، وقد انسحبوا من صداقتهم مع الدولة البيزنطية .

ومما لا يدعو للشك ، أن هناك مَنْ ساعد هؤلاء الجنود الذين انفصلوا عن الدولة البيزنطية وعادوا إلى بلادهم ؛ فردود الفعل قد زادت إلى حد كبير فى الأيريسى وأبخازيا ضد البيزنطيين واستعدوا فى كل لحظة للثورة ، لأنهم كرهوا هذه الإمبراطورية ونفروا منها ومن نظامها المستبد ؛ حيث وجدوا الوقت والظروف ملائمة لإعلان الثورة .

هناك مـادة علميـة مكتوبة تبـين الظروف الاجتـمـاعيـة فى ذلك الوقت ، منهـا على سبيل المثال الخطاب الذى كتبه (أينوك آناستاس) إلى (فيودور جانجرتى) ، والذى يحتوى على بعض المعلومات القيّمة فى هذا الصدد ؛ فتاريخ كتابة هذا الخطاب يرجع إلى الأعوام الستين الأولى من القرن السابع الميلادى .

ووفقًا لما جاء فى هذا الخطاب فإن (ستيبان الديوفيزتى) ، قد مضى إلى دولة آبازجيا فى تلك الأيام لمساعدة (آناستـاس) ؛ وكان هو نفسه المعاون والمساعد لمن يدعى (مسكيم أيسبوفيدنيك) . كانت الحكومة البيزنطية فى تلك الفترة تُساند مذهب (المونوفيـزيت) ، ولهـذا كـانوا أعـداءً لمن ينتسب إلى مـذهب (الديوفيـزيت) ، ولأن القائد (آناستاسى) كان يعتنق المذهب الديوفيـزيتى فقد أُعفى من منصبه ، وسجن فى دولة (اللاذيقا) ، وكـذلك فـرَّ القـائد (ستيبان الديوفيزيتى) إلى أبخازيا دون المرور على اللاذيقا .

وأول استنتاج نستخلصه من هذا هو أن عدد مَنْ يكرهون البيزنطيين ، ويضمرون لهم العداء فى آبازجيا كانوا أكثر بكثير من الأيريسى ، ولهذا فقد قابلوا هذا الرجل الذى لم يكن مرغوبًا فيه من قبل البيـزنطيين بحفـاوة كبـيرة ، ووجد (سـتـيـبـان الديوفيزيتى) موالين كثيرين له فى أبسيليا والأيريسى ؛ حيث استطاع فى ظل هؤلاء الحلفاء أن يتجول بثقة فى هذه البلاد التى عاش فيها بقية حياته ، والتى قام فيها بنشر مذهبه الذى هو نوع من أنواع العقائد المسيحية الجديدة .

إن مساندة دول الأيريسى والأبسيليان و الآبازجيا التى هى ولايات بيزنطية لهذا المذهب الجديد الذى يعارض سياسة الدولة البيزنطية ، لهو نتيجة منطقية لعدم الراحة التى تشعر به تلك الـدول تجـاه الإمـبـراطـورية البـيـزنطية ، وهو أحـد ردود الأفـعـال الأولـى للكولخـيد الـذين أعـدوا أنفسـهم لحرب الاستقلال ، ومثلما أثبت البروفسير (د. و. أنجابادزا) أنه فى القرنين السـابع والثـامن كانت هناك مشكلات سياسية كثيرة بين دولتى الأيريسى والأبخاز ، وكانت هذه المشكلات تزداد يومًا بعد يوم ؛ حيث كان

للنظام الإقطاعى الموجود فى بيزنطة والكولخيد دور كبير فى هذه المشكلات المتفاقمة إلى جانب احتلال الدولة البيزنطية للكولخيد.

لقد كانت الدولة البيزنطية فى نهايات القرن السابع وبدايات القرن الثامن تموج بمشكلات داخلية كثيرة ، وقد اتسعت هذه المشكلات لتشمل رجال الدولة أنفسهم .

فى الحقيقة فإن الحروب الإيرانية البيزنطية قد أرهقت كلتا القوتين العظميين ، ولهذا فقد انتهز العرب الفرصة ، كما قام الأبازجية والأيريسى بالتحرك لتحويل الموقف لصالحهم ، فأعلنوا الاستقلال عن بيزنطة ، وقاموا بتطبيق شريعتهم القديمة ، وفى عام ٦٩٧م ، طلبوا المساعدة من العرب ، الذين ظلوا تحت سيطرتهم أربعين عامًا تقريبًا .

حروب شعوب اللاذ والأبخاز الجورجيين ضد العرب :

ظهر العرب على الساحة السياسية العالمية فى السنوات الثلاثين الأولى من القرن السابع الميلادى ؛ حيث امتد نفوذهم إلى الشرق الأدنى ، وفى نهايات القرن السادس وبدايات القرن السابع مر العرب بأزمات اقتصادية طاحنة ؛ حيث انعدمت التجارة البرية أو أصبحت فى حكم العدم ، كما لم تعد أراضيهم كافية لسد احتياجاتهم .

وقد بدأت تتكون فى هذه الفترة طبقات اجتماعية متعددة ، كما بدأ أيضًا التقارب بين البدو الرُّحل الذين ليس لهم مكان يستقرون فيه وبين أهل المدن .

وفى تلك الفترة العصيبة التى عاشها العرب ظهر نظام أيديولوجى كرد فعل لهذه الفترة ، وظهر دين جديد تحت اسم " الإسلام " ، وقد استطاعت هذه الأيديولوجية أن تضم تحت لوائها شعوبًا ومحاربين فى مثل هذه الظروف الصعبة استطاعوا الدفاع عن حريتهم ، وعن بنى الإنسان حتى ذلك الوقت .

وقد أخذ الرسول "صلى الله عليه وسلم" (٥٧٠م - ٦٣٢م) ، ومَنْ أتى بعده من الخلفاء الراشدين أمثال الخليفة أبى بكر الصديق (٦٣٢ - ٦٦١م) وعمر وعثمان وعلى "رضى الله عنهم" ، على عاتقهم تجنيد الكثير من الرجال تحت خلافتهم ولهذا السبب كان من السهل عليهم أن يؤسِّسوا شريعة خاصة بدولتهم التى ما لبثت أن انتشرت سريعًا . وفى هذه الفترة وجدنا أن الحروب المستمرة بين إيران وبيزنطة قد أنهكت قوتهما لذلك استغل العرب هذه الفرصة استغلالاً حسنًا . وفى عهد الخليفة عمر ابن الخطاب (٦٣٤م - ٦٤٤م) ، استولى الجيش العربى على إيران ومصر وفلسطين وسوريا ، وألحق بالبيزنطيين هزيمتين كبيرتين أولهما فى موقعة اليرموك على سواحل نهر اليرموك فى سوريا عام ٦٣٦ م ، والثانية بالقرب من مدينة القدس ، وبعد ذلك اتجه العرب إلى بلاد القوقاز مباشرة .

وفى عام ٦٤٠م ، هاجم العرب دولة أرمينيا ، وبعد أن رسخت أقدامهم فى تلك المنطقة انتصروا على الإيرانيين فى موقعة " نهاوند " عام ٦٤٢م ، ثم اتجهوا بعد ذلك إلى جورجيا ، إلا أنهم لم يستطيعوا دخولها .

كرر العرب الهجوم على جورجيا مرة ثانية ، وفى عام ٦٥٤م ، وافقت جورجيا على دفع الجزية وأن تكون تحت الحكم العربى ؛ حيث أصبح أمير عربى كان يعيش فى مدينة "تفليس" أميرًا عليها .

وفى هذه الأثناء أصبحت جورجيا وشرق أرمينيا تحت الاحتلال العربى المخيف ، وهكذا أصبح العرب جيرانًا مقربين للأبخاز و اللاذيقا ، كما بدأت المناوشات تدور بينهم ، ووفقًا لما كتبه المؤرخ العربى (بلازورى) :

إن ابن مسلم قد استولى على جـــورجيا وفرض عليها الضرائب الباهظة ، كما استولى على أراضى أرمينيا الواقعة تحت سيطرة البيزنطيين ، بعد أن حصل على موافقة الخليفة عثمان .

وبمجرد أن حصل على هذه الموافقة قام بتكوين جيش قوامه ستة آلاف جندى سورى ، وقد حاصر مدينة (قالينقالا) عاصمة أرمينيا ، وقام بطريرك أرمينيا بتكوين جيش من التحالف يضم الأبخاز والآلان والخزر ، وكانت هذه الجيوش تقاتل فى صفوف البيزنطيين . أرسل الخليفة قوات أخرى لمعاونة الجيش العربى ، الذى كان يحاصر عاصمة الأرمن (قالينقالا) ؛ حيث كانت هذه القوات تحت قيادة "سلمان على خليل" .

التقى الجيشان العربى والبيزنطى عند نهر الفرات فى منتصف القرن السابع ، وانتهت الحرب بانتصار المسلمين ، وانسحب الجيش البيزنطى ومَنْ معه من قوات الأبخاز والآلان والخزر بعد أن خسروا الحرب ، وكانت هذه هى أول حروب الأبخاز ضد العرب فى منتصف القرن السابع الميلادى .

وفى العصر الأموى (٦٦١م - ٧٥٠م) ، كان العرب قد أرسوا أسس الفتح والغزو جيداً ، وقاتل الأبخاز مع البيزنطيين ضد العرب فى كارتفاليا ما يقرب من تسعين عاماً ، وكنا نرى أحياناً العرب يهاجمون أبخازيا ، فإذا تتبعنا تفاصيل هذه الحروب تتبعاً دقيقاً . نجد أن الخليفة معاوية قد حاصر القسطنطينية (إستانبول) عاصمة الإمبراطورية البيزنطية عام ٦٨٠م ، وكان احتمال وجود جنود من آبازجيا للدفاع عن القسطنطينية احتمالاً كبيراً بحكم أنها إحدى الولايات التابعة للدولة البيزنطية ؛ حيث كانت آبازجيا ضمن التحالف السياسى لهذه الدولة آنذاك ، وبهذا يمكننا القول إن العرب كانوا مضطرين دائماً لقتال الأبخاز على الأراضى الواقعة خارج أبخازيا بسبب وقوفهم إلى جانب البيزنطيين .

وفى نهايات القرن السابع قام المسلمون بتقوية مواقعهم جنوب القوقاز مثلما فعلوا فى المناطق الأخرى ، التى كانوا يسيطرون عليها ، ثم بعد ذلك توجهوا إلى الأيريسى .

وقد كان أحد أهداف العرب الرئيسية فى هذا الإقليم هو النزول من شمال القوقاز إلى الجنوب ومنع وصول الخزر إلى هناك ؛ فإذا استطاعوا الوصول إلى

أهدافهم سيتمكنون من الاستيلاء على أبخازيا ، وكان جنود الخزر من أقوى الجنود في تلك الفترة ؛ حيث كبدوا العرب والبيزنطيين خسائر فادحة.

وتضم الساحة السياسية لدولة الخزر منطقة شمال القوقاز الواقعة ما بين البحر الأسود وبحر الخزر أى بين نهرى الفولجاو الدون وبجانب ذلك ؛ فإن دولة "الجوت" كانت تحت سيطرة دولة الخزر .

لم تكن علاقات الخزر والأبخاز مبنية على أساس علاقة الجوار فقط ؛ فهم شركاء في السياسة والثقافة والاقتصاد ؛ حيث كانت تجمع هذا المثلث (جورجيا والأبخاز والخزر) قنوات ثقافية وتجارية واحدة ؛ وقد أوضح المؤرخ الجورجى (يوان صابا نيزده) هذا فى كتاباته التى يقول فيها : " كان من الصعب احتلال العرب لدولة أبخازيا فى منطقة توجد فيها قوات بيزنطية خزرية ؛ فقد كانت هناك أسباب لا حصر لها لكراهية العرب للأيريسى والأبخاز ؛ منها أن العرب عندما فرضوا الضرائب الباهظة على جورجيا وأرمينيا ، بدأت شعوب أرمينيا وجورجيا فى الفرار من أوطانها واللجوء إلى بلاد اللاذ والأبخاز ؛ إلى جانب أن اللاذ والأبخاز حين وقفوا إلى جانب البيزنطيين ، واشتركوا فى الحرب معهم ، كان سبباً فى كراهية العرب لهم .

هناك حقيقة لا يجب إغفالها ، وهى أنه لا توجد خيارات أخرى أمام هذين الشعبين فى هذه الفترة سوى الوقوف إلى جانب البيزنطيين أرادوا أو لم يريدوا ؛ فسيحاربون العرب بجانب بيزنطة ، وكانت هذه العلاقات تسبب القلق للعرب ولذلك كانوا يسعون إلى اقتلاعها من جذورها .

كان العرب الذين يحتلون أكثر من نصف العالم فى تلك الفترة يدركون أهمية منطقة البحر الأسود من الناحية الاستراتيجية لاسيما سواحله الشرقية ، ولم تكن حساباتهم خاطئة ؛ فمن أجل تحقيق مطامعهم قاموا بحشد قواتهم الموجودة فى شرق جورجيا ؛ وقد وجدوا الفرصة سانحة للتحرك فى نهاية القرن السابع ؛ حيث تطورت الأحداث على هذا النحو فى عام ٦٩٧م ، أعلن الأيريسى عصيانهم على البيزنطيين وكان هذا التمرد فى الحقيقة تحت قيادة (سيرجى برنوك ـ إيبا) الذى كان أميراً على

هذه المنطقة من قبل الدولة البيزنطية ؛ حيث قام هذا الرجل بطلب المساعدة من العرب لمواجهة البيزنطيين ، وبدون إضاعة وقت دخل العرب إلى الأيريسى ، وبعد مدة قصيرة كانت أراضى الأيريسى جميعها تحت سيطرة العرب .

ووفقًا لما ذكره المؤرخ البيزنطى (فيوفان) : " بأنه فى أوائل القرن الثامن استولى العرب على آبازجيا واللاذيقا وكل أيبريا " . وأقام العرب حاميات عسكرية كثيرة على الحدود مع أبخازيا ، لأنهم فهموا أهمية القلاع الاستراتيجية كقلعة "آزغرة" وقلعة جليك فى دولة الميسيميان ، ولذلك وجدناه لا يتوانى فى بناء قلاع جديدة فى هذه المنطقة.

والتاريخ يعيد نفسه ؛ فقد وجدنا أن شعوب هذه المنطقة كما كان فى القرن السادس ، يطلبون المساعدة هذه المرة من العرب بدلاً من الفرس ؛ وأن ما يدعو للحيرة أننا لا نجد ولو أدنى معلومة توضح رد فعل شعوب هذه المنطقة تجاه العرب .

بدأت الإمبراطورية العظمى فى التدهور والانحطاط فى السنوات العشر الأولى من القرن الثامن الميلادى ، حيث انفصلت عنها شعوب الأبخاز والأيريسى ، ولم تجرؤ هذه الدولة العظمى فى التفكير لاستعادة هذه البلاد التى خرجت من حوزتها وآلت إلى العرب .

حاصر العرب القسطنطينية بين عامى (٧١٧م – ٧١٨م) ، واستمر هذا الحصار لمدة عام تقريبًا ، وفى هذه الفترة أيضًا قام الخليفة الأموى بالاستيلاء على شبه جزيرة (بيرينا) ، واستولى العرب على وسط آسيا وأفغانستان وشمال الهند .

كانت قوة العرب تزداد يومًا بعد يوم ويزداد معها الضغط على شعوب الأبخاز والأيريسى ؛ حيث وجدنا شعوب اللاذ والأبخاز يقاتلون المحتلين العرب هذه المرة ، وفى تلك الحرب كان كل الشعب صفوته وعامته يحاربون جنبًا إلى جنب ، لأن الأعيان وأصحاب الأراضى كانوا مستائين بسبب مناصبهم التى فقدوها ، وبسبب أراضيهم التى استولى عليها العرب ، ولكى يرفعوا عن كاهلهم العبء الذى حمّله لهم العرب فوق طاقتهم.

وهناك نقطة أخرى دعت إلى هذا الاستياء وهى أن العرب كانوا يدعون إلى الإسلام بقوة السيف ؛ فبعد أن استمر تمرد الأبخاز والأيريسى وعصيانهم تجاه العرب فترة من الزمن قرروا الانضمام إلى البيزنطيين .

ووفقًا لما قاله المؤرخ (فيوفان) : فإن القائد (لوإيسافر) الذى كان منتظرًا فى دولة الآلان ، عندما وصله الخبر بقدوم الجيش البيزنطى إلى دولة الأبسيليان والميسيميان قرر أنه يجب زيادة عدد أفراد الجيش ؛ ليصبحوا أكثر من الجيوش التى تحارب مع العرب فى الكولخيد .

وبعد أن وجد الجيش القادم إليه على النحو الذى يرضيه ، قرر أن يستولى على (جليك قلعة) التى كانت فى يد العرب ؛ فالقائد الأرمنى الذى كان يحمى القلعة ، قد أعاق الجيش البيزنطى من محاولة انتزاع القلعة والاستيلاء عليها ، ولذلك وجدنا القائد (لوإيسافر) قد أعدم هذا القائد سرًا ، وبعد ذلك استرد القلعة من العرب .

وفى هذا الحصار ساند الأبسيليان الجيش البيزنطى مساندة قوية ، وكانت هناك وحدة أبسيلية قوامها ثلاثمائة شخصٍ موجودة ضمن الجيش الذى استرد القلعة ومن ضمن قادتها رجل يدعى (مارينا) ، فهذا القائد الأرمنى الذى كان قائدًا للقلعة ، عندما شعر باشتراك الأبسيليان فى صفوف الجيش البيزنطى أفسح المجال للتفاهم ، ولكن الأبسيليان والبيزنطيين هجموا على القلعة معًا ، واستولوا عليها ، وتشتتت الحامية العسكرية العربية الموجودة فى القلعة .

استرد الميسيميان قلعتهم (جليك قلعة) ، إلا أن طرد العرب من هذه الدولة لم يكن بالأمر اليسير ؛ فقد كان للعرب جيوش قوية فى دول أبازجيا والأبسيليا والأيريسى ، وقد قام العرب بتقوية أوضاعهم فى هذه الدول ، ووفقًا للنتائج التى توصل إليها البروفسير (د. و.أنجابادزه) ؛ فإن العرب مكثوا فى هذه الدولة أكثر من ثلاثين عامًا ، وكانوا دائمًا على أهبة الاستعداد لمحاربة الخزر ، وكما ذكر المؤرخ الأرمنى (قاران قاتواتى) ؛ فإنه فى السنوات العشرين الأولى من القرن الثامن الميلادى ، كان العرب قد حاربوا الخزر مرتين فوق أراضى أبخازيا بقيادة "جهار بن عبد الله".

إن الخزر بعدما استطاعوا أن يصنعوا لأنفسهم نظام دولة فى أواسط القرن السابع الميلادى ، استطاعوا أيضًا فرض سيطرتهم على شمال القوقاز فى القرن الثامن الميلادى .

وكما ذكرنا فى الصفحات السابقة ، أنه كانت ثمة علاقات بينهم وبين الأبخاز ؛ حيث تطورت هذه العلاقات فى الفترة التى كان العرب يحتلون فيها جنوب القوقاز .

وعندما هاجم "مروان بن محمد" القوقاز كانت العلاقات بين الأبخاز والخزر على أحسن وجه ؛ فبالغارات التى قام بها مروان على القوقاز تكون قد بدأت أصعب الفترات فى حياة القوقاز ؛ فالذين قاسوا ويلات هذه الحروب هم شعوب الأبخاز والأيريسى وآيبريا ، وقد وصف المؤرخ "جوانشر" الجورجى الأصل ، الذى كان مؤرخ القرن الحادى عشر ، تلك الغارات العربية بشكل مفصل ، وقد أيده فى وصفه هذا العالم الشهير "جافاهسيفيلى" ، الذى قال إن "جوانشر" قد أصاب عين الحقيقة ، ولم يكن وصفه وهمًا أو خيالاً .

وفى ضوء المعلومات التى بين أيدينا ؛ فإننا نظن أن حروب مروان حدثت فى الفترة ما بين عامى (٧٣٦م – ٧٣٨م) ؛ حيث كان "مروان بن محمد" نفسه على رأس الجيش ، الذى اتجه به إلى أبخازيا والأيريسى فى منتصف عام ٧٣٧م .

لجأ كلٌّ من الأخوين "ميرو" و "آرجيل" إلى هناك ؛ فهما أخوان جورجيَّان كانا يحكمان جورجيا ، وكان كل منهما تحت إمرة الحكم العربى فى "تفليس" .

وقد وصف المؤرخ "ليونيدمرولى" هذا الحادث بقوله : " عندما جاء القائد العربى "مروان بن محمد" فر الأخوان ميرو وآرجيل إلى أبخازيا ، بعدما وجدا أنهما لا طاقة لهما بمواجهة هذه القوة العربية الضاربة. ولهذا عاشت الشعوب المسيحية فى تلك المنطقة حقبة من الفزع والخوف الشديدين . احتل القائد مروان فى البداية مملكة الأيريسى وأقام العرب فى هذه الدولة ، وكانت معسكراتهم واقعة بين نهرى طاقها نيقال وإينجور ؛ حيث مكثوا هناك فترة نهبوا فيها كثيراً من المدن والقلاع . عندما تأكد العرب أنهم قد

أحكموا الخناق على الأيريسى مضوا من هناك إلى أبخازيا ؛ حيث ظهرت هناك حقيقة الأخوين ميرو وأرجيل ، وكان هذا موافقًا لما قاله المؤرخ "جوانشر" .

لقد أوضحنا من قبل ، أن هدف العرب كان السيطرة على اللاذيقا وأبخازيا وأن يكونوا هم القوة الحاكمة فى هذه المنطقة ، إلى جانب أنهم كانوا يسعون إلى إضعاف التعاون بين البيزنطيين والخزر ، بفصل حدودهم بعضها عن بعض ، وكذلك الحصول على أكبر قدر من الغنائم ، ولذلك كان هروب الأخوين ميرو وأرجيل إلى أبخازيا سببًا لمنعهم من تحقيق أهدافهم .

كان الجيش العربى تحت قيادة مروان يستولى على القرى والمدن وكل ما تصل إليه أيديهم بشكل يدعو إلى الأسى والحزن ؛ حيث وصف البروفسير "جوانشر" هذا بقوله : " استولى مروان على مدن الأيريسى وقلاعها ، وقام بهدم قلعتها الحصينة التى تسمى " تسيك – هى – كوجى " والمحاطة بثلاثة أسوار ، ثم بعد ذلك دخل قلعة مشروع "كيالاشير" ، ثم هدم قلعة صوخومى التابعة للأبسيليان حتى تقدم نحو قلعة "أناقوبيا" .

ووفقًا لما ذكره ليونيد مرولى فى كتاباته : " فإن الأخوين ميرو وأرجيل كانا يختبئان فى قلعة "أناقوبيا" مع آخرين جاءا إلى هناك ، وأن "ليون" قائد الأبخاز كان موجودًا آنذاك فى قلعة صويغى التابعة للآستين شمال القوقاز ؛ حيث لم تذكر التواريخ سبب ذهـــاب قائد الأبخاز إلى قلعة صويغى ، ولكننا نستطيع أن نستشف من هذا : " أنه ربما قد ذهب لطلب المساعدة من شعوب شمال القوقاز الذين هم إخوة له من أجل إيقاف الزحف العربى" .

عندما كان العرب يتقدمون نحو "أناقوبيا" وجدنا الأبخاز والجورجيين قد بدأوا فى الاستعداد للدفاع عنها ، وحسبما ذكره المؤرخ الجورجى "جوانشر" : " تجمع ما يقرب من ألفين أبخازى وألف من اللاذ والجورجيين من أجل الدفاع عن هذه القلعة" ، وعلى الرغم من ادعاءات "جوانشر" هذه ؛ فإن أعداد الجنود الأبخاز التى حاربت من أجل الدفاع عن "أناقوبيا" فى أبخازيا كانت أكثر من العدد المذكور.

وقد ذكرت بعض المصادر التاريخية أن القائد " ليون الأول " ، قد عاد إلى الوطن قبل أن تبدأ الحرب ، وفى هذه الحرب كانت أعداد الجنود العرب تفوق بكثير قوات الأبخاز المدافعة عن تلك القلعة .

شن الجيش الأبخازى حربًا ضروسًا ضد الجيش العربى بالاشتراك مع المقاتلين اللاذ والجورجيين ، الذين كان يبلغ عددهم حوالى ألف شخص ، وكانوا يعلمون أن مستقبل بلادهم متعلق بانتصارهم فى هذه الحرب ، لذلك قدموا أرواحهم فداءً لوطنهم ؛ حيث انهزم الجيش العربى ولم يستطع الصمود فى مواجهتهم .

ووفقًا لما كتبه "جوانشر" : " أنه قد دب وباء الطاعون فى الجيش العربى آنذاك ، فكان له أبلغ الأثر فى هذه الهزيمة ، وقد سقط من العرب ما يقرب من ثمانية وثلاثين ألفًا من الشهداء ، ومن الجورجيين ستون مقاتلاً فقط ، ومن وجهة نظرى أن هذا الرقم الذى ذكره المؤرخ الجورجى مبالغ فيه ، وهو بعيد كل البعد عن الحقيقة ، لأنه ليس من المعقول أن يدافع جيش بروحه وجسده عن وطنه أمام جيش بهذه القوة ، وبهذا العدد دون أن تقع فيه خسائر كثيرة فى الأرواح ، كما أن إشارة المؤرخ إلى استشهاد ما يزيد عن ثمانية وثلاثين ألف شهيد فى هذه الحرب لهو من قبيل المبالغة أيضًا وهو يتنافى مع الحقيقة" .

وعلى الرغم من كل هذا ؛ فإن الكتابات التى كتبت فى هذا الصدد تظهر ضخامة حجم الجيش العربى ، وفقده للكثير من قواته فى هذه الحرب .

ذاق (مروان أداجوا) أول هزيمة لقواته فى جنوب القوقاز فى قلعة (آناقوبيا) ، وكان لهذه القلعة دور كبير فى الدفاع عن البلاد . أما فيما يتعلق بهذه القلعة فلدينا بعض كتابات "جوانشر" التى يقول فيها : " إن مروان لم يكن يريد المجىء إلى هنا وأنه قد أدان مَنْ جاءوا به إلى هذه القلعة" .

وفى أعقاب هذه الهزيمة الفادحة انسحب الجيش العربى من آناقوبيا ، إلا أن بعض القوات قد بقيت بالقرب من قاعدة "صوخوم" خوفًا من وصول المنتصرين إليهم

والهجوم عليهم مرة أخرى ، وربما انتظروا إمدادت عسكرية لمواصلة القتال مرة أخرى ، ولكن بعد فترة رأيناهم قد رحلوا وتركوا كل أبخازيا ؛ فلم يكن أمامهم خيارات أخرى ، لاسيما وأنهم قد خلفوا من ورائهم جيشاً ينقض عليهم فى كل لحظة وشعباً قد كرههم ونفر منهم .

وعلى هذا النحو أرادت شعوب الأيريسى التخلص من العرب ، كما فعلت أبخازيا تماماً. ولهذا وجدنا الجيش العربى لم يعتمد على الأيريسى فى حمايته ، بل وجدناه وفقًا لما قاله "جوانشر" : "يستولى على كل ماتصل إليه يده من القرى والمدن دون أن يترك شيئًا للأيريسى".

وتذكر بعض المصادر التاريخية مقتل كل من "قسطنطين" "وداود" قائدى "أرجفيد" ، وقيام مروان بهدم كل ما كانت تصل إليه يده من المدن والقلاع ؛ حيث إنه كان لا يتركها إلا وهى خاوية.

وإذا نظرنا إلى الجيش الذى هُزم فى قلعة آناقوبيا ، وجدناه ليس هو كل الجيش العربى ؛ فبقية هذا الجيش ينتشر فى جبهات لا حدود لها ، حسبما تقتضى الظروف السياسية آنذاك ؛ فإنه بعد هزيمته فى آناقوبيا لم يرسل جيوشاً أخرى إلى هناك ، ولكنه حاول إحكام قبضته على الأراضى الجورجية والأرمينية ، كما ضاعف من فرض الضرائب .

وحول هذا الموضوع كتب "جوانشر" يقول : " فى هذه الأوقات تحديداً وقعت دول جورجيا الشرقية وأرمينيا وران فريسة للجوع والفقر ، ومات الشعب جوعًا ونفقت الحيوانات وهلك الزرع والضرع" .

إن محاولة صرف نظر العرب عن أحلامهم فى دولتى أبخازيا والأيريسى لهو من قبيل الخيال ، وفى الوقت نفسه فإن محاولتهم الهجوم على أبخازيا مرة أخرى ، ومواجهة البيزنطيين والخزر دون أن تلحق بهم هزيمة قاطعة لهو من قبيل الخيال أيضاً.

لم يقدم البيزنطيون أية معاونة عسكرية لأناقوبيا ؛ حيث اعتبر هذا التصرف منها سيئًا للغاية ، لا يمكن أن يغفره التاريخ ، لاسيما وأن العرب قد استولوا على كثير من المدن التى كانت تحت أيديهم .

وعلى الرغم من كل هذه السلبيات ، وجدنا (ليون) حاكم أبخازيا والأخوان (ميرو وارجيل) حاكما جورجيا قد قاموا بإبلاغ الإمبراطور خبر الانتصار فى أناقوبيا ، وقد وصف المؤرخ (جوانشر) هذا الموقف بقوله :" بعد ذلك أرسلوا رسولاً إلى الإمبراطور البيزنطى لكى يبينوا له مدى الانتصار الذى رزقهم الله به ؛ حيث قام الإمبراطور بالرد على هذا الخبر فى الحال" ؛ فأرسل خطابًا إلى (ميرو وأرجيل) أشاد فيه بعملهم هذا وأن إيقافهم العرب عند حدهم هو عمل فى غاية الأهمية ؛ حيث تعد هذه الواقعة شرارة الأمل للشعوب المسيحية التى كانت قد فقدت كل أمل لديها ، ثم أرسل الإمبراطور خطابًا آخر إلى (ليون الأول) حاكم الأبخاز ، يقول فيه على لسان (جوانشر) : " سأترك لك تمامًا قيادة أبخازيا أنت وأولادك وأحفادك؛ فالذين لجأوا إليك من الحكام والجورجيين الموالين لك ، قمت برعايتهم فأكرمتهم خير إكرام ؛ فلا تتركهم وشأنهم ، وارعهم واحمهم ، ولا تلحق الضرر بأراضى الأيريسى فهم سيكونون بجانبك ، حتى بعد العودة إلى أوطانهم " .

وكما فهمنا من هذا الخطاب الواضح والصريح ؛ فإن الإمبراطور البيزنطى كان يهدف من وراء ذلك إلى بث الحماس والحمية فى شعبى جورجيا وأبخازيا ، لكى يواجهوا خطر العرب والخزر .

كذلك وقد رأينا أن الإمبراطور كان يرغب فى أن تنتقل بلاد جورجيا التى يحتلها العرب إلى الملكية البيزنطية ، كما أراد أن يعمل على تقوية الاتحاد المناوئ للعرب فى جورجيا وأبخازيا .

وفى عام ٧٣٨م ، وبعد الحرب التى اشتعلت فى أناقوبيا ، وصل جيش عربى بقيادة "سليمان بن عصام" ، لكنه لم يستطع البقاء طويلاً ، ثم رجع وتقهقر ، وعند

عودتهم اصطحبوا معهم البطريق (مارينا أبيا أوستافى) ، وأرادوا إجباره على الإسلام ، لكنه أبى فقتلوه .

بعد هذه الواقعة وجدنا العرب قد قاموا بغارات مكثفة على الأيريسى وأبخازيا ، وكان سبب تلك الغارات هو إعادة اللاجئين ، الذين هربوا من أرمينيا وجورجيا إلى أبخازيا ، لأنها كانت الدولة الوحيدة الواقعة جنوب القوقاز التى لم تقع تحت الاحتلال العربى فى تلك الفترة ؛ حيث لجأ إليها الفارون من العرب كان الأبخاز يحمون هؤلاء الضعفاء ويخفونهم عن أعين العرب ، ووفقًا لما كتبه العالم (جافاك خيشلى) الذى يقول : " بدأ لجوء الفارين من جورجيا إلى الأيريسى وأبخازيا فى أثناء الحكم الإيرانى ؛ حيث كانت جبال أبخازيا مكانًا آمنًا بالنسبة لهم. وفى الفترات التى دخلت فيها القوقاز الشرقية تحت الحكم العربى ؛ فإن الفارين بسبب الدين أو الضرائب الباهظة ، كانوا يلجأون إلى أبخازيا فكان عدد اللاجئين هؤلاء فى تزايد مستمر " . وكما رأينا فبينما كانت أرمينيا وجورجيا الشرقية تحت الاحتلال العربى ؛ فقد أقرت قواعد ملكية الأرض وأسسها من قبل الحكام العرب ، والذى كان معمولاً به من قبل ؛ حيث كانت ظروف الحياة فى أبخازيا والأيريسى قد تحسنت إلى حد كبير بخلاف ما كانت عليه الدول الأخرى .

وعندما قويت الخلافة العباسية فى القرنين الثامن والتاسع الميلادى ، وجدنا أن الدول التى كانت تحت الاحتلال العربى قد ساءت أحوالها وكثرت مشكلاتها .

ووفقًا لما ذكره المؤرخ (صبانزده) أنه فى الأعوام الثمانين الأولى من القرن الثامن الميلادى ، قد لجأ (نرسه) حاكم جورجيا الهارب من العرب هو وعائلته وأصدقاؤه إلى الخزر ، ثم ذهب بعد ذلك إلى أبخازيا لثقته بهم ؛ حيث حلَّ ضيفًا على ملك الأبخاز فترة طويلة .

وبقدر ما نفهم من هذه المعلومات ، فإن الأبخاز والجورجيين كانت تربطهما علاقات حميمة .

وفى القرن التاسع أصبح الأبخاز فى حالة حرب مع العرب ، فى الفترة التى بدأت فيها الخلافة العباسية فى الضعف ؛ حيث أصبح الأمراء المحليون لايطيعون أوامر الخليفة .

وقد شاهدنا فى تلك الفترة أحد الأمراء العرب فى "تفليس" يشترك فى المساعى المبذولة لتوحيد الشعوب الجورجية ، التى كانت تحارب الأبخاز ، تلك الدولة التى – بعدما أصبح لها إدارة مستقلة ، وبعدما شعرت بالقوة – قامت بمحاربة العرب عدة مرات على أراضى جورجيا .

وفى عام ٨٥٣ م ، انشق الأمير العربى "إسحاق" الذى كان أمير "تفليس" على الخليفة العباسى ؛ ومن أجل أن يثنى الخليفة هذا الحاكم العربى عن قراره أرسل (بوغا أتوركا) إلى القوقاز على رأس جيش قوى ، إلا أن ملك الأبخاز قد وقف إلى جانب الأمير (إسحاق) ، أما طائفة البجرات الموجودة فى منطقة (تاوكلارجت) ؛ فقد وقفت إلى جانب "بوغا" .

ذهب ملك الأبخاز بجيشه إلى مكان يطلق عليه (كور تسخويى) لمواجهة العرب ، وعندما أحس بوغا أن فيودوس ملك الأبخاز ينتظره جعل جيشه تحت إمرة (تاو كلارجت) وأرسله إلى هناك .

قامت حرب ضارية بين التحالف العربى "تاو كلارجت" ضد الجيش الأبخازى ؛ وقد فقد الكثير من الجانبين أرواحهم فى تلك الحرب التى انتهت بانتصار التحالف العربى "تاوكلارجيت" ، وانسحب ملك الأبخاز مع جيشه إلى أبخازيا ، وفى أثناء انسحابه قتل العرب الأمير "إسحاق" أمير "تفليس" .

وعلى الرغم من انتصار جيش (بوغا) ، فإنهم لم يجدوا فى أنفسهم القوة للمسير صوب أبخازيا .

وفى القرن العاشر حدثت بعض المناوشات بين العرب والأبخاز ، ولكنها لم تصل إلى حد القتال ؛ حيث تطورت الأحداث على هذا النحو : ففى عام ٩١٤م ، أرسل

الأمراء العباسيون إلى القوقاز جيشًا كبيرًا بقيادة "أبى القاسم" ، لأنهم خافوا من ضياع جنوب شرق القوقاز من أيديهم ، مما كان سببًا لهروب الحاكم الأرمنى (سمباط) ، ولجوئه إلى إحدى القرى الجبلية فى أبخازيا .

وقد حكى هذا الحدث فى الأثر المسمى " مأساة جوبرون " على هذا النحو : لقد انتصر العرب ولم يجد الحاكم الأرمنى فى نفسه القوة على مواجهتهم ؛ حيث عقد صلحًا معهم ، ثم بعد ذلك هرب إلى جبال أبخازيا ، وعلى الرغم من ذلك لم ينج من الموت ؛ فقد وجده "أبو القاسم" ثم قتله شر قتلة .

وحسب فهمنا من هذا المصدر القديم فإن "أبا القاسم" قد سار بجيشه نحو أراضى أبخازيا ، وكان ملك أبخازيا آنذاك هو قسطنطين (٨٩٣ م – ٩٢٢م) ، الذى حاول توحيد الشعوب التى من أصل كرتفال تحت لوائه ؛ حيث كان يسعى من وراء ذلك إلى الاستيلاء على جورجيا وضمها إلى مملكة الأبخاز ، ولكى يمنع الفوضى اضطر للتصالح مع العرب ، وقام بتسليم "سمباط" إليهم .

كيف آل "سمباط" إلى العرب دون حرب ودون معرفة ملك الأبخاز؟ فوفقًا للمصادر التاريخية ؛ فإن العرب قتلوا "سمباط" فى المكان الذى وجدوه فيه ؛ فبعد أن قتلوه ، انسحبوا وعادوا دون حرب.

وكما أوضحنا بشكل مفصل آنفًا ، أن العرب والأبخاز قد التقوا وجهًا لوجه فيما بين القرنين السابع والعاشر الميلاديين لأسباب سياسية كثيرة ؛ حيث قامت بينهم معارك عديدة ، وأنه بسبب الإصرار والعناد الذى تتصف به شعوب هذه المنطقة ، وكذلك بسبب الأحداث السياسية المتلاحقة ؛ فإن العرب لم يستطيعوا فى أى وقت قط أن يؤسسوا حكومة عربية فى مملكة الأبخاز أو الأيريسى .

(ل) عودة مملكة الأبخاز إلى اتحاد مملكة الأبخاز واللاذ والجورجيين :

قامت حروب ضارية بين الأبخاز والأرمن فى بدايات القرن العاشر من أجل الاستيلاء على جورجيا ، وفى أثناء ذلك تزوجت ابنة الملك "قسطنطين الثالث" ملك الأبخاز بابن ملك الأرمن . وعندما سقطت مملكة الأرمن فى عام ٩٠٤م ، آلت جورجيا إلى مملكة الأبخاز ، وبعد ذلك قاموا بتقوية أوضاعهم ليس فى كارتفاليا وحدها بل فى كاهيتا وإيريت وجميع جنوب القوقاز .

وهناك وثيقة مهمة تدل على صدق ما قلناه وهى عبارة عن نقوش وكتابات على جدران كنيسة (صامويرى) ، التى لاتزال باقية فى مدينة (هاشورى) حتى وقتنا هذا ذكرت تلك النقوش أن ملك الأبخاز (قسطنطين) خلال العشرين عامًا من القرن العاشر قام بحفر قنوات وترع مائية فى تلك المنطقة ، أما النقوش الموجودة على جدران كنيسة (إريت) ؛ فتشير إلى الحروب التى قام بها الملك نفسه فى تلك المنطقة. وفى الشكل الذى رسمه مؤرخو عصر الملك (جورج الثانى) الذى اعتلى العرش بعد "قسطنطين" ملك أبخازيا ، نرى أن هذا الرجل كان بطلاً حقيقيًا كثير التدين يحب الخير للجميع ؛ فقد قام ببناء أسقفية ضخمة وكنيسة فى (شيكونديت) ، إلى جانب أنه قام بترميم الكنائس التى كانت موجودة هناك ؛ بحيث جعلها مركزًا ذا مهابة عظيمة .

وفى عام ٩٢٠م ، جعل "جورج الثانى" من ابنه قسطنطين الحاكم رقم خمسين على جورجيا التى كانت ضمن حدود مملكة الأبخاز آنذاك ، إلا أن "قسطنطين" لأنه لم يكن مقتنعًا بحكمه لهذه الدولة رأيناه يتطلع لأن يكون ملكًا على مملكة الأبخاز بدلاً من والده "جورج الثانى" ، وعندما لم ينجح فى تحقيق رغبته فر إلى قلعة (أوبليسخى) فى جورجيا واحتمى بها هو وأتباعه من النبلاء . لكنه لم يستطع أن يحمى نفسه من غضب والده ، الذى قام بمحاصرة القلعة وقبض على ابنه وفقأ عينيه ، ونصّب مكانه ابنًا آخر هو "ليون" .

وفى تلك الأثناء كانت هناك إمارة (تاوكلارجت) الواقعة جنوب مملكة الأبخاز ، وكانت تحت الحكم البيزنطى ، وكان "جورجن" حاكمًا لهذه الإمارة ، أما "آشوت قروبالات" فكان القائد الثانى لهذه الإمارة وكان صهرًا للملك "جورج الثانى" ملك الأبخاز ؛ حيث أرسل "جورج الثانى" صهره نحو جورجن بجيش كبير ، استطاع به أن يهزم جورجن فلجأ إلى "جورج الثانى" فقام بقتله ، وقام بتقسيم هذه الإمارة إلى ثلاثة أقسام بعد موت جورجن ؛ حيث ضم أحد هذه الأجزاء إلى مملكة الأبخاز . وقبل عامين من وفاة "جورج الثانى" حاول فتح مدينة كاهيتا ، إلا أنه قد وافاه الأجل قبل تحقيقه هدفه .

خلف "جورج الثانى" فى الحكم ابنه (ليون الثالث) الذى بمجرد أن صار ملكًا بعد أبيه قام بجهود مضنية لتحقيق سيطرته على البلاد ، وقد قال أحد المؤرخين : " إن الله قد منح هذا الملك القوة والشهرة مثل أبيه تمامًا ".

قام الملك "ليون" ببناء كنيسة كبيرة فى (ميوك) ، كما شيد أسقفية "قافدراس" ، أما كنيسة (كوموردا) التى شيدت عام ٩٦٤م ؛ فمكتوب فى سجلاتها أنها شيدت فى عهد "ليون الثانى" فى شرق (فارصنيا).

وفى تلك الفترة كانت هناك مدينة باسم (أهيكليك) ، تقع على الحدود الجنوبية الشرقية لملكة الأبخاز .

فى هذه الأثناء توفيت شقيقة الملك "ليون" التى كانت زوجة حاكم كاهتيا ، وبعدما لم تستطع السلطة الحاكمة فى كاهيتا أن تملأ الفراغ ، وتسيطر على زمام الأمور دخل "ليون" كاهيتا بجيش كبير متخطيًا نهر "آجارفى" ، لكنه سقط فريسة المرض ، ومات قبل تحقيق هدفه .

جاء (ديمترى الثانى) خلفًا لـ (ليون الثالث) وفور أن اعتلى العرش شرع فى قتال (فيودوس) ابن الملك جورج الذى كان يسانده الإقطاعيون والجورجيون ، وبعث (ديمترى) برسالة إلى قائد (كاهيتا) ؛ حيث طلب منه أن يفسح فرصة للتفاهم بينه وبين (فيودوس) ؛ حيث عرض عليه أن يحكما سويًا أبخازيا ، وفرح "فيودوس" بهذا

العرض ، ثم ذهب إلى أخيه "ديمترى" الذى خانه وفعل به مثلما فعل والده بأخيه من قبل ؛ حيث فقأ عينيه .

آل الحكم إلى (فيودوس الأعمى) بعد وفاة أخيه "ديمترى" ، وكان عهده عهد اضطرابات وفوضى فى مملكة الأبخاز.

انتهز شعب الكاهيت الفرصة ، وقاموا بالهجوم على كارتفاليا ؛ حيث هرع حاكم كارتفاليا (يوان مورشيدزه) لطلب المساعدة من (داودكروبلات) أمير (تاوكلارجت) ضد الكاهيت ، ونتيجة لتلك المساعدات ؛ فقد أصبحت (جراندخت) شقيقة (فيودوس) الأعمى أميرة على جورجيا ؛ فهى ابنة "جورج الثانى" ملك أبخازيا وزوجة جورجن أمير ولاية (تاوكلارجت) فى عصر والدها ، وبعد فترة من حكم (فيودوس الأعمى) ، بدأ النظام المعارض فى مملكة الأبخاز بمحاولة لقلب نظام الحكم ؛ حيث أرسلوا فى طلب (باجرات) نجل (جراندخت) أميرة روسيا القيصرية ، لكى يحل محل (فيودوس الأعمى) .

كان الأمير (باجرات) من أصل جورجى من ناحية أبيه ، لذا فقد أطلق المؤرخون الجورجيون على فترة حكمه أنها" عصر مملكة الأبخاز والكارتفال" ، على أية حال فلم يكن قد تغير شيء فى نظام الدولة تقريبًا ؛ حيث استمر اسم مملكة الأبخاز فى المصادر الفارسية والعربية بهذا الاسم .

كان المؤرخ البيزنطى (جندروس) يطلق على ملوك جورجيا "ملوك الأورخون وأبازجيا ، والأباظجية" ، وكان لقب (تمارا) هو لقب تلك الملكة صاحبة الوجه المشرق فى تاريخ جورجيا ، والأبخاز والران والكاهيت والسوميت .

اعتلى (داود الثانى) عرش مملكة أبخازيا عام ١٠٨٩م ، ولكنه فى عام ١١١٣م وحتى عام ١١٢٠م ، بدأ إدارة البلاد التى احتلها حديثًا تاركًا مملكة أبخازيا إلى فرع آخر من فروع الأسرة الملكية .

كـانت الـعـائلة التى اعـتلت عـرش هـذه الدولة الجـديدة ، التى هـى عـبـارة عن أبخـازيا الـــوسـطـى هـــى فرع من البجراتيين الأبخاز ، الذين ينتمون إلى باجرات من ناحـيـة الأب وإلى الأبخـاز من ناحـيـة الأم ، وهـؤلاء وفـقًـا لأثر (مت عـزت) الذى بعنوان "القوقـاز القديمـة" ، قـد اعتلوا العـرش فى عـام ١١١٣م ، أمـا من وجـهـة نظر الكاتب الكبـيـر "مـحـمـد فـؤاد كـوبريلى" ؛ فـإنهم قـد اعـتلوا العـرش عـام ١١٢٠م ، واستمرت هذه العائلة فى حكم أبخازيا حتى شهر يوليو من عام ١٨٦٤م بحكومة قـوية أحيانـًا ، ضعيفة أحيانًا أخـرى ، مسـتـخــدمـــة اسـم (جـاجـيبا) بالأبخـــازيـة و(شرواشيدزه) بالجورجية .

يعد علم مملكة أبخازيا أحد أعلام الدول الثمانى والخمسين الموجودة فى خريطة قام بتصميمها العالم " جوهاس دى فيلاتس " عام ١٤٢٨م ، وهى عبارة عن صورة سيدة ممدة (مستلقية) على أرض حمراء .

وإذا نظرنا إلى كتـاب الشاعـر الشـعـبى الشـهـير"داده قورقـود" نجد كثـيـرًا من الشواهد التى توضح عداوة الآباظية وأروام طربزون للمسلمين ، كما نجد أيضًا بطلاً يلقى معاملة سيئة من شعبه ، فيذهب إلى الآباظية ممسكًا فى يده سيفًا ذهبيًا ؛ حيث كان يُقبل يد رجل يرتدى الملابس البيضاء .

وفى خطاب كتبه إمبراطور طرابزون عـام ١٤٥٩م ، يفيد بأن حـاكم آباظية يمتلك جيشًا يزيد عن ثلاثين ألف جندى .

احتل العثمانيون مدينتى " صـوخوم " و " أبخـازيا " عام ١٥٧٨م ؛ حيث استمر هذا الاحتلال مايقرب من ثلاثمائة سنة .

وفى عـام ١٨١٠م ، احـتل الروس مـدينة " صـوخـوم " وأصـبـحت تحت السيطرة الروسية ، ولكن الروس لم يستطعوا القضاء على المقاومة الأبخازية التى استمرت حتى عام ١٨٦٤م ، وهو تاريخ الحروب الروسية القوقازية .

كانت الجبهة الأخيرة للحروب الروسية القوقازية هى أراضى (آخجيبس وأيبغا) وهما من قبائل الأبخاز ؛ فبسقوط هاتين الجبهتين تكون قد وصلت الحروب القوقازية إلى نهايتها .

كانت نتيجة هزيمة شعوب القوقاز أن مضى الأبخاز إلى السجن الروسى مثلما حدث للشعب الأديغى من قبله ، أما آباظية أبخازيا الغربية الذين ظلوا بين نهر (بزيب) ودولة الأوبيخ ؛ فقد هاجروا جميعًا فى عام ١٨٦٤م إلى الأراضى العثمانية ، ونتيجة للفساد الاجتماعى الذى سببه الإصلاح الزراعى المطبق عام ١٨٦٦م ، عاش الشعب مأساة الهجرة للمرة الثانية ؛ حيث أجبروا على ترك منطقة تزابال الجبلية فى أبخازيا .

إن هذا الشعب الذى فقد أكثر من نصفه لا يمكن بأى حال من الأحوال إطفاء حب الاستقلال فى قلبه ؛ ففى أثناء الحروب العثمانية الروسية عام (١٨٧٧م - ١٨٧٨م) ، تمردت على الروس وحدة فدائية مكونة من ألف ومائتى فدائى أبخازى كانوا قد هاجروا من قبل إلى الأناضول ، وعندما علموا أن العثمانيين الذين كانوا قد وعدوهم بالمساعدة فى حركة الاستقلال التى استمرت قرابة أربعة شهور ، لن يساعدوهم تركوا مقاومتهم بعدما ظلوا وحدهم ، وعاشوا فى منفاهم الأخير ؛ حيث مضى إلى الأناضول مايقرب من ثلاثين ألف أبخازى ليعيشوا فيها هجرتهم الأخيرة.

وبعد مأساة الهجرة الأخيرة عام ١٨٧٨م ، رأينا بداية الاستيطان المكثف من قبل الروس والجورجيين والأرمن لأراضى أبخازيا ؛ فالأراضى الخصبة المثمرة لأبخازيا التى أُخليت نتيجة للمنفى ، بدأت تمتلئ من قبل المهاجرين الذين تدفقوا إليها من أربع جهات ، لاسيما الجورجيون الذين لم يرغبوا فى أن يطأ شخص آخر غيرهم هذه الأراضى الخصبة .

وعلى الرغم من كل هذا ، وطبقًا لأول إحصاء رسمى بعد الهجرة ؛ فإن الآباظية يمثلون ٨٨ ٪ من سكان أبخازيا فى عام ١٨٦٦م ، فالمثقفون الجورجيون والنبلاء ذهبوا إلى أبخازيا من أجل امتلاك أراضى الأبخاز ؛ حيث قاموا بمناداة

الشعب الجورجي لكي يأتوا ويستوطنوا في أبخازيا ؛ فكان لهم السبق قبل الروس في هذا الصدد .

وعلى الرغم من أن هذا الطلب (النداء) لم يلق الاستجابة اللازمة في البداية ، فإن الجورجيين (المتشويك) عندما استولوا على أبخازيا بمساعدة الألمان اكتسبت هجرتهم كثافة لا نظير لها ؛ ونتيجة لسياسة الاستيطان المنظمة هذه وجدنا أنه في عام ١٩٢٦م ، بلغ عدد الأبخاز في أبخازيا ٥٥٠,٩١٠ نسمة ، بينما وصل عدد الجورجيين ٦٧٤٩٤ نسمة ، ويرجع هذا إلى محاولة الحكومة الجورجية إجبار الأبخاز على معرفة اللغة الجورجية ، لاسيما منطقة " صامير زاقان " الواقعة في غرب أبخازيا ، وكذلك تسجيل هؤلاء الأبخاز في السجلات على أنهم جورجيون وليسوا هم أهل البلد ؛ لطمث هويتهم .

انضم الأبخاز إلى جمهورية شمال القوقاز التي أسست عام ١٩١٨م ، ولكن لقصر عمر هذه الجمهورية ؛ فإنه في عام ١٩٢١م ، أسسوا جمهورية أبخازيا السوفيتية وفي عام ١٩٣١م ، وبناء على رغبة "ستالين" ، ألغي الدستور الأبخازي ، وأصبحت جمهورية مستقلة تابعة لجورجيا ، بعد ذلك تدخل أبخازيا مرحلة جديدة مع (باريا) قائد الشرطة في عهد "ستالين" ؛ حيث قام هذا الرجل بحملة واسعة من أجل القضاء تمامًا على الأبخاز ، ومحوهم من الوجود ؛ حيث كانت فترة كل من "ستالين" و"باريا" من أصعب فترات التاريخ بالنسبة للأبخاز حتى الحرب العالمية الثانية أو حتى موت هاتين الشخصيتين "ستالين" و"باريا" .

أغلقت حكومة "ستالين" جميع المدارس التي كانت اللغة الأبخازية هي لغة التعليم بها ، وقاموا بتشكيل نظام تعليمي جديد تحت اسم " إعادة التنظيم أو التشكيل " ، ولذلك فقد اضطر الطلاب إلى الالتحاق بالمدارس الجورجية أو الروسية ولم تكتف هذه الحكومة بهذا ، بل قامت بإيقاف بث الإذاعة الأبخازية ، وكذلك منع نشر المجلات والصحف الأبخازية أيضًا .

وقد استمرت الأفواج الجورجية فى التدفق على أبخازيا فى هذه الفترة ؛ حيث تم منح الفلاحين الجورجيين أراضى زراعية ، لتوطينهم فى هذه البلاد ، وفى عام١٩٥٣م انتهت سياسة الصهر والإذابة التى قام بها "باريا" صراحة تجاه الأبخاز ؛ حيث أعيد فتح مدارس الأبخاز مرة ثانية ، كما أعيد البث الإذاعى والنشر الصحفى إلى حالته الطبيعية ، إلا أن سياسة الإذابة الجورجية هذه داخل مجتمع الأبخاز قد استمرت كما هى .

وفى عام ١٩٧٨م ، كتب مائة وثلاثون شخصًا من أعيان الأبخاز خطابًا إلى اللجنة المركزية للاتحاد السوفيتى من أجل الاعتراض على ما قامت به جورجيا فى حق الجمهوريات المستقلة ، وكذلك من أجل الاحتجاج على القوانين التى أحدثت تفاوتًا بين طبقات المجتمع .

فقد كان لهذه الاحتجاجات أسباب أخرى ، وهى إبعاد هؤلاء المثقفين أصحاب التوقيع عن وظائفهم ، على إثر هذا رأينا عشرات الآلاف من المتظاهرين يتظاهرون فى مدينة (لخينى) العاصمة التاريخية للأبخاز ، إلا أن هذه المظاهرات قد أخمدت عن طريق المقابلات واللقاءات دون أن تحقق أهدافها .

وفى عام ١٩٨٩م ، قامت جورجيا ببعض الأعمال التى تساير التطورات التى حدثت فى الحزب الشيوعى السوفيتى ؛ حيث بدأت بحملات مكثفة للإساءة إلى الأنجاز والتحقير من شأنهم ، مستخدمة فى ذلك كل وسائل الإعلام السمعية والمرئية ، ولكن كل هذه الأعمال باءت بالفشل ؛ حيث حصل الأبخاز على استقلالهم عن جورجيا فى ٢٥ أغسطس من عام ١٩٩٠م .

(ى) اللغة الأبخازية :

تضم مجموعة لغات شمال غرب القوقاز : اللغة الأبخازية (الآباظية) والأوبيخية والأديغية .

وتنقسم اللغة الأبخازية إلى ثلاثة فروع رئيسية ؛ حيث إن اثنين منها فى شمال جبال القوقاز وواحدة فى جنوبها ، ويمكننا تسمية اللهجتين الموجودتين فى الشمال :

١ – لهجة أشووا .

٢ – لهجة أشخاروا .

ففى شمال القوقاز يتحدث بها أربعون ألفًا ، كما يتحدث بها ثلاثون ألفًا فى تركيا وسوريا ، فيكون مجموع مَنْ يتحدثون بها سبعين ألفًا ، كذلك هناك لهجة أبخازية فى جنوب القوقاز يطلق عليها لهجة "الأبسووا" ؛ حيث يبلغ عدد المتحدثين بها فى جمهورية أبخازيا نحو ١٠٥٠٠٠ نسمة ، وفى تركيا ٣٠٠٠٠٠ نسمة ، وفى بلاد مثل سوريا وبلاد الشام نحو ٥٠٠٠٠ نسمة تقريبًا ، وعلى هذا يصبح مجموع مَنْ يتكلم بهاتين اللهجتين نحو ٤٥٥٠٠٠ نسمة .

ويتراوح عدد الأبخاز الذين يعيشون فى أرجاء العالم حتى اليوم من ٥٠٠ إلى ٥٥٠ألف نسمة ، ولكن هذا العدد لم يكن مؤكدًا بشكل قاطع .

بدأ استخدام الكتابة فى اللغة الأبخازية فى نهاية القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين ؛ فهى لغة من الصعب الكتابة والتحدث بها ، إلا أنها لغة غنية تتكون من أربعة وستين حرفًا فى عصرنا الحاضر .

وقد أظهرت أبحاث العالم الروسى " تورجانينوف" أن الشعب الأبخازى أو الآباظى ، هو صاحب أقدم لغة مكتوبة بين شعوب الاتحاد السوفيتى القديمة ؛ فهم أصحاب أبجدية أبخازية منذ عام ٢٠٠٠ ق.م ، وقد أثبت هذا من خلال نقوش القوبان والكولخيد .

(٢) الأديغــه

(أ) تاريخ الأديغه :

كما ذكرنا فى بدايات كتابنا هذا أن شعب الأديغه من الشعوب التى تدخل ضمن التعريف الثالث للشراكسة ؛ فكثير من الباحثين استخدموا اسم الشراكسة على أنه يشمل هذه الشعوب جميعًا . وفى الحقيقة فإن الأديغه هم الشعب الذى أطلق عليه اليونانيون قديمًا اسم "خرختاى" ، وبلادهم هى المناطق الجبلية الواقعة بالقرب من سواحل البحر الأسود وبحر الآزاق فى القوقاز .

ومثلما لم يوجد ولو دليل صغير يظهر من أى مكان جاءوا إلى القوقاز ؛ فإنه لايمكن أيضًا إثبات قرابتهم أو صلتهم بأى شعب خارج بلاد القوقاز ، ولكن من المعروف أنهم قد أقاموا جنبًا إلى جنب على سواحل البحر الأسود فى القوقاز مع الأبخاز ، الذين هم أقرب المقربين لهم فى القرن السادس قبل الميلاد .

وإذا وضعنا نصب أعيننا تكرار أسماء نهرى الدون والقوبان والبحر الأسود وبحر الآزاق فى أقدم المدائح والأساطير الأديغية ، يمكننا أن نعرف الحدود الشمالية لبلاد الشراكسة .

وقد أظهرت المصادر الروسية فى القرنين الحادى عشر والثانى عشر الميلاديين أن الأديغه كانوا جيرانًا لملكة التامان "طرخان" ؛ وفى وقتنا الحاضر تظهر المصادر أيضًا وجود مدن متعلقة بالشركس فى دولة أوكرانيا ، كما توضح هذه المصادر أيضًا كون هؤلاء الأقوام قد انتشروا حتى أقاصى الشمال ، وأن انحدار الأديغه نحو الجنوب كان فى الفترة مابين القرنين الثانى عشر والخامس عشر الميلاديين .

ووفقًا لما قاله المؤرخ الإيطالى "إنتريانو جورجيو" عن الأديغه ، الذى تجول فى بلاد القوقاز فى النصف الأول من القرن الخامس عشر ، أن حدود الأديغه الشمالية هى شواطئ نهر الدون ، وأنهم عاشوا جنبًا إلى جنب مع الأبخاز على السواحل الشرقية للبحر الأسود ، وكذلك كانوا جيرانًا للتتار .

وبينما كان الرحالة التركى "أوليا جلبى" يعبر بلاد القرم إلى القوقاز فى أواسط القرن السابع عشر ، وجد الشركس يسكنون شبه جزيرة "تامان" .

وقد عرف هذا الرحالة هذه المنطقة الممتدة حتى نهر قوبان والمليئة بأتراك النوجاى ، كما رأيناه يذكر بلاد الشركس على أنها الأديغه أو الولايات الآباظية ، وأن موطن هذه الولايات بين جبال البروس ونهر القوبان ، وتمتد حتى شواطئ البحر الأسود الشرقية . ويستطرد هذا الرحالة أيضًا بأن الحدود الغربية لهذه المنطقة تمتد حتى بلاد الشيشان وداغيستان ، وهكذا نرى أن الأديغه وحتى القرن الثامن عشر يغطون مساحة جغرافية واسعة ، وأنهم ما زالوا يسيطرون على الأراضى نفسها التى كانوا يسيطرون عليها فى القرن الثامن عشر .

ووفقًا لما جاء فى الأثر المسمى "بازارجيق" والمكتوب عام ١٩٣٣م ، "أن الشراكسة هم عبارة عن قبائل يعرفون بأسماء متعددة ، إلا أنهم بصفة عامة قد اشتهروا بأسماء مثل الشراكسة والآباظية ؛ فقبل استيلاء الحاكم جوجى عليهم كانوا ينتشرون فى مساحات واسعة ؛ حيث كانوا قومًا رحل ، ولكن بعد ذلك وجدنا المغول يضيقون عليهم الخناق ويحصرونهم فى جبال القوقاز ؛ حيث أدى هذا إلى تقلصهم وقلة عددهم".

ظهر الشراكسة على الخريطة السياسية التى رسمها الباحث الإنجليزى الذى عاش بين الأديغه فى القرن التاسع عشر فى أثره الذى يتعلق بالشراكسة ؛ حيث قال : " إن حدودهم تضم جميع السواحل الشرقية للبحر الأسود ؛ فمن ناحية الشمال شبه جزيرة تامان وبحر الآزاق ومن الجنوب ميجر يليا ، إلا أن حدود الشراكسة لم تكن هى حدود شعب الأديغه نفسها فقط ولكنها حدود مشتركة بين شعوب الأبخاز والأديغه والأوبيخ" .

تبدأ حدود الأديغه من شبه جزيرة تامان على شواطئ البحر الأسود ، وتمتد حتى مدينة "صوجى" التى تعتبر ضمن أراضى الأوبيخ والآباظية .

وعلى الرغم من أننا قد وضحنا حدود الأديغه بهذه الصورة ، فإنه ليس لدينا وضوح تام يتعلق بسكان الأديغه ، ويرجع ذلك إلى أن هذا الشعب يعيش جنبًا إلى جنب مع شعبى الأبخاز والأوبيخ ؛ حيث يرتبط معهما بعلاقات وطيدة من الناحية السياسية والثقافية .

ولذلك فإن كثيرًا من الباحثين قد وجدوا صعوبة عندما حاولوا التفريق بينهم ، وعلى الرغم من ذلك فقد خرجت بعض البحوث على نحو ما نجد مثلاً عند الكاتب التركى "شمس الدين سامى" فى معجمه الشهير قاموس الأعلام" الذى يقول : بأن عددهم قد بلغ على سبيل التخمين مليونًا ، أما اللورد "بونصوى" الذى كان سفيرًا لإنجلترا فى إستانبول ؛ فقد أرسل عام ١٨٣٤م ، رسالة إلى لندن تقول بأن عددهم من أربعة إلى ستة ملايين نسمة .

أما المصادر الروسية فقد ذكرت أن عدد سكان الشراكسة الذكور فى عام ١٨٥٨م يقترب من ٣٥٠ ألف نسمة ، أما فرع الأديغه (الصابصيغ) ؛ فعددهم ما يقرب من ٣٠٠ ألف نسمة ، أما المصادر الشركسية فتقول إن عدد سكان الشراكسة قبل المنفى فى القوقاز كان حوالى ثلاثة ملايين نسمة .

فروع الشراكسة الأديغه وفقًا لما ذكره "لولييه" مندوب الحكومة الروسية فى القرن التاسع عشر :

(١) الأبخاز. (٢) صابصيغ. (٣) ناطاقاج أو (ناطوقاى).

(٤) قبارطاى. (٥) بسلناى. (٦) ماخوش.

(٧) كمخوى . (٨) خاطوقاى.

(٩) بجيدوج. (١٠) ظان.

وقد ذكر "لولييه" أيضًا أن هناك فروعًا وقبائل أخرى للشراكسة من أمثال جوبان وهجايق وهتكوك ، ولكنها ذابت وانصهرت أو قضى عليها بسبب الحروب المتكررة .

فالشراكسة طوال عصور التاريخ رأيناهم قد ارتبطوا بعلاقات مع الإغريق والإسكيت والرومان والبيزنطيين والآوار والخزر والقبجاق والقرميين والعرب والفرس والعثمانيين والجورجيين وكذلك شعوب أوروبا الشرقية ؛ وكذلك وجدناهم أيضًا فى القرنين الحادى عشر والثانى عشر قد ارتبطوا بعلاقات قوية مع أوروبا الغربية ، ولكن مع الأسف فإن جانبًا من هذه العلاقات قد زال وانمحى ، أما الجانب الآخر فقد ترك بصمات عميقة فى تاريخ هذا الشعب استمرت بعد ذلك قرونًا عديدة ؛ فأول علاقة ربطتهم باليونانيين تأسست على الشواطئ الشمالية للبحر الأسود فيما بين القرنين الثامن والخامس ق.م ؛ وهذه العلاقة قد ازدادت وتطورت فى القرن الخامس فى فترة المستعمرات التجارية أمثال مستعمرة بأنتيقابى ، وديوسكورى (صوخوم) وكنائيس التى كانت كل منها عاصمة لمملكة "البسفور" .

فالمؤرخ "سجيلاكس" الذى عاش فى هذا العصر كان يطلق على الأديغه اسم "كركتس"، أما المؤرخان "سترابون" "وبلينوس" اللذان عاشا فى الفترة التى جاءت بعد ذلك فكانا يطلقان على مَنْ كانوا يعيشون فى هذه المنطقة اسم " سيراكس " أو " كركسته" ، أما العرب بعدما ظهر ثقلهم فى القوقاز فى القرن الثامن الميلادى ؛ فكانوا يطلقون على الشركستان اسم " كافرستان " ، أما الآباظية فى هذه التواريخ ؛ فقد كانوا أقوى دولة فى هذه المنطقة وكان يطلق عليهم اسم "مملكة أبخازيا" ، أما شعوب الشراكسة الأخرى ؛ فكانوا ضمن حدود مملكة الخزر القوية ، التى كان ينضوى تحت لوائها بلاد شمال القوقاز مما كان له أثره فى إضفاء الاستقرار والأمن على شعوب هذه المنطقة ، إلى جانب أن مملكة الخزر كانت أكبر حليف لمملكة الأبخاز ؛ "فليون الثانى" الذى كان أول ملك للأبخاز كانت أمه أميرة خزرية.

إن انهيار مملكة الخزر نتيجة ضغط المهاجرين الجدد الذين كانوا يأتون من آسيا الوسطى ، وبانهيار الإمبراطورية العربية ، تحقق ما يصبو إليه البيزنطيون فى هذه المنطقة وبخاصة الأوروبيين ؛ فمثلاً عندما سمح لتجار جنوه وفينيسيا بالمرور عبر

البحر الأسود ، قاموا بتأسيس مركز تجارى مهم فى مدينة (كفة) التى أنشئت على سواحل القرم؛ حيث أقام الفينيسيون فى الأراضى التى كانت توجد فيها العاصمة القديمة (بانتيقابيا) ، كما كان الفينيسيون والجنويون النازحون إلى هناك يقيمون معًا فى منطقة (أزاق) ، وكذلك كان الجنويون أيضًا يقيمون على شواطئ دولة الشراكسة (الأديغه) و (الأبخاز) ؛ حيث أنشأوا هناك مستعمرات تجارية عند مصب نهر قوبان وخليج آختار بالقرب من مدينة (عنابة) الحالية ، وكذلك بجوار مدينة "صوخوم" الأبخازية.

كانت مدن (باتا) الواقعة عند خليج آختار وكذلك مدينة (قباريو) الواقعة عند مصب نهر قوبان فى البحر ، و (قباريو) الواقعة بالقرب من مدينة "عنابة" عبارة عن مخازن ومستودعات سواء للتجارة المحلية أو من أجل الصادرات والواردات التجارية.

وقد ازدادت أهمية حركة مرور التجارة فى عهد إمبراطورية "جنكيزخان" ؛ ففى العصور الأولى لهذه الإمبراطورية القوية وجدنا البضائع التى كانت تأتى من الجهات الأربع للدولة فى ظل الطرق الممهدة والآمنة ، التى ربطت حدود الدولة بمركزها وجدناها كانت تأتى من الآزاق .

وفى هذا العصر اكتسبت تجارة الرقيق أهمية خاصة ، لاسيما الرقيق القبجاق والشراكسة، الذين كانوا يباعون فى الأسواق، ثم يقادون إلى الدولة البيزنطية ومصر وإسبانيا عن طريق تجار جنوه وفينيسيا .

ووفقًا للاتفاقية المعقودة بين سلطان مصر وإمبراطور بيزنطة عام ١٢٦٣م ؛ فقد سمح للسفن المصرية بالمرور فى البحر الأسود ؛ حيث استغل المصريون هذا الحق من أجل ممارسة تجارة الرقيق بحرية أكثر .

نجح هؤلاء الرقيق فى مصر فى تأسيس "دولة المماليك" فى الفترة الواقعة ما بين القرنين الرابع عشر والسادس عشر ، ولكن وجدنا من المؤرخين والباحثين من لا يقول بأن المماليك (الشراكسة) قامت دولتهم على الرقيق ، منهم على سبيل المثال المؤرخ "كاظم برزج" الذى لا يربط جذور المماليك المصريين بهؤلاء الرقيق ، ولا يؤمن بأن تأسيس

دولة المماليك فى مصر قد أقامها هؤلاء الرقيق ، ولكنهم من شعوب شمال القوقاز الأحرار الذين اضطرتهم الحروب لترك بلادهم نتيجة استيلاء المغول عليها ؛ فمماليك مصر من وجهة نظر هذا المؤرخ أيضًا حتى إذا كانوا قد أُحضروا إلى مصر عن طريق الالتقاط أو عن طريق شرائهم كعبيد ؛ فهم لا يرتبطون بروابط ثقافية .

من أجل هذا فإن مماليك مصر الشراكسة كانوا يرتبطون بأحاسيس بعيدة وغير عميقة للقوقاز ؛ وقد كانت تدب الخلافات فيما بينهم فى أحيان كثيرة عند اختيارهم حاكمًا من بينهم ، ولذلك كنا نجدهم يأتون بحكامهم من القوقاز ؛ فهذه النماذج فى الحقيقة هى مادة علمية يجب التدقيق فيها طويلاً .

لقد كنا نصادف فى الأسواق العثمانية فى كل وقت عبيدًا وجوارى ، كما كنا نصادف أيضًا عبيدًا فى منازل وقصور الأثرياء وكانوا بصفة خاصة من الأديغه والأباظية ، حتى إننا كنا نرى من هؤلاء العبيد مَنْ ارتقى منهم إلى منصب الوزير الأعظم أو رئيس الوزراء ، منهم على سبيل المثال "جركش محمد باشا" الذى كان وزيرًا أعظم فى القرن السابع عشر ، كما كان مليك أحمد باشا وسيواش باشا وسليمان باشا وخسرو محمد باشا وغيرهم.

لقد وجدنا الرحالة "أوليا جلبى" عند حديثه عن الرقيق يقول : "إنهم كانوا من الشراكسة المأسورين بسبب الحروب ، وكانوا يؤخذون إلى القصور العثمانية بصفة خاصة" ، ثم يستطرد هذا المؤرخ قائلاً " إن سبب زيادة الاهتمام بالعبيد الشراكسة بالتحديد هو ضعف الإمبراطورية العثمانية من ناحية ، ومن ناحية أخرى وقف تدفق الرقيق القادمين من أماكن أخرى ؛ ففى القرن التاسع عشر بسبب الاستعمار الروسى ، امتلأت الأراضى العثمانية بالعبيد الشراكسة، وفى الفترات الأخيرة للإمبراطورية العثمانية، خرجت من بين قصور السلاطين العثمانيين الكثير من سيدات السلاطين ، واللاتى كن يُطلق عليهن " والدة سلطان " مما يدل على أن بعض السلاطين العظام تزوجوا من هؤلاء الجوارى ؛ فأصبحن أمهات للأمراء فى تلك العهود" .

وفى النصف الأول من القرن الثالث عشر الميلادى رأينا جيوش المغول، وقد اخترقت دولة الأديغه وهى فى طريقها للاستيلاء على دولة "داغيستان" ؛ فهم على الرغم من مقاومة الأديغه لهم ، فقد استولوا على منطقة "طانا" ، كما استولوا على المستعمرات التجارية لجنوه الموجودة فى شبه جزيرة تامان على شاطئ بحر الآزاق .

وبعد هذا التاريخ وجدنا شعب الأديغه ، وقد بقى تحت حكم دولة "الآلتين أوردو" التى أنشأها المغول فى هذه المنطقة ؛ فعلاقاتهم كانت مبنية على أساس الصداقة ؛ حيث وجدنا أن أبناء أمراء دولة (الآلتين أوردو) كان الأديغه هم الذين يقومون على تربيتهم وتنشئتهم .

(ب) العلاقات الروسية الأديغية :

بدأت العلاقات الروسية الأديغية فى القرن العاشر الميلادى ، وسبب هذا أن كلا الطرفين قد ادعى أحقيته على إمارة (تامان) ؛ فأمراء الروس الذين كانوا يدعون الحق على هذه الإمارة ، قد اصطدموا بـ (ريداده) قائد الشراكسة .

وفى عام ١٠٢٢م، فاز "ميستسلاف" ابن "فلاديمير" أمير كييف بالمبارزة الثنائية ، التى عقدت بينه وبين "ريداده" قائد الأديغه ؛ حيث وجدنا هذا الأمير الفائز بعد هذا الحدث قد أقام فى مدينة "طامور طاقان" .

وفى عام ١٠٣٠م، حاصر الجيش الأديغى الذى كان قوامه ستة آلاف شخص قلعة "طامور طاقان" واستولى عليها ، ثم هدم هذه القلعة وانتقم من الأمير "ميستسلاف" لقائدهم "ريداده" .

وهناك بعض الآراء المتباينة حول هذا الموضوع منها على سبيل المثال : "الجنرال إسماعيل برقوق" فى أثره المسمى" القوقاز عبر التاريخ " ، الذى وصف مبارزة ريداده وميستسلاف قائلاً : "وافق ميستسلاف على منازلة ريداده وخرج البطلان إلى ساحة القتال ، وقام كل منهما بمنازلة الآخر ، وفى النهاية طرح ريداده ميستسلاف أرضاً ،

ثم صعد على صدره لكى يقتله إلا أن ميستسلاف المسيحى فى مواجهة هذا الوضع ، بدأ يطلب المدد من السيدة مريم ، وعندما أدرك ريداده أن ميستسلاف يدعو السيدة مريم ويتضرع إليها تركه وانتهت المبارزة على هذا النحو" .

أراد ميستسلاف لكى يستفيد من عظمة ريداده أن يقيم معه علاقة صداقة وقبل ريداده هذا العرض ؛ ووفقًا لما قاله الجنرال "إسماعيل برقوق" :" إنه بعد هذا الحدث صار ميستسلاف أميرًا على إمارة كييف بمساعدة ريداده" .

إلا أننا وجدنا بعد هذا الحدث أن الحروب قد نشبت بين الشراكسة والروس ؛ حيث وجدنا العشائر التركية التى استولت على أوروبا الشرقية ، بمساعدة أمراء كييف قد وقفت بجانب الشعب الروسى ؛ فهؤلاء الروس حينما استقروا فى موسكو وتحسنت أوضاعهم ، بعدما استفادوا من ضعف دولة (الآلتين أوردو) قد اصطدموا بدولة الأديغه من جديد .

وبعد القضاء على الإمبراطورية البيزنطية بواسطة العثمانيين تزوج حفيد قيصر موسكو من إحدى الأميرات البيزنطيات ؛ حيث تبنى شعار الدولة البيزنطية وهو النسر ذو الرأسين ، كما أعلن نفسه الوريث الشرعى للإمبراطورية البيزنطية ، كذلك تزوج إيفان الرابع أو إيفان المرعب (١٥٤٧م – ١٥٨٤م) بمريم ابنة تيموروك حاكم الشراكسة (الأديغه)؛ فإيفان هذا قد خرج حتى مصب نهر (تاراك) عن طريق بحر الخزر مستغلاً صلة القرابة التى تربطه بأصهاره الأديغه ، ثم بنى قلعة فى هذه المنطقة ، وعندما أدرك الشراكسة أن هذه القلعة هى إحدى الخطوات الأولى للروس الذين يتحفزون للاستيلاء على بلادهم ، قاموا بمواجهة هذا العمل ، بالقضاء على الجيش الروسى ، فى عهد كل من "فيودور" و"بوريس" "جودينوف" اللذين اعتليا عرش روسيا بعد وفاة إيفان الرابع . هذا الجيش الذى كان تحت قيادة كل من" فورستين" و"بوتورلين" . وبعد هذا الحدث خرجت العلاقات الأديغية الروسية من مرحلة الصداقة إلى مرحلة الحرب والعداء بكل ما تنطوى عليه الكلمة من معنى .

(جـ) العلاقات الأديغية العثمانية :

بينما وصلت العلاقات الروسية الأديغية إلى أسوأ مراحلها ، رأينا أن العثمانيين قد بدأوا مرحلة جديدة ؛ ففي عام ١٤٧٥م ، استولوا على مدينة (كفة) ومن بعدها استولوا على قلعتي (الآزاق) و (ميكوب) ، ثم بعد ذلك أزالوا مستعمرات فينيسيا المجاورة لهذه القلاع . ونتيجة لهذه الأعمال العسكرية فرض العثمانيون حمايتهم على إمارة القرم أيضاً .

فالعثمانيون الذين هم جيران الأديغه أرادوا أن يربطوهم بالخلافة معنوياً ، معلنين إسلامهم طواعية ، دون إجبار أو إكراه ؛ وفي عام ١٧٠٧م ، قامت القوات العثمانية الأديغية بحملة عسكرية ضد الروس المتمركزين عند مصب نهر (تاراك) ، ولكن في عام ١٧١٧م، هجم الروس هذه المرة على الأديغه القويان .

وقّع العثمانيون والروس معاهدة بلجراد بسبب الحروب التي دارت بينهم في الفترة ما بين عامي (١٧٣٥م – ١٧٣٩م)، وانتهت بهزيمة الروس الساحقة، وقد حصل الشراكسة القبارتاي على استقلالهم بموجب هذه المعاهدة ، ولقد ازدادت العلاقات العثمانية الشركسية بعد هذه المعاهدة ، وقد أدى الانتشار الروسي المطرد إلى تقارب الشعبين العثماني والشركسي .

حروب الروس والشراكسة :

بدأ تدفق الروس بشكل منظم ومدروس في بدايات القرن الثامن عشر ؛ فقياصرة الروس الذين أرادوا الوصول إلى البحار الدافئة وإلى الهند دون أن يعترضهم أحد ، وضعوا نصب أعينهم الاستيلاء على القوقاز هدفًا من أهم أهدافهم السياسة ؛ فـ "بترو الأول" في سبيل تحقيق هذه الغاية وجدناه في عام ١٧٢٠م، وقد قام ببناء قرى ومدنًا روسية على سواحل نهر (تاراك)؛ فالروس الذين أجبروا على ترك بعض الأراضي التي كانوا قد استولوا عليها للفرس عام ١٧٣٥م، أرادوا أن يعوضوا هذه الخسارة عن طريق الاستيلاء على أراضي الشراكسة، ولهذا قاموا بمهاجمة شمال القوقاز ، ولكنهم انهزموا في هذه الحرب .

ووفقًا لمعاهدة "قاينارجة" التى كان نتيجتها وقف الحروب الروسية العثمانية التى استمرت منذ عام (١٧٦٨م) وحتى عام (١٧٧٤م)، وحصول دولة القرم على استقلالها : حيث استمر استقلال بلاد القرم ما يقرب من تسعة أعوام حتى احتلها الروس مرة ثانية، وقد كان الأديغه والنوجاى المتمركزون شمال نهر القوبان تابعين للقرم ، إلا أنهم استطاعوا أن يتخلصوا من هذه التبعية حيث لجأوا إلى الساحل الشمالى لنهر قوبان ، وقد ساعدتهم سهول ووديان شمال القوقاز والمعروفة بالنسبة لهم على بث الرعب فى قلوب الروس فى الفترة ما بين عامى (١٧٦٨م - ١٧٧٤م)، وقد أقامت الإمبراطورة (كاترين الثانية) بإقامة خطًا عسكريًا من منطقة الموزوق إلى بحر الآزاق وأطلقت عليه خط (موزوق - آزاق)، ثم وطنت المهاجرين الروس والقازاق فى أراضى الشراكسة والنوجاى الموجودة شمال هذه المنطقة.

وفى عام (١٧٧٦م)، أرسل إلى القوقاز الجنرال "بوتمكين" نيابة عن الإمبراطور ، الذى جعل مركز قيادته فى مدينة "يك آتارينجراد" الواقعة على نهر"قوما" ، وقد كثف هذا الجنرال من نشاطاته السياسية والعسكرية من أجل الاستيلاء على القوقاز ، ومن الممكن توضيح هذه النشاطات على النحو التالى :

١ - من أهم الأهداف الرئيسية للسياسة الروسية فى البداية هو الحد من مقاومة القوقاز الشماليين عن طريق الدعاية وقد أسست لهذا الغرض جبهتين رئيسيتين :

(أ) جبهة تاراك : وكان قائد هذه الجبهة الجنرال يعقوب .

حدود هذه الجبهة : مدن ألكساندر وسقايا ، وماريا وسقايا ، ويافيتر ونجرات مزدكيو آدريا سقايا.

(ب) جبهة القوبان : وكان قائد هذه الجبهة الجنرال صواروف.

وحدود هذه الجبهة : بلاد ألكساندر سكى وماريتمسكى وقوبين ونوفاتجريك .

وكنا نرى الجنرال بوتمكين يبحث عن سبب لكى يربط بلاد القرم بروسيا ، وكذلك بإجبار أهالى القزق على الاستيطان فى القوقاز حول نهر قوبان ، بعد القضاء على تمردهم فى حوض نهر دينيابير.

كذلك رأينا الشراكسة الذين لم يكن لهم أهمية لدى العثمانيين ، ولم يلفتوا أنظارهم من قبل رأيناهم وقد لفتوا أنظارهم ، لا سيما فى عهد السلطان "عبد الحميد الأول" ، بعدما بدأ الروس فى الاستيطان فى جورجيا وداغيستان والقوبان والتامان ؛ فالعثمانيون تجاه الانتشار الروسى قرروا إقامة حائط من الشركس بغرض حماية أراضيهم ؛ لأن الشراكسة استطاعوا أن يؤسسوا جيشًا قوامه ثمانون ألف شخص جاهزين للقتال عندما تقتضى الضرورة .

وفى عام ١٧٨١م، أرسل العثمانيون "فروح على باشا" القوقازى الأصل ، الذى كان معروفًا بالتدين والأخلاق الحميدة ، أرسلوه لإقامة علاقات طيبة مع الشراكسة ودعوتهم إلى الإسلام .

كان أول عمل قام به "فروح باشا" هذا هو تجديد قلعة "صوغوجق" ، ثم ميناء كليجيك وعنابة ، ثم قام بعد ذلك بإقامة علاقات قوية مع "الشراكسة" ، إلا أنه استدعى إلى إستانبول من قبل حكومته قبل أن يكمل مساعيه وجهوده فى هذا الصدد ؛ حيث رأينا ربط الشراكسة بإستانبول قد ذهب أدراج الرياح ، كما نشبت الحروب بين الروس والشراكسة .

عبر الروس نهر "قوبان" ولأول مرة فى أثناء حربهم مع العثمانيين فى الفترة ما بين عامى (١٧٨٧م – ١٧٩١م)، إلا أنهم اضطروا للانسحاب مخلفين ورائهم خسائر فادحة .

أرسلت الدولة العثمانية "بطال حسين باشا" قائدًا لها فى الشركستان ، إلا أنه فضل الإقامة فى مدينة عنابة عن محاربة الروس ؛ فلما رأى الشراكسة ذلك اضطروا وحدهم لمحاربة الروس الذين هجموا عليهم كالجراد من كل صوب ، وعندما علم السلطان "سليم الثالث" بهذا ، أمر بطال حسين باشا بالتحرك من عنابة فى عام ١٧٩٠م، وعبور نهر قوبان ، والتوجه إلى منطقة "قابارتاى"، وضم القوات الشركسية المكونة من ثلاثين ألف مقاتل تحت قيادته ، إلا أن هذا القائد الضعيف بدلاً من أن يتقدم نحو الروس ويهاجمهم فى عقر دارهم بهذا الجيش الكبير ، قام بإرسال وحدات صغيرة ما لبثت أن هزمت واحدة تلو الأخرى .

من هنا بدأت المشكلات تدب بينه وبين الأمراء الشراكسة ؛ حيث رأينا فى هذه الفترة القوات الروسية تقترب شيئًا فشيئًا ، مما حدا بالأمراء الشراكسة إلى اللجوء للقوات الروسية ، كما رأينا الجيش العثمانى يجر أذياله نحو عنابة تحت حماية الشراكسة ، الذين اضطروا إلى البقاء بمفردهم فى مواجهة القوات الروسية.

وفى عام ١٧٩١م ، حاصر الروس عنابة التى ظلت تقاوم هذه القوات قرابة خمسة عشر يومًا ، وبعد ذلك سقطت هذه القلعة الشامخة فى أيدى الروس ، واضطر المدافعون عنها للانسحاب منها دون قتال.

وفى عام ١٧٩٢م، وافق الشراكسة على أن تكون منطقة نهر قوبان ضمن الحدود الروسية ؛ حيث أسرعت الحكومة الروسية بضم هذه الأراضى الجديدة التى احتلتها ، ثم قامت فى الوقت نفسه بتوطين القزق على الشاطئ الأيمن لنهر القوبان .

وفى عام ١٧٩٤م، قاموا بإنشاء مدينة (قرسنادور) فى الأراضى التابعة لقبيلة "بجادوج" الأديغية . كما قاموا كذلك بمحاصرة المنطقة التى استولوا عليها من نهر القوبان وحتى بحر الخزر بسلسلة من القلاع الحصينة .

قام الروس بمضاعفة جهودهم بعدما علموا أن "هرقل" ملك جورجيا قد سلم بالأمر الواقع وهو سيطرة الروس على هذه الأماكن ؛ فأرادوا اغتنام تلك الفرصة ؛ حيث كانت أغراضهم فى ذلك الوصول إلى إيران والأناضول والقضاء على عرش جورجيا ، من هنا كانوا محتاجين إلى طرق آمنة للوصول إلى جورجيا ، الذى لم يكن أمرًا سهلاً بسبب وجود الشراكسة والداغيستان ، لذلك وجدوا من الضرورى الاستيلاء على ممر (داريال) ، الذى سيحقق لهم النزول من جبال شمال القوقاز إلى الجنوب ؛ فإذا استطاعوا الاستيلاء على هذا الممر بواسطة الطريق العسكرى الجديد ، الذى يمتد من منطقة "لابا" وحتى بحر الخزر، فسيكونون بذلك قد حققوا سلامة الطريق الذى سبق وأن أشرنا إليه آنفًا؛ إلى جانب أنهم سيستطيعون أيضًا أن يفرقوا بين شراكسة قبارتاى وشراكسة داغيستان "اللزجى ، آوار ، الشيشان" ؛ فكم كانت حسابات الروس فى هذا الصدد دقيقة للغاية ! لأنهم كانوا يعلمون جيدًا مقاومة الشيخ شامل فى الداغيستان فى الأعوام الأخيرة ، ذلك المجاهد الذى كبَّدَ الروس خسائر كثيرة ، كانوا قد حققوها من قبل .

وفى عام ١٨٠١م، وفى عهد الإمبراطور "باول الأول" ضم الروس إليهم دولة جورجيا. وفى عام ١٨٠٢م، احتل ميجرلستان وفى عام ١٨٠٤م ، احتل أيضًا أيميريتيا وجوريا ، وقد استطاع الروس الانتشار سريعًا فى جنوب القوقاز ؛ حيث احتلوا مدينة "صوخوم" عاصمة الآباظية عام ١٨١٠م . وعلى هذا وجدنا الروس قد حاصروا شمال القوقاز من أربع جهات ، وقطعوا على الشراكسة علاقتهم بالبحر الأسود ؛ وكان هذا يمثل أهمية كبيرة من أجل الروس ، الذين أرادوا بفعلهم هذا مراقبة البحر الأسود مراقبة جيدة ، لمنع المساعدات التى ستأتى من الخارج إلى الشراكسة ، ولهذا وجدناهم قد احتلوا أيضًا مدينة "جاجرا" الآباظية عام ١٨٣٠م .

وفى عام ١٨٣١م، قاموا ببناء قلعة "كلينجيك" على شاطئ البحر الأسود ، وفى عام ١٨٣٧م ، كانت القوات الروسية تتفقد سواحل البحر الأسود ؛ حيث أعجبها المكان الذى يصب فيه نهر "صوجى"؛ فأنشأت قلعة (نوفاجين) عند هذا المصب ، وكان هذا فى عام ١٨٣٨م ، وكذلك وجدنا جيشًا روسيًا آخر أنشأ قلعة (فاليامين) عند منبع نهر "طوابسة" ، وقلعة (تبخين) عند منبع نهر "صابصوغو" ، كما أنشئت قلعة حصينة عند منبع نهر "جاماز" أطلق عليها قلعة "نوفوروسيك" بدلاً من قلعة "صوغوجق" القديمة ؛ فهذه القلاع الواقعة على شواطئ البحر الأسود والتى تمتد من منبع نهر قوبان وحتى حدود ميجرلستان ، ربطت فى مايو من عام ١٨٣٨م بإدارة خاصة أسست تحت اسم "الخط الساحلى للبحر الأسود" . إن هذه القلاع الحصينة التى أنشأها الروس طوال نصف قرن من الزمان ، لم تستطع الصمود عامًا واحدًا فى مواجهة الهجمات الشديدة للشراكسة عام ١٨٤٠م ، الذين استطاعوا الاستيلاء عليها واحدة تلو الأخرى.

كان نتيجة الهزائم التى واجهتها الدولة العثمانية ، لاسيما فى بلاد البلقان، تراجعها عن حق الادعاء فى امتلاك القوقاز بموجب معاهدة أدرنة عام ١٨٢٩م؛ حيث أصبحت القوقاز بموجب هذه المعاهدة أراضى روسية ، إلا أن الشراكسة لم يقابلوا هذه المعاهدة بسعادة بل قابلوها باستياء شديد .

لم يعتبر الشراكسة أنفسهم تابعين للعثمانيين ، لأن علاقتهم معًا ، سلكت سلوكًا مشتركًا تجاه عدو مشترك ، إلا أنه بموجب معاهدة أدرنة ١٨٢٩م ؛ ضحت الدولة العثمانية بهذا التحالف ، ساعية من وراء ذلك لحماية مصالحها الشخصية أمام الروس .

قام الشراكسة بكتابة مذكرة أيقظوا بها كلا الطرفين من الباب العالى فى إستانبول، وكذلك إنجلترا التى اتخذت على الفور التدابير اللازمة ؛ حيث رأينا "بونصوبى" قنصل إنجلترا فى إستانبول، قد تابع الأحداث الجارية فى القوقاز بدقة شديدة . وكان الشراكسة يوقظون إنجلترا دائمًا إذا ما حاولوا القيام بحرب قومية ، وكانت إنجلترا يعجبها هذا ؛ فمساندة الشراكسة ومساعدتهم كان من مصلحة إنجلترا .

وفى عام ١٨٣٠م، وبناء على رغبة اللورد (بونصوبى) وجدنا "داوود أورجورهارد" الذى كان يعمل مستشارًا آنذاك فى القنصلية الإنجليزية بإستانبول، قد التقى بممثل الشراكسة فى إستانبول (زانيكو سفربك) ؛ حيث حصل منه على المعلومات اللازمة حول الشراكسة ، إلى جانب خطابات توصية ، ثم ذهب إلى شركستان، وهناك مكث أسبوعين عاد بعدها صديقًا حميمًا للشراكسة ، ثم التقى بكل من (الكونت كارتيرسكى) و(الجنرال زاما أويكى) الممثلين عن مهاجرى بولونيا ، ثم كوَّنوا فرقًا فدائية من البولونيين الذين فروا من الجيش الروسى ولجأوا إلى الشراكسة ، بعد ذلك قام بنشر مقالات نارية مدح فيها الشراكسة فى مجلة (بورتفيلو) ، التى بدأت فى الصدور بعد عودتهم إلى إنجلترا .

وفى عام ١٨٣٦م، أرسل اللورد (بونصوبى) (ج – ستيورات) إلى الشركستان للعمل فى وظيفة مراسل صحفى لصحيفة (مورننج بوست) الإنجليزية . وهناك التقى بكل من (جـ. اس ، بيل ، وجـ . آلو نجورد ، وجـ . هودسون) ، الذين أقروا بأنه يجب على إنجلترا مساعدة الشراكسة . إلا أن الأسطول الروسى القابع فى البحر الأسود آنذاك حال دون وصول المساعدات الإنجليزية إلى الشراكسة ؛ فقد كانت هذه ضمن مهام هذا الأسطول الموجود على سواحل البحر الأسود، والتى أشرنا إليها فى الصفحات السابقة .

إن إنجلترا التى لم تكن تعرف المادة المتعلقة بمعاهدة أدرنة الخاصة بالشركس اعترفت رسمياً عام ١٨٣٧م باستقلال الشراكسة بناء على مذكرة قدمها رئيس وزراء إنجلترا آنذاك اللورد (بالميرستون) . وبهذا اكتسبت المشكلة الشركسية القومية بعداً جديداً ؛ حيث وجدنا الشيخ شامل يرسل نائبه محمد أمين إلى الشراكسة ؛ لكى يقوم ببعض التجديدات فى التشكيلات الشركسية؛ وفى عام ١٨٤١م ، طبقت ولأول مرة أسس الديمقراطية بين الشعوب الشركسية كالآباظجية والصابصيغ والأوبيخ وغيرها .

وفى مؤتمر (آداجوم) المنعقد عام ١٨٤٨م، انتخب الشراكسة "محمد أمين" ليكون حاكماً عليهم ؛ فإذا كنا قد وجدنا بعض نبلاء الشراكسة يحاولون إعاقة هذا الانتخاب، لكى يجعلوا (زانيكو سفربك) رئيساً بدلاً من محمد أمين ، فإن محاولاتهم قد باءت بالفشل.

وفى عام ١٨٥٤م، وفى أثناء حرب القرم أقام الشراكسة حلقة اتصال مع القوات العثمانية والإنجليزية والفرنسية ؛ حيث كانوا يجلبون السلاح والعتاد عن طريق مدينتى عنابة وصوخوم، ولكن فى عام ١٨٥٦م ، وفى معاهدة باريس حدث مثلما حدث فى معاهدة أدرنة من قبل ؛ فقد ضحى حلفاء الشراكسة بهم كما فعل العثمانيون من قبل ؛ حيث ضَحَّى الإنجليز والفرنسيون والعثمانيون بالقوقاز من أجل أن يمنعوا نزول الروس من البلقان إلى البحر الأبيض ، ونتيجة لهذا فقد وجدنا روسيا التى كانت تسيطر على جورجيا والجزء الشمالى من آزربيجان بعد أن انتهت الحرب ، تقوم بمهاجمة الشركستان بكامل قواتها وكان هجوماً كاسحًا ، هدمت فيه المدن والقرى على من فيها.

كانت القوات الروسية توطِّن الروس فى الأراضى التى كانوا يخلونها من الشراكسة ، مما جعل محمد أمين خليفة الشيخ شامل يضطر للتسليم للروس عام ١٨٥٩م، وعندما باءت كل محاولات تأسيس مجلس قومى بالفشل ، استمر الشراكسة فى عنادهم ومواجهاتهم للروس ولكن بشكل غير منظم ؛ حيث وجدنا شراكسة ناطوخاى قد سحقتهم القوات الروسية وأخرجتهم من بلادهم .

وفى الفترة ما بين عامى (١٨٦١م - ١٨٦٢م) أخليت الأراضى الواقعة بين نهرى لابا وبلا من الشراكسة تمامًا ، وفى الفترة ما بين عامى (١٨٦٢ - ١٨٦٣م)، اتجهت التحركات الروسية العسكرية إلى حوض نهر" بشال"، ومعنى هذا أنهم قد عقدوا النية للهجوم على الشراكسة الآباظجية، لأن هؤلاء الشراكسة الآباظجية والأوبيخ والصابصيغ قد حاربوا الروس ، ووقفوا فى مواجهتهم أكثر من عام ؛ ففى عام ١٨٦٤م ، استطاع الروس بعد اجتيازهم سلسلة جبال القوقاز الشاهقة أن يطردوا الشراكسة الصابصيغ ويبعدوهم عن ساحة القتال ، بعد ذلك توجهوا نحو الشراكسة الأوبيخ فى حوض نهر (ميزيمطة) وقاتلوهم قتالاً شرسًا ، ثم ساروا نحو شراكسة (الآضجيبس) و (الآيبجة) وآباظجية الجيجت ؛ حيث استولوا على صحراء قبادة عام ١٨٦٤م، وبذلك تكون قد وصلت الحروب الروسية الشركسية إلى نهايتها .

(د) الأديغه بعد الهجرة عام ١٨٦٤م :

عندما زار قيصر روسيا "ألكسندر الثانى" القوقاز عام ١٨٦٤م ، التقى به وفد من أعيان الشراكسة ، طالبًا منه الانسحاب من القوقاز، إلا أنه قابل طلبهم هذا بالرفض ، وقال لهم بلهجة حادة إما أن تقيموا فى الأماكن المخصصة لكم ، وإما أن تهاجروا إلى الأراضى العثمانية . وعندما وجد الشراكسة أنهم أمام قوة لا يستهان بها لم تخسر حربًا ، رضخوا لِّلجان المختصة بهجرة الشراكسة التى كان قد أسسها الروس فى مدينة" بطرسبرج" ، وعندما خسر الشراكسة الحرب عام ١٨٦٤م بشكل نهائى ، وجدنا الروس قد محوا تمامًا مواطن إقامة الشراكسة الموجودة على سواحل البحر الأسود ، وأن الأوبيخ والآباظجية الذين كانوا يقطنون هذه المناطق قد هجروها تمامًا ، ونُفى ما يقرب من ٨٠٪ منهم إلى الأراضى العثمانية؛ فكان عددهم على سبيل التخمين يتراوح ما بين مليون إلى مليون ونصف نسمة .

كان هذا المنفى المأساوى فاجعة ، بما تنطوى عليه الكلمة من معنى ؛ فإلى جانب موت مئات الآلاف فى الطريق وفى أثناء هجرتهم إلى الأراضى العثمانية ، نجد أيضًا أن أكثرهم قد مات بسبب الجوع والأوبئة الفتاكة عندما وصلوا إلى هناك . فبعد الهجرة ارتبط فرع القبارتاى الأديغه بولاية تاراك وستافروبول ، أما فروع الأديغه الغربيين الأخرى مثل الأبظاه والصابصيغ والجمجوى؛ فقد ارتبطوا بولاية البحر الأسود التى هى قراصنودر الحالية .

إن دولة الأديغه التى هى ضمن جمهورية شمال القوقاز التى أسست عام ١٩١٨م ؛ وبسبب قصر عمر هذه الجمهورية ؛ فقد عادت هذه الدولة إلى حالتها التى كانت عليها من قبل ؛ حيث كانت ضمن اتحاد مكون من ثلاث دويلات مستقلة كان يطلق عليها جمهورية شمال القوقاز وهى على النحو التالى :

١ – منطقة الأديغه المستقلة وعاصمتها مايقوب .

٢ – منطقة قارجاى الشركس وعاصمتها شركس .

٣ – جمهورية قبارتاى البلقار المستقلة وعاصمتها نالجيك، وبسبب قصر عمر هذه الجمهورية تشرد الأديغه مرة أخرى ، أما عن الأدينه الأديغه فى وقتنا الحاضر كما ذكرنا من قبل فإنهم هم الأديغه يقطنون الوطن الأم ، ويشتركون ضمن اتحاد فيدرالى مكون من ثلاث دويلات منفصلة هى على النحو التالى :

١ – منطقة الأديغه المستقلة :

المساحة : ٧٦٠٠ كم٢ .

عدد السكان : ٤٥٠٠٠٠ نسمة .

١٣٥٠٠٠ أديغه ويمثلون ٣٠٪ .

٢١٥٠٠٠ روس ويمثلون ٧٠٪ .

العاصمة : مايقوب .

٢ - منطقة قارجاى - جركس المستقلة :

المســاحة : ١٤١٠٠ كم٢ .

عدد السكان : ٥٠٠٠٠٠ نسمة .

٥٢٠٠٠ منهم أديغه ويمثلون ١٠٪ .

٤٠٠٠٠ أباظجة ويمثلون ٨٪ .

١٢٠٠٠٠ قارجاى ويمثلون ٢٥٪ .

٢٠٠٠٠ نوجاى ويمثلون ٤٪ .

٢٠٠٠٠٠ روس ويمثلون ٥٠٪ .

العـاصـمـة : شركس .

٣ - جمهورية قبارتاى - البلقار المستقلة :

المســاحة : ١٢٥٠٠ كم٢ .

عدد السكان : ٧٣٠٠٠٠ نسمة .

٣٣٠٠٠٠ أديغه (قبارتاى) ٤٥٪ .

٢٧٠٠٠٠ روس ٣٧٪ .

٥٩٠٠٠ بالقار ٨٪ .

عدد سكان الأديغه فى القوقاز طبقًا لإحصاء عدد السكان عام ١٩٨٩م :

١ - منطقة الأديغه المستقلة : ١٢٥٠٠٠ نسمة .

٢ - منطقة الشركس - قارجاى : ٥٢٠٠٠ نسمة .

٣ - جمهورية القبارتاى - البلقار : ٣٣٠٠٠٠ نسمة .

المجموع : ٥٠٧٠٠٠ نسمة .

(و) مواطن إقامة الأديغه بعد الهجرة وعدد سكانهم :

عانت الشعوب الشركسية أحداثًا مأساوية يندى لها الجبين سواء فى مواطنها الأصلية أو سواء فى بلاد المنفى . هذه الشعوب العريقة فى القدم والتى يصل تاريخها إلى أكثر من أربعة آلاف عامٍ . حاول المستعمر طوال هذه الفترة أن يطمث تاريخ هذه الشعوب ومستقبلها بل ويمحوه من الوجود ، كان الأديغه أكثر من عانى من هذه الأحداث المؤلمة ؛ فقد فقدوا فى هجراتهم مايقرب من ثمانين فى المائة من سكانهم ؛ حيث وجدنا طائفة الصابصيغ التى تمثل أكبر عدد من السكان بين طوائف الأديغه قبل الهجرة ، وقد نقص عددهم وانحسروا إلى الحد الذى يمكن أن تقول عنه إنه لا وجود لهم فى القوقاز .

توزعت هجرات الأديغه إلى أربع جهات فى الإمبراطورية العثمانية من البلقان وحتى صحراء العرب ؛ حيث حددت أماكن إقامتهم الجديدة وفقًا للمصالح السياسية للدولة العثمانية ؛ فعلى سبيل المثال : وطِّن الشراكسة فى منطقة "سينوب الريحانى" أى المنطقة الفاصلة بين الأتراك والأكراد ، وذلك لمنع الاحتكاكات والمصادمات التى كانت تقع بين الأتراك والأكراد ، أما فى البلاد الواقعة تحت السيطرة العثمانية وحتى نهايات القرن ١٩ مثل سوريا والأردن ؛ فقد وطنوا أيضًا بين العرب والترك .

وقد فكرت الحكومة العثمانية فى إستانبول أيضًا فى أن تستخدم الشراكسة ضد شعبها نفسه؛ حيث وطنت هذه الحكومة عددًا كبيرًا من الأديغه الأبخاز (الأباظجية) فى منطقة (مرمرة) من أجل أن تمنع وصول التمرد الذى حدث فى الأناضول إلى إستانبول ، أما فى بلاد البلقان فقد صنعت هذا الموقف نفسه ، إلا أن الهدف قد اختلف تمامًا؛ حيث رأينا الحكومة العثمانية قد وطنت الشراكسة بين المسلمين والرعايا المسيحيين ، قد رأينا بعد ذلك وبموجب معاهدة برلين أن الشراكسة قد أبعدوا عن البلقان كلية .

وفى وقتنا الحاضر يقدر عدد الأديغه داخل حدود الجمهورية التركية بما يقرب من ثلاثة ملايين نسمة ، إلى جانب الأعداد الكبيرة الموجودة فى سوريا والأردن ويوغوسلافيا وفى كثير من البلاد الأخرى الذين لا يقل عددهم عن مليون نسمة .

عدد سكان الأديغه بوجه عام :

فى القوقاز : ٥٠٧٠٠٠ نسمة .

فى تركيا : ٣٠٠٠٠٠٠ مليون نسمة وفى البلاد الأخرى على سبيل التخمين مليون نسمة .

وعلى هذا يصل مجموعهم : ٤٥٠٧٠٠٠ نسمة (أربعة ملايين وخمسمائة وسبعة آلاف نسمة).

٣ - الأوبيخ :

يعتبر الرحالة التركى (أوليا جلبى) أول من تحدث عن الأوبيخ الذين يعدون أحد شعوب (الآباصجو - الكركت)، وقد وصفهم هذا الرحالة بأنهم عشيرة أباظية ، وفى وقتنا الحاضر يطلق المؤرخون على شعوب المنطقة الساحلية التى تسمى "صوجى" اسم (الصوجيين) ، كما يطلقون على الأوبيخ الذين هم أقرب جيرانهم اسم (صادشة) ؛ فهذه الكلمة ليست سوى كلمة (صادزة) المستخدمة فى اللغة الأبخازية ؛ حيث تعتبر الاسم القديم للأوبيخ فى اللغة الأبخازية .

فعندما تحدث" أوليا جلبى" فى مجلده الثانى (كتاب الرحلات) عن دولة الآباظية ، قال : "تقبع ولاية صادشة بين الجبال الواقعة شمال بلاد الآريد فهى ولاية سيدى أحمد باشا ، الذى كان أهلها يعرفون اللهجة الشركسية (الأديغية) إلى جانب اللهجة الأبخازية الفصيحة ، وذلك لكثرة تعاملهم مع شراكسة الشمال" .

كان من هؤلاء الأوبيخ سبعة آلاف فدائى من أشجع الفدائيين فى ذلك الوقت ؛ حيث عانى الشراكسة والآباظية من ويلاتهم وغاراتهم التى لم تكد تنقطع ، لذلك عندما أعطى شعب الآريد لهم الأمان، وجدناهم يتاجرون فى العبيد والجوارى والعسل ، ولأن حكومة الآريد كانت من بكوات وأمراء الآريد والآباظية الذين كانوا موجودين هناك ؛ فإن هؤلاء الأوبيخ كانوا يسمون باسم من يتبعونه من هؤلاء البكوات والأمراء .

وقد أكد هذه المعلومة العلم (جيمس ستانيلاس) الذى أطلق اسم أباظة على الشعب الذى يقطن ساحل البحر الأسود ، واسم الأوبيخ على الشعب الذى كان يسكن الجبال .

وتظهر الإحصائيات المتعددة أن عدد سكان الأوبيخ يتراوحـون ما بين ٢٥ ألف و٧٥ ألف نسمة ؛ فوطن الأوبيخ حتى أواسط القرن التاسع عشر كان عبارة عن مجتمع قروى مستقل يحكم بواسطة إما النبلاء والأعيان المحليين ، أو بواسطة شخصيات جاءت عن طريق الانتخاب، وفى القرن التاسع عشر اقتصرت لغة الأوبيخ على وطنها الأصلى كلغة الحديث اليومى ، بمعنى أنه قد اقتصـر الكـلام بها فى أراضى الأوبيخ فقط ؛ فقد تركت مكانها للغة الأديغه ، كما تركت الصادشة مكانها للغة الآباظية .

وعلى الرغم من وجود لغة مستقلة لكل من الأبخاز والجيجيت والأديغه وكذلك الأوبيخ بصفة خاصة ، الذين يعـرفون على أنهم فـرع من فروع الآباظية ، ولهذه الأسباب فإنه لا يمكن أن نتتبع بشكل واضح التطور التاريخى للشعب الأوبيخى ، الذى لا يمكن فصل تاريخه عن تاريخ جيرانه وأقرب المقربين له من الأبخاز (الآباظية) وكذلك الأديغه .

وإذا ما حاولنا البحث فى الحياة الاجتماعية لشعب الأوبيخ ؛ فإننا لا يمكن أن نصل إلى نتائج تختلف عن النظام الاجتماعى لشعوب الأبخاز والأديغه .

ولكن هناك نقطة مهمة لا يجب إغفالها وهى أن اللغة الأوبيخية فى وقتنا الحاضر ، هى لغة غير حية لا يعرفها إلا شخص واحد يعرفها معرفة تامة يدعى (توفيق إسانج) ، كما يخمن أيضًا وجود عدة أشخاص يعرفونها ؛ فهذا الشعب الذى أصبحت لغته فى حكم العدم ، قد فضل لغة الأديغه لأسباب سياسية وعسكرية واقتصادية ، وأن بقاء لغته حتى يومنا هذا يرجع إلى أسباب أخرى .

فمن وجهة نظرنا أن سبب كون اللغة الأوبيخية أصبحت فى حكم العدم ، يرجع إلى أن المهاجرين إلى الأراضى العثمانية قد انضموا إلى صفـوف الجيش العثمانى فى حـروب اليمن والقوقاز وجناق قلعـة ، مما أدى إلى فقدان عدد كبير من رجالهم فى هذه الحرب .

فإذا نظرنا إلى أماكن إقامة الأوبيخ فى آسيا والآناضول ، استطعنا أن نعرف خصائصهم التى تختلف كثيراً عن الشعوب الشركسية الأخرى .

فمثلاً نجد أن الأبخاز والأديغه والشيشان من ناحية التوزيع السكانى قد شيدوا لأنفسهم قرى عاشوا فيها دون مشاركة شعوب أخرى لهم ، بمعنى أن قرية أباظية لا يسكن فيها سوى الآباظيين فقط ، وقرية أديغية لا يسكن فيها سوى الأديغيين ، وفى المقابل نجد أن قرى الأوبيخ قد سكنتها شعوب أخرى من الشراكسة والأديغه .

ومن وجهة نظر الكاتب أن سبب هذا هو أن المهاجرين الذين جاءوا حديثًا إلى الأراضى العثمانية لم يستطيعوا أن يشيدوا قراهم بأنفسهم ؛ لأنهم فقدوا أعداداً كبيرة من شبابهم فى الحروب العثمانية المتعددة ، هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى لشعورهم بعدم الأمان لقلة عددهم ، وهذا رأى ينبغى علينا التأكد من صحته .

إن هؤلاء الأوبيخ الذين كانوا يعيشون فى قرى مشتركة مع الآباظبة والأديغه ، كانوا يفضلون هذه اللغات التى كانوا يعرفونها جيداً من أجل إمكانية التفاهم معهم ، ومع مرور الوقت نسوا لغتهم .

ويخمن أنه يوجد داخل الحدود التركية فى عصرنا هذا ما يقرب من ٢٥٠ إلى ٣٠٠ ألف نسمة، ترجع أصولهم إلى الأصول الأوبيخية ؛ فالأوبيخ كانوا يطلقون على أنفسهم اسم بيخ أو بيوخ ؛ فنعتقد أن هذه الكلمة ما هى إلا تعبير عن شعب الأوبيخ بلغة الأديغه .

وقد وجدنا البروفسير (إينا ليبا شالوا) فى كتابه الروسى الذى كان بعنوان "الأبخاز" ، يكتب عن الأوبيخ أنهم "بيخى باخى" ، كما ذكرهم بروكوبى أيضًا باسم "بروخ" .

قام الأوبيخ الذين هم أقرب المقربين للشعب الأبخازى ببطولات لا نظير لها من أجل إنقاذ الشعب الأبخازى من الروس ، وكما أوضح "زبيدة شابلى" الذى كان أحد رجال الفكر والقلم الأوبيخيين فى كتاباته : "أن الشعب الأوبيخى قد وقف بجانب الشعب الأبخازى فى الحرب والسياسة معًا" .

واليوم لم يبق فى القوقاز أوبيخى واحد؛ فجميعهم أُجبروا على الهجرة ومغادرة بلادهم عام ١٨٦٤م إلى الأراضى العثمانية؛ فهم الآن موزعون بين تركيا والبلاد العربية .

٤ - الآستين - أو الأوست :

وهو أحد شعوب شمال القوقاز الذين لا يزال لهم وجود فى وقتنا الحاضر ، كما كان لهم وجود فى التاريخ القديم ؛ فكثير من المؤرخين يدافعون عن وجود تطابق تام بين الآلان والآستين . فالآستين يطلقون على أنفسهم اسم "إيرون" ، وجزء آخر منهم يطلق على نفسه "جرون" ، ويقال إن لغة هؤلاء القوم قريبة جداً من اللغة البهلوية التى هى إحدى لغات إيران القديمة . فشعب الآلان الذين هم أجداد الآستين جاءوا إلى القوقاز فى القرن الأول قبل الميلاد ، ولكنهم بسبب ضغط الخون عليهم ؛ فقد هاجروا صوب الغرب فيما بين عامى (٣٧٠م - ٣٧٥م) ، وأن أحد فروع شعب الآلان فى أثناء هذه الهجرات ، استطاع أن ينجح فى البقاء فى شمال القوقاز ، هذا الفرع هو الذى كون شعب الآستين فى وقتنا الحاضر .

وقد قام العالم "ج. كلوفروت" بعمل مقارنات بين الآستين والآلان عام ١٨٢٢م من ناحية علم اللغة ؛ حيث أثبت أن لغة الآلان هى الفرع الشرقى للغة الصرمت ذات الجذور الإيرانية . أما المؤرخون والرحالة العرب فقد أثبتوا بالحقائق أن شعب الآستين والآلان هم شعب واحد ، وقد أيد المؤرخون يعقوبويسكى وأرتوربيخان وإسماعيل برقوق وغيرهم هذا الرأى.

يعيش الآستين فى عصرنا الحاضر فى جنوب سلسلة جبال القوقاز، وفى شمالها على هيئة حكومتين مستقلتين منفصلتين عن بعضهما بعضاً ؛ فأراضى جمهورية أوسيتا الشمالية ترتوى بأنهار (تاراك وأروخ وأردون قامليغقا و مساحتها :

۸۰۰۰ کم۲، وعـدد سكانـهـا : ٦١٠٠٠٠ نســمــة ، ۲۹۳۰۰۰ من هؤلاء السكان من الأوست وعاصمتها مدينة أورجونيكادزه) .

يعيش الأوست الجنوبيون فى جنوب جبال القوقاز فى مناطق مستختى وجورى وقوتائيس وهم تابعون لجمهورية جورجيا ومساحتها : ۳۹۰۰ کم۲ ، وعدد سكانها : ۱۰۰۰۰۰ نسمة ، ٦٠٠٠٠ من هؤلاء السكان من الأوست وعاصمتها مدينة سينوالى .

هاجر شعب الآستين بأعداد كثيرة بعد عام ١٨٦٤م إلى أراضى الدولة العثمانية ، وفى وقـتنا الحـاضـر يعيش هؤلاء المهاجرون فى تركيا ، وعلى الأخص بالقـرب من مدينتى موش وصارى قامش ويبلغ عددهم على سبيل التخمين حوالى ٤٠٠٠٠ نسمة ، وقد خرج منهم أبطال عظام كان لهم صولات وجولات فى حرب الاستقلال التركية منهم "بكر سامى" الذى كان آستينى الأصل.

٥ - القارجاى - البلقار :

القارجاى والبلقار شعبان من شعوب شراكسة شمال القوقاز ، يشتركون معهم فى ثقافة وعادات وتقاليد واحدة وينحدرون من أصل واحد ويتحدثون بلغة تركية واحدة. وعلى الرغم من آراء البـاحـثين المخـتلفـة التى تدور حـول جـذور القـارجـاى والبلقـار القومية ؛ فـالحقيقة التى لا ريب فيها أن هذين الشعبين قد عاشا فى شمال القوقاز فترة تزيد عن ألف وخمسمائة عام ؛ فالمؤرخ الشهير نيكومار دافع عن النظرية التى تقول بأن القارجاى والبلقار هم من جنس يافث القوقاز المتركين ، أما المؤرخ "ميللر" : فيقول "إنهم يعتبرون من بلغار القوقاز الذين ظهروا بعد القضاء على إمبراطورية الخون" .

فالقارجاى والبلغار جزء لا يتجزأ من مجتمع شمال القوقاز بثقافته ولغته وبنائه الاجتماعى ، ويعيش القارجاى فى وقتنا الحاضر فى منطقة القارجاى الشركس التابعة

للاتحاد الروسى ويبلغ عددهم نحو ١٠٠٠٠٠ نسمة ، أما البلغار فهم يعيشون فى جمهورية قباردای – البلغار المستقلة ضمن الاتحاد الروسى ويبلغ عدد سكانهم نحو ٥٩٠٠٠ نسمة .

لقد هاجر عدد كبير من القارجاى إلى تركيا بعد الحروب الروسية القوقازية ، وكذلك بعد الحرب العالمية الثانية . وفى وقتنا الحاضر يعيش الكثير منهم فى أماكن متفرقة من تركيا ، وعلى الأخص فى مدينتى أسكى شهر وقونية فى تجمعات قروية خاصة بهم؛ فهم أصحاب جذور قوقازية أصيلة؛ فعلى الرغم من تحدثهم اللهجة التركية ومعيشتهم بين الأتراك ، فإنهم لم يفرطوا فى قيمهم الثقافية الأصيلة .

وقد استطعنا الحصول على بعض المعلومات بأن هناك مستعمرة قارجاية فى ولاية "نيوجيرسى" بالولايات المتحدة الأمريكية ؛ حيث تجمعهم اتحادات وجمعيات خاصة بهم فى هذه الولاية ، لكننا لانعرف كم يبلغ عددهم حتى الآن .

٦ – الشيشان :

يعد شعب الشيشان من أفضل شعوب الشراكسة وأكثرهم انتماءً وحبًا لوطنه وقوميته؛ فهم أوتختون شمال القوقاز ، ولا توجد وثيقة أو سند تاريخى يتعلق بمجيئهم من خارج القوقاز ، وينقسم هذا الشعب إلى ثلاثة فروع رئيسية :

١ – الشيشان . ٢ – الأنجوش . ٣ – الطوش .

فهم يطلقون على أنفسهم "فاى ناخ" وهى تعنى بالشيشانية (شعبنا) ؛ إذ إن بعض الباحثين يربطون بين ماضى الشيشان والشعوب القديمة أمثال : (المصاجت والجارجار ، والصارمت) ، ولكن هذه النظرية غير مؤكدة .

إن الشعب الشيشاني الذى استطاع المحافظة على بقائه بفضل عناده وقوة عزيمته فى شمال القوقاز ، تلك المنطقة التى توالى عليها الاستعمار طوال عدة قرون قد لفت أنظار العالم ، لاسيما من خلال المدائح التى ظهرت فى أثناء الحروب القوقازية الروسية ، حتى إن هذه المدائح قد لعبت دوراً كبيراً فى تخليد شيخ المجاهدين الشيخ شامل .

إن الشيشان على الرغم من اعتناقهم الإسلام فى القرن السابع الميلادى ، فإنهم لم يجعلوه ديناً قومياً لهم إلا فى القرن السابع عشر ، وهناك بطل أسطورى عندهم يدعى (الحاج مراد) .

فبعد أن انتهت الحروب القوقازية الروسية عام ١٨٦٤م، هاجرت أكثر من ثلاثة آلاف عائلة شيشانية إلى الأراضى العثمانية ؛ حيث استوطنت هذه العائلات مدن ماراش وسيواس وقارصى وماردين وغيرها من المدن العثمانية ، واليوم نجد الكثيرين منهم يقيمون خارج الحدود التركية لاسيما فى الأردن وسوريا ؛ فهجرة هؤلاء الشيشانيين لم تكن فى صورة المنفى ؛ ولكن شريحة قليلة جداً من هؤلاء المهاجرين - لاسيما المتدينون منهم - قد أصبحوا عثمانيين وليسوا شيشان .

وفى وقتنا الحاضر يمكن أن نخمن أن عدد الشيشانيين فى تركيا حوالى ألف شخص أكثرهم يوجد فى مدينة ماراش ، أما الشيشان الذين ظلوا فى القوقاز بعد الهجرة ؛ فقد أصبحوا ضمن جمهورية شمال القوقاز الجبلية التى أسست فى الحادى عشر من مايو عام ١٩١٨م، إلا أنه بسبب قصر عمر هذه الجمهورية ، وجدنا الشيشان قد أصبحوا ضمن الاتحاد السوفيتى على اعتبار أنها جمهورية سوفيتية مستقلة، ولأن هؤلاء الشيشان قد اتحدوا مع الألمان فى أثناء الحرب العالمية الثانية من أجل نيل استقلالهم ، إلا أنهم بعد انتهاء هذه الحرب نفوا إلى سيبيريا ، ثم ما لبثوا أن عادوا مرة أخرى عام ١٩٥٦م .

هذا الشعب إلى جانب كونه أكثر حظًا من الشعوب الشركسية الشمالية الأخرى ، بسبب كثرة عدد سكانه الذين يزيدون عن مليون نسمة ؛ فإنه يتمتع أيضًا بثقة الشعوب الشركسية الأخرى .

اللغة الشيشانية : تنقسم لغة هذا الشعب إلى بعض اللهجات واللكنات من أهمها : "أوخ - لاماروى - أورسخو" . أما لغة الأنجوش التى يطلق عليها جالجاى ؛ فهى تنقسم إلى لهجات الخانتى وتلوسك .

٧ - شعب الداغيستان :

على الرغم من أنه يطلق اسم " لزجى " دائمًا على الداغيستانيين فى الآداب العالمية ، فإن هذا الشعب له تركيبة قومية خاصة ؛ حيث يمكننا أن نجمع هذه التركيبة فى أربع مجموعات رئيسية :

١ - اللزجيون . ٢ - اللاق (الغازى قوموق) .

٣ - الآوار - الآندى - الديدو - الآرجى . ٤ - الدارجى .

فالشعب الداغيستانى من وجهة نظر الباحثين ينحدر من نفس اللغة ومن نفس الجذور القومية ماعدا "الطورانيين" ؛ فدولة الداغيستان تمتد على طول سواحل بحر الخزر شمال القوقاز ؛ أى أنها تمتد على طول السواحل الغربية لبحر الخزر تقريبًا ؛ فقسم كبير من هذا الشعب من جنس الأوتوختون ؛ فمثلاً نقول : إن الشعب الذى يذكره المؤرخون أمثال : سترابون ويلينوس بأسماء مثل : "جله ولجه" هم شعب اللزجى نفسه فى وقتنا الحاضر ، أما المؤرخ (محمد فتجراى) فيقول : إن هذا الشعب الذى يطلق عليه : جله ولجه ولكزان لابد وأن يكون شعب "اللاق" .

إن العالم اللغوى الشـهير "فـالديمار جـوخيلسون" صنف مجموعات لغات اللزجى على النحو التالى :

١ – الآوار والدارجي واللاق .

٢ – مجموعة الكورى أو فروع اللزجى الشرقية :

(أ) الكورى الأصلية . (ب) الطاباصران . (ج) الآغول .

(د) الآرجى . (و) الرطول . (هـ) الليدى .

(ل) خينا لوج . (ع) الزخ . (غ) البودوخ .

(ق) الخابوط .

٣ – فروع اللزجى الغربية : (أ) الآندى . (ب) الديدو .

والداغيستانيون يشبهون الشيشان تمامًا ؛ فعلى الرغم من أنهم لم تجمعهم وحدة تامة، فقد وقفوا بإصرار فى مواجهة الروس فى الحروب الروسية القوقازية . وفى نهاية الحرب هاجر بعضهم إلى الأراضى العثمانية .

إن الآوار من شعوب الداغيستان ؛ فـهم حتى عزل الإمـام حمـزة من الحكم ، كانوا يحكمون بواسطة الأمراء ؛ فالأمراء الآوار كانوا دائمًا يسطون على جورجيا من أجل الغنائم ، ويدخل شعب داغيستان الذى أشرنا إليه ضمن الاتحاد الروسى كجمهورية مستقلة ذات سيادة ؛ ووفقًا لإحصائية عدد السكان عام ١٩٨٩م ؛ فإن عدد أهالى داغيستان كان على النحو التالى :

١ – الآوار : ٦٠١٠٠٠ نسمة .

٢ – اللزجى : ٤٦٥٠٠٠ نسمة .

٣ – الدارجين : ٣٦٥٠٠٠ نسمة .

٤ – القوموق : ٢٨٥٠٠٠ نسمة .

٥ – اللاق : ١١٨٠٠٠ نسمة .

٦ – الطباصاران : ٩٨٠٠٠ نسمة .

٧ – الطاط : ٣١٠٠٠ نسمة .

٨ – الرتول : ٢٠٠٠٠ نسمة .

٩ – تساحور : ٢٠٠٠٠ نسمة .

١٠ – آغول : ١٩٠٠٠ نسمة .

المجموع مليونان واثنان وعشرون ألفًا .

الفصل الثالث

الشراكسة بعد المنفى

حرصت الإمبراطورية العثمانية فى هجرات الشراكسة بعد المنفى أن تكون هجراتهم والأماكن التى يقيمون فيها متوافقة مع أغراضهم السياسية والعسكرية . فقد أقام المهاجرون الشراكسة فى جماعات صغيرة فى أماكن شتى من أراضى الإمبراطورية المترامية الأطراف ، والتى كان يعيش عليها شعوب من أديان مختلفة وجذور قومية متعددة كالبلقان والأناضول والجزيرة العربية .

كانت هذه الهجرات وبالاً على الشراكسة ؛ حيث هلك منهم الكثير لأسباب مختلفة ؛ منها عدم ملائمة المناخ لهم ، أو بسبب الأوبئة الفتاكة ؛ حيث شاهدنا فى القرى التى أسسوها كثيراً من المقابر الجماعية ، التى دفنوا فيها موتاهم بسبب الأوبئة .

ومن الأشياء التى عانى منها الشراكسة أيضًا عدم توافقهم وانسجامهم مع أهالى المناطق التى كانوا يهاجرون إليها ؛ حيث سبب لهم هذا الكثير من المشكلات الاجتماعية ، وقد وصلت ذروتها فى بلاد البلقان ، حتى إنه فى معاهدة برلين ١٨٧٨م ، تقرر عدم إيواء الشراكسة فى البلقان وتهجيرهم إلى أماكن أخرى ، ولهذا أجبروا على الهجرة إلى بلاد الأناضول والجزيرة العربية ؛ حيث سميت هذه الهجرة بالهجرة الثانية .

تجمع الشراكسة على شكل تجمعات صغيرة فى وحدات استيطانية جديدة ؛ فقاموا بإنشاء قرى مشابهة تماماً لقراهم التى أجبروا على تركها ؛ حيث أطلقوا أسماء قراهم التى فى القوقاز على القرى الجديدة ، وكما أطلقوا أسماء المراعى القوقازية على مراعيهم الجديدة . لقد عاش هؤلاء الشراكسة حياة قروية منعزلة ، واقتصاد مغلق وعلاقات اجتماعية منعزلة ، وكان لهذه العلاقات بالنسبة لهؤلاء الشراكسة وجهان أحدهما إيجابى والآخر سلبى ؛ فمن الناحية الإيجابية استطاع الشراكسة إحياء لغاتهم والمحافظة عليها فى هذه المجتمعات الصغيرة ، وكذلك إحياء خصائصهم القومية ، كما استطاعوا أيضاً التصدى لمواجهة الذوبان والانصهار داخل المجتمعات الكبرى ، أما من الناحية السلبية ؛ فقد ظلوا بعيدين كل البعد عن ركب التطور الذى حدث فى العالم ؛ حيث افتقروا للثقافة والحياة المعاصرة . وعلى الرغم من كل هذا ؛ فقد شاهدنا الكثيرين من المهاجرين الشراكسة بعد الهجرة إلى إستانبول ، قد التحقوا بالقصر السلطانى والجيش ، لاسيما المثقفون منهم . كذلك وقد رأينا أيضاً بعض هؤلاء المثقفين لا يهتمون أو يولون أية عناية بمواطنيهم أو وطنهم الأم ، كما رأينا بعضهم الآخر على العكس تماماً ، يهتمون بوطنهم الأم وبصفة خاصة بمشكلات الهجرة .

ومن الموضوعات التى أولاها المثقفون الشراكسة فى هذه الفترة اهتماماً كبيراً ، محاولتهم إنشاء منظمات فى المجتمعات التى كانوا يعيشون فيها ، من هذه المنظمات على سبيل المثال : "جمعية التعاون الشركسية" التى أنشأوها عام ١٩٠٨م والتى تعتبر أولى هذه المنظمات ، وقد كان من إنجازات هذه الجمعية افتتاح مدرسة لتربية الأطفال الشراكسة فى حى بشيك طاش بإستانبول ، وكذلك إصدار جريدة ناطقة باللغة الأديغية .

أرسل القائمون على هذه الجمعية مجموعة من المثقفين الشراكسة لزيارة شمال القوقاز ، وكان ضمن أعضاء هذه الجمعية يوسف عزت باشا قائد الجيش العثمانى ، الذى ذهب لمساندة جمهورية شمال القوقاز التى أسست عام ١٩١٨م ، وكذلك القائد

إسماعيل برقوق الذى كان أحد قواد الجيش العثمانى ، وإلى جانب هؤلاء القادة أيضًا ، كان يوجد كثير من الضباط الشراكسة ، الذين سقط بعضهم شهداء الواجب فى حروب الدولة العثمانية المتعددة .

وفى العدد ٤٧ من مجلة (ثقافة شمال القوقاز) ، أشير إلى أنه يوجد بدولة تركيا وحدها ما يقرب من سبعمائة وخمسين قرية شركسية ، هذه القرى قد انصهرت وذابت تمامًا فى المجتمع التركى ، إلا أنها على الرغم من ذلك تميزت بخصائص اختلفت عن عادات الشعب التركى وثقافته ولغته ، إلا أن هذه الخصائص القومية نتيجة هذا الانخراط فى المجتمع الجديد بدأت تتلاشى تدريجيًا .

كان المهاجرون الشراكسة فى هذه القرى يتحدثون بلغاتهم الأصلية ، وعلى الرغم من تخرج كثير من الطلاب فى الجامعات وحصولهم على أعلى الشهادات الدراسية ؛ فالغالبية العظمى من هؤلاء المهاجرين كانوا يتحدثون اللغة الأديغية ، ثم تليها فى المرتبة اللغة الآباظية ثم الشيشانية ثم الآستينية ، ثم بعد ذلك لغات الداغيستان والقارجاى والبلقار .

وفى السنوات الأخيرة ، حدثت بعض التطورات فى أماكن إقامة الشراكسة ؛ حيث هجر المهاجرون قراهم ، واتجهوا صوب المدن ؛ حيث حل محلهم فى هذه القرى مهاجرون آخرون ، وهكذا فإن هذه القرى فقدت خصائصها القومية ؛ فالمهاجرون إلى المدن من أمثال الصانع والعامل والحرفى والموظف كلهم ذابوا وانخرطوا داخل هذه المدن الكبيرة ، وضاعت معهم هويتهم ؛ فهذه التغيرات والتطورات كانت نتيجة طبيعية لحركات التحديث والتصنيع والتقدم الاقتصادى المرئى فى المجتمع التركى .

لقد ساعدت الرأسمالية والمدنية الحديثة على محو الخصائص والسمات الثقافية للشعب الشركسى ، ذلك الشعب الذى استطاع الحفاظ على عاداته وتقاليده طوال عدة قرون ؛ فلا يمكن بأى حال من الأحوال المحافظة على حياة لغات هذه الأقليات فى ظل

هذه الظروف دون مساندتهم أو الوقوف بجانبهم ؛ ففى ظل الشيوعية التى كانت تسعى إلى خلق مجتمع واحد تذوب فى داخله كل المجتمعات بما فيها الشعوب الشركسية ، لا يمكن أن يروا مساندة أو مساعدة إيجابية تساندهم ؛ فشعوب بهذه الأقلية من الممكن محوها أو صهرها أو إزالتها من التاريخ تماماً .

فقرارات الأمم المتحدة وإعلان حقوق الإنسان العالمى ومعاهدة هلسنكى عام ١٩٧٥م ، والتى هى من الحقوق المعاصرة التى اعترفت بها جميع الدول المتحضرة ، والتى نصت على إحياء لغات الأقليات وثقافتهم وتطويرها وتحديثها ، وكذلك نبذ التعصب العرقى ، لذلك نجد الأتراك فى لغتهم ويوغوسلافيا واليونان والعراق مثلاً لهم مدارس تدرس لغتهم وتنشر لغتهم ، ولكن مع الأسف فإن الشراكسة على الرغم من كثرتهم ، فلا يوجد لهم مدارس تعلم لغاتهم الأم فى تركيا والأردن وسوريا ، أما فى إسرائيل فقد خصصت الحكومة الإسرائيلية لهم قرى مثل قرية كفاركاما والريحانية تدرس فى هذه القرى اللغة الأديغية ، إلى جانب أنها أنشأت لهم مجلة باللغة الأديغية أطلقت عليها اسم (قافقاز) .

وفى الدول الثلاث (تركيا - الأردن - سوريا) ، لم نر أحداً قد تقدم بطلب لمناقشة المشكلات السياسية للشركس أو مناقشة مشكلة النشر ؛ فلغات القوقاز لغات جديرة بالدراسة من نواحٍ عديدة ؛ مثلاً من ناحية علم السلالات اللغوية ومن الناحية اللغوية ، ومن ناحية علم الاشتقاق وعلم الأصوات وعلم الإشارات والتخاطب وكذلك علم دراسة الإنسان ، وهى صاحبة أدب شفاهى عريق .

ولأهمية لغات هذه الشعوب وعلومها وثقافتها أصبحت فرعًا من فروع البحث المهمة فى الهيكل الأكاديمى الفرنسى ؛ فعلى سبيل المثال : أخرج العلماء الأوروبيون بحوثًا ومعاجم كثيرة مثل " المعجم الأوبيخى الكبير" للعالم السويسرى هانز فوجت ، كما قام العالم استديو جوجاسيقا الهولندى الأصل بعمل بعض البحوث والمؤلفات التى

تتعلق بتاريخ القوقاز وحضارتهم، كما قام العالم الألمانى كارل بودا ببحوث علمية دقيقة حول لغات القوقاز ، شاركه فى ذلك العالم الإسكتلندى الذى كان يعمل فى جامعة متشيجن بأمريكا ، إلى جانب المعاهد البحثية الأخرى المتعلقة بالشراكسة فى كل من موسكو ومايقوب ونالجيك والمكسيك .

وعلى الرغم من كل هذا ؛ ففى تركيا - على حين توجد دراسات للغات الآسيوية الميتة أمثال : اللغة السومرية واللغة العيلامية ولغة الختيت - لا توجد عناية أو اهتمام أبداً باللغات الشركسية التى تعتبر بالنسبة لهذه اللغات لغات حية ؛ فعلى الرغم من وجود جمعية تحت اسم جمعية القوقاز الثقافية فى تركيا والتى يزيد عمرها عن خمسين عاماً ، فإن هذه الجمعية لم تقدم حتى الآن جهوداً ثقافية أو علمية جادة ، مع أنها أنشئت خصيصاً لبحث الأمور والموضوعات الثقافية للشعوب القوقازية .

بعض الشراكسة الذين تقلدوا وظائف مهمة فى حرب استقلال تركيا :

١- حسين رءوف أورباى (١٨٨١م - ١٩٦٤م) بطل معركة الحميدية وفى الوقت نفسه أول رئيس لحكومة أنقرة ؛ فهو آباظى الأصل .

٢ - طوغا فؤاد باشا (١٨٣٥م - ١٩٣١م) بطل معركة إلينا؛ فمن أجل أمانته وإخلاصه وشجاعته ، أطلق عليه فؤاد باشا المجنون وهو من أصول أوبيخية .

٣ - شوى رشيد بك (١٨٧٧م - ١٩٥١م) من القواد البارزين ، الذين قاموا بمقاومة شرسة أمام القوات اليونانية فى بحر إيجه وهو من مؤسسى الجيش الأخضر ؛ فهو من جذور أديغية .

٤ - آنجوق أحمد آنذاور (؟ - ١٩٢١م) كان نصيراً للسلطان عبد الحميد الثانى ، وقد حاول القضاء على القوى القومية من أصل أديغى .

٥ - آبوق أحمد باشا (١٨٥٧م - ؟) كان وزيراً للحربية والتعمير فى أثناء صدارة الوزير الأعظم (الداماد فريد باشا) ، وقام بدور المصلح بين حكومة إستانبول والهيئة البرلمانية ، كان أصله من (القبارتاى) .

٦ – سنجر أشرف بك (؟ – ١٩٣٨م) أصله من الأوبيخ .

٧ – عزيز مكر (١٨٧٧م – ١٩٤١م) من أصل أبخازى .

٨ – عمر ياور باشا (؟ – ١٩٣١م) من أصل أديغى .

٩ – بكى باغجه لى شكرى بك (١٨٨١م –١٩٥٣م) من أصل أوبيخى .

١٠ – معان على بك (١٨٧٢م – ١٩٣٤م) من أصل أبخازى .

١١ – بكر سامى بك (١٨٦٥م – ١٩٣٣م) أصله من الآستين .

فهذه الأسماء التى أشرنا إليها اخترناها مصادفة من سجل أبطال (حرب الاستقلال التركية) ، وإلى جانب ذلك فإنه يوجد رجال كثيرون تقلدوا مناصب مهمة فى بلاد البلقان وطرابلس الغرب ، كان لهم دور بارز فى حرب الاستقلال فى (جناق قلعة) .

الفصل الرابع

الشراكسة فى أثناء حرب استقلال تركيا

بعد أن انتهت حرب الاستقلال التركية التى كانت ضد الإمبريالية والاستعمار حدثت بعض المستجدات على الساحة التركية إلى جانب الأهداف الحقيقية لهذه الحرب ، ومن هذه المستجدات أن انضوت تركيا تحت ظلال الأيديولوجيات والتكتلات العالمية التى كانت قد نشأت من قبل ، حيث وصلت بأفكار ومفاهيم مختلفة للمواطن التركى تختلف عن المفاهيم والأفكار السابقة .

ولكن المواطن التركى تجاه هذا المفهوم الجديد وتجاه الظروف الجديدة وهى الوقوف فى مواجهة الإمبريالية الاستعمارية ، استطاع أن يوحد نفسه مع الشعوب التركية الأخرى التى حاربت معه ووقفت بجانبه ؛ حيث خرج بمفهوم ثقافى واحد ومفهوم لغوى واحد، ولا أعتقد أن مشاركة اللاذ والشراكسة والأكراد فى حرب التحرير التركية كان مبنياً على أساس عرقى أو قومى .

فعندما ننظر للشراكسة الذين شاركوا فى حرب التحرير التركية ، نراهم لم يكونوا هكذا قط ؛ فمئات الآلاف من الشراكسة قد نفوا من وطنهم الأم منذ عام ١٨٦٠م ، وهو التاريخ الحقيقى لاحتلال الروس شمال القوقاز ، واضطروا لترك ديارهم واللجوء إلى الأراضى العثمانية ؛ فأمام هذه الهجرات والخسارة الكبيرة فى الأموال والأنفس ، صمموا على أن يلعبوا دوراً مهماً فى كل مرحلة من مراحل التاريخ التركى المعاصر .

وقد أشار إلى ذلك الكاتب التركى (مراد سرت أوغلو) بقوله : " لقد شغل الكثير من الشراكسة مواقع مشرفة فى التاريخ التركى القومى ؛ فلا غرو أن كان منهم أبطال ضحوا بأرواحهم ودمائهم فى حرب تحرير تركيا " أمثال : حسين رءوف بك والجنرال جميل جاهد طوى دمير ورجب بكر؛ فهؤلاء تركوا بصمات فى تاريخ البطولات التركية ، ولهذا فعند الحديث عن تاريخ هجرات شمال القوقاز ، يجب أن نضع فى الاعتبار أن يضاف إلى تاريخ تركيا الحديث دور هذه الهجرات وهؤلاء الأبطال فى صناعة هذا التاريخ .

فى الحقيقة لقد أسهمت شعوب شمال القوقاز بشكل مكثف وفعال فى الخمسين سنة الأخيرة من عمر الدولة العثمانية ، كما أسهمت أيضًا بدور كبير فى حرب الاستقلال التركية.

وكما أوضح العالم الألمانى (كورت شتاين هاوس) فى ذلك الوقت أن الشراكسة ، كانوا جزءًا لا يتجزأ من القوات النظامية المحاربة ضد العدو ، كما كانوا جزءًا لا يتجزأ من العصابات القومية المسلحة ، التى كانت السبب الرئيسى فى الانتصار على العدو .

ففى اليوم الرابع والأربعين لخروج اليونانيين إلى أزمير وعلى الأخص فى يوم ٣٠ يونيو من عام ١٩١٩م ، قام ظافر بولس وهو أحد القادة اليونانيين بكتابة تقرير لقيادته هذا نصه : " نحن أمام مقاومة تركية شرسة تقوى لحظة بعد لحظة ، هذه المقاومة ليس مرجعها حكومة إستانبول ، ولكن مرجعها الشعب نفسه والخاصية اللافتة للنظر أن تأتى هذه المقاومة من شعب تجتمع فيه هذه الأخلاط الكثيرة " .

إن الشراكسة الذين يصل عددهم إلى خمسة آلاف على سبيل التخمين ، والذين جاءوا من جهات الأناضول الأربع تحت قيادة القائد أدهم الشركسى الأصل ، الذى نشأ وتربى بصحبة رءوف وزير الحربية والذى وقّع باسم الدولة العثمانية اتفاقية نزع سلاح مندروس ، والذى كنا قد عرفناه بسفينة قرصان الحميدية فى حرب البلقان ، هؤلاء الشراكسة قد أنشأوا خط دفاع بين منطقتى آق حصار وصالحى .

كان للجند والمثقفين الشراكسة دور بارز فى التشكيلات السياسية لثورة الأناضول؛ فعلى سبيل المثال وجدنا خمسة أعضاء شراكسة فى مؤتمر سيواس من جملة اثنى عشر عضواً انتخبوا ليمثلوا جمعية الدفاع عن الحقوق الأناضولية على رأسهم : رءوف أورباى وبكر سامى قوندوخ وإبراهيم ثريا وعمر ممتاز وحقى بهيج ، فجميع الشخصيات التى حضرت مؤتمر أماسيا ، الذى عرف باسم الحكومة الإستانبولية وثورة الأناضول ، والتى كانت تمثل سواء الحكومة الإستانبولية أو ثورة الأناضول كانوا شراكسة الأصل ؛ فلقاءات قارزج صالح باشا ، ورءوف أورباى وبكر سامى التى كانت لها مكانة مهمة فى إنجاح ثورة الأناضول قد تمت فى منزل جميل جاهد بك القائد القوقازى الأصل ؛ فكل هذه الشخصيات المهمة كانت من محبى القوقاز ، وكانوا فى البداية ضمن التشكيلات التى تُشرف على الهجرات القوقازية ، وكانوا يرتبطون بروابط وعلاقات قوية تولدت من انتسابهم إلى ثقافة واحدة .

وقد شاهدنا مصطفى كمال أتاتورك فى البرلمان التركى يجيب على الانتقادات ، التى وجهت إليه ؛ فأشار بأن حرب الاستقلال قد اعتمدت على العنصر التركى ، كما ذكر أيضاً أن هذه الحرب هى حرب مؤلفة من جميع العناصر الإسلامية التركية والكردية واللاذ والشراكسة . فبعد تأسيس الجمهورية التركية أولت الحكومة الاهتمام بالقومية التركية ، وجعلتها فى المقام الأول ؛ فكانت تسعى من وراء ذلك إلى تنويب جميع العناصر الموجودة داخل حدود الدولة الجديدة فى بوتقة واحدة .

كذلك وقد اتبعت الدولة سياسة لمِّ شمل الشعب التركى والسمو به بشعارات مثل : "أنا محظوظ لأنى تركى" ، "وتركى واحد أفضل من الدنيا كلها" ، ولكنهم فى الوقت نفسه لم يهتموا بحقوق العناصر الأخرى ، بل اهتموا بأيديولوجية التتريك فقط ؛ أى كل ما هو تركى .

وبقانون الألقاب الذى صدر عام ١٩٣٤م ، منع نهائيًا استخدام أسماء العائلات الشركسية كألقاب ، بل استخدموا ألقابًا خاصة بهم ؛ أى الأتراك وحدهم دون الشراكسة ، ولم يُكتف بذلك بل قامت الحكومة بتغيير أسماء القرى الشركسية بأسماء أخرى تركية ؛ حيث حافظوا على سياسة "الدولة الواحدة - الأمة الواحدة - الحزب الواحد" حتى عام ١٩٤٦م .

الفصل الخامس

ثقافة الشركس

(أ) الشخصية الشركسية :

الثقــافـــة هى كل شىء يشغل حيزًا فى حياة الإنســان ؛ فالعلم والتكنولوجيا والأدب والمعمار .. إلخ ، وكل شىء يزيد من ثقافة الإنسان ينــدرج تحت قائمة البناء الثقافى . فعند التعريف بالثقافة لا يجب أن نهمل الإنسان ؛ فكل شىء موجود بواسطة الإنسان ومن أجل الإنسان؛ فلو لم يكن الإنسان ما كانت فلسفة أفلاطون، ولا رسومات رفائيل ، ولا موسيقى بيتهوفن .

إن عالم الثقافة فى عصرنا الحاضر ، يجمع بين طياته فرعين رئيسيين للثقافة : الثقافات الغربية والثقافات الشرقية . فالثقافة الغربية نشأت أساسًا على استخدام العقل والموضوعية ؛ فمثــلاً إذا آمن الغربى بالله وقــام بعبــادته ففلسفتــه فى الحياة هى ذاته ، حتى إذا أقسم بالله فإنه يؤدى هذا القَسَم وفقًا لمصالحه الشخصية فقط ، فإن الله الحقيقى بالنسبة للغربى هو ذاته ولا شىء سواه ؛ فالإنسان فى الثقافة الغربية ينظر حتى للمصالح القومية من وجهة نظر مصالحه الشخصية هو نفسه ، وأستطيع أن ألخص ما قلته : فالثقـافـة الغـربيـة هى نظام خاص بها لا ســواها ، بَنَتْ فلسفتها على المصالح الشخصية البحتة ؛ حيث قامت بتطوير هذه المصالح والتوسع فيها .

وإذا ألقينا نظرة على الثقافة الشرقية نجدها مبنية أساساً على فلسفة التصوف ، وكذلك فلسفة العواطف ؛ وعند عقد مقارنة بين الثقافتين نجد أن أسمى شيئًا بالنسبة للإنسان الغربى هى مصالحه الشخصية ، بمعنى أن الشعور (بالأنا) لدى الغربى أسمى من كل شيء ، لذلك عندما ينظر الغربى من هذا المنطلق يرى الآخرين بالنسبة له هم دونه ، ولكن نظرة الشرقى للآخرين تختلف كثيراً عن نظرة الغربى ؛ فمثلاً : الإنسان الشرقى عند توزيعه للثروات أو تقسيمها لا يقول : " هذا لى وهذا لك " ، ولكن مفهوم " نحن " بالنسبة له هو أسمى من كل شيء ؛ فمفهوم " أنا " لدى الشرقى يظل ضعيفًا نسبيًا إلى جانب مفهوم "نحن" ، باختصار فإن الثقافتين الشرقية والغربية بينهما اختلافات كثيرة .

فثقافة الشراكسة مثلما هى تحمل خصائص تشابه بين تلك الثقافتين ؛ فإنها أيضًا تختلف عنها فى نقاط كثيرة ، بمعنى أنه مثلما كان من الصعب أن نطلق على ثقافة الشركس بأنها غربية ؛ فمن الصعب أيضًا أن نطلق عليها شرقية ، لذلك ينبغى علينا دراسة الإنسان الشركسى .

كذلك يجب أن نسلم بأن الثقافة الشركسية ثقافة أصيلة تكونت عبر العصور فى منطقة شمال القوقاز ، ولكن مع الأسف فإن هذا البناء الثقافى الخاص لم يوضع له نظام ولم تحدد خطوطه حتى وقتنا هذا ؛ فالشعبان الأبخازى والأديغى على الرغم من الوحدة الثقافية والقومية التى تجمع بينهما ، فإننا حتى الآن لم نخرج بحقائق كاملة عن مراحل التطور التاريخى لهما ؛ والذى يهمنا قبل فوات الأوان هو أن نبين طبيعة هذه الثقافات الأصيلة لهذين الشعبين القوقازيين ، ومدى أهمية ارتباطهما بعضهما ببعض .

ويجب أن نراعى عند الحديث عن طبيعة هذه الثقافة أن أهم نقطة فى هذا الموضوع هى وظيفة الإنسان داخل هذا البناء ؛ فإذا نظرنا من هذه الناحية ، نجد أن ثقافة الشركس تحمل بين طياتها العنصر القومى وكذلك العنصر القروى ؛ فأخلاق القرية وعلاقتها هى جزء لا يتجزأ من تراثها القومى ؛ فالاقتصاد عندهم هو ما ينتجونه ، ولم يكن يعتمد على تعدد المواد الإنتاجية ، أو البيع والشراء ؛ فهذه ليست من خصائص الثقافة

الشركسية؛ فالمبدأ المتعارف عليه لدى الشركسي أن الشخص ينتج احتياجاته بنفسه دون الاعتماد على غيره ؛ فالبناء يبني بيته بنفسه ، والفلاح يزرع أرضه ، ويعزقها ويجمع حصاده ، ويحيط حقوله بالأسوار ؛ فالراعي هو الذي يربي الماشية وهو الذي يغني ويرقص ويذهب للصيد ويركب الخيل ، وهو الذي يحارب عندما تقتضي الضرورة ، أما الأعمال المنزلية من مأكل وملبس ومشرب ورعاية الأطفال وغيرها هي من اختصاص سيدة المنزل ؛ فالإنسان الشركسي يقوم بعمل كل شيء لازم للحياة بنفسه ؛ فلا هدف له من زيادة مكسبه أو ربحه أو أن يقوم بإيداع وديعة في البنك ، أو إضافة مال على ماله ؛ فهدفه الوحيد هو أن يقوم بإنتاج مايكفي حاجته بنفسه .

إن النظريات المادية المعاصرة ليس لها مجال أو أهمية عندهم وهناك مثل شعبي شركسي يقول : "الإنسانية هي أفضل ثروة" ؛ فأهم شيء في حياة الشركسي هي اسمه وسمعته ؛ فالإنسان في مواجهة طريقين هما : "الاسم والشرف" ؛ فانعدام الشرف بالنسبة للشركسي يعني الموت وليس غيره ؛ فلا يمكن للإنسان الحياة أو العيش في المجتمع الشركسي وهو ملوث ؛ فالزوجة الشريفة في منطق الشركسي تمثل بالنسبة له الحياة ، والعكس تماماً ؛ فالزوجة غير الشريفة تمثل بالنسبة له الموت .

إن الذي يتحدث أو يكتب عن دنيا ثقافة الشراكسة هو المجتمع نفسه ، ولهذا فالسمعة غالية في حياة المجتمع الشركسي ، فالسمة الغالية لهذا المجتمع التجمع وليس التفرد أو الانعزالية ؛ فالمجتمع الشركسي كالفرد الواحد ؛ فالأشخاص جميعهم هم شخص واحد ، والشخص الواحد أيضاً يفكر مثل كل الأشخاص ؛ فمشاعر الاتحاد أو التجمع في المجتمع الشركسي عالية إلى حد ما ؛ فالذي لا يتبع قواعد حياتهم أو نظامها يُحاكم من قبل المجتمع .

إن العادات والتقاليد التي تكونت في هذا المجتمع عبر العصور، أصبحت أعرافاً ، طبقها المجتمع وعمل بها حتى وقتنا هذا ؛ فلم نكن نرى أحاسيس "أنا" أو" نحن" داخل المجتمع الشركسي .

إننا لا نقصد من كلامنا هذا ، بأنه لم تكن توجد طبقات اجتماعية فى داخل المجتمع الشركسى ؛ فمما لا شك فيه أن الطبقات الموجودة داخل هذا المجتمع ، كان لها دور مؤثر وفعال فى تطور العلاقات التى أشرنا إليها من قبل ، ولكن لا أعتقد أن هذا التأثير يمثل أهمية كبيرة بالنسبة لهم ؛ فنحن نعرف أنه قد تكونت طبقات اجتماعية داخل هذا المجتمع ، وحدثت مصادمات بين هذه الطبقات ، ولكن هذه المصادمات لم تصل إلى درجة الحرب ، بمعنى أنه لا يوجد اختلاف كبير بين ثقافة النبلاء وثقافة الشعب، ويرجع هذا إلى أنه لا يوجد تعالٍ من قبل الطبقة العالية على عامة الشعب ؛ وحياة هذا الشعب هى نموذج لحياة المجتمعات التى تعيش داخل نطاق قانونى وشرعى ؛ وحياة هذا المجتمع بَنَتْ نظامها على التجمع وليس الانعزالية أو التفرد ؛ وقد أصبحت مصالح الطبقة الحاكمة أيضًا متوائمة مع هذه الحياة التجمعية .

وبعد كل ما قلناه عن حياة الشركس هذه ، نريد الدخول (تدريجيًا) إلى ثقافاتهم ، عن طريق دراسة اقتصادهم ومعمارهم وملبسهم وصناعاتهم اليدوية .

(ب) النظام الاجتماعى عند الشراكسة فى القرن التاسع عشر :

حسبما ذكرت المصادر التاريخية القديمة ؛ فإنه لم يكن يوجد نظام طبقى واضح المعالم فى بلاد القوقاز حتى القرون الأخيرة ، إلا أن بعض المصادر الأخرى ، قد أشارت إلى أن النظام الطبقى كان موجودًا فى أبخازيا العظمى فى أثناء حكم أمراء القبارداى والشرواشيدزه ؛ فعلى الرغم من وجود فوارق طبقية فى أبخازيا الصغرى (دولة جيجتيا) و(أبازين) وكذلك أبخازيا الغربية ، فإن هذا التفاوت لم يكن واضحًا بشكل ملحوظ .

النظام الاجتماعى عند الآباظية :

عند الحديث عن النظام الاجتماعى لدى الأبخاز ينبغى علينا أن نقسمهم إلى قسمين :

(١) أبخازيا الكبرى : وهى دولة لها عادات أصيلة تختلف عن عادات الشعوب الشركسية الأخرى ؛ فهذه الدولة التى كانت أقوى دولة من دول القوقاز فى الفترة ما بين القرنين الثامن والثانى عشر الميلادين ؛ وحتى لو مرت بمراحل ضعف وإبادة ؛ فقد استطاعت المحافظة على عاداتها وتقاليدها حتى عام ١٨٦٤م ؛ فالعثمانيون خلال فترة حكمهم للأبخاز التى دامت قرابة ثلاثة قرون لم يقتربوا من عاداتهم أو يحاولوا تغييرها .

وحسبما اقتضت أعراف دولة أبخازيا فإن الطبقة الحاكمة تتكون أولاً من الحاكم ، ثم بعد ذلك الأمير والقائد وطبقة الموظفين المساعدة لهذه الطبقة ، ثم الطبقة المنتجة من أمثال العمالَ والفلاحين والصناع ، والمهن الحرة والعبيد والجوارى ولا يمكن أن يقال إن هناك فوارق واضحة بين هذه الطبقات .

إن أبخازيا الصغرى وجيجتيا التى يتكون منها الشعب ، الذى يعيش فى المناطق الجبلية قد بقيتا خارج مراقبة حكومة أبخازيا الكبرى ؛ فهذه البلاد كانت تحكم بواسطة أمراء يطلق عليهم اسم (تواد).

فعلى الرغم من أن هذه المناطق كان يوجد بها فوارق طبقية ، فإن هذه الفوارق لم تكن واضحة بشكل كبير ؛ ولم يكن أهالى هذه المنطقة مرتبطين ارتباطًا كبيرًا بالأرض ؛ فحياتهم قائمة أساسًا على الصيد والثروة الحيوانية .

النظام الاجتماعى عند الشعب الأديغى :

عندما نتحدث عن الأديغه وعن نظامهم الاجتماعى يجب أن نقسمهم إلى مجموعتين :

١ - الأديغه الشرقيين (القبارتاى) : فالفوارق بين الطبقات لدى هذه الطائفة واضحة ومعلومة حتى نهاية القرن التاسع عشر ، وسبب هذه الفوارق يرجع إلى حد كبير لتأثرهم بالروس نتيجة للعلاقات التى استمرت فيما بينهم عدة قرون ؛ فالأمير هو الذى

يحكم المجتمع عند القبارتاى يليه النبلاء الذين ينقسمون إلى ثلاث طبقات منفصلة عن بعضها بعضًا : خدم الأمراء ، وفلاحو الأمراء ، والطبقات الحرة التى من أشهرها العبيد ، وهذا النظام نفسه يوجد أيضًا عند شعوب "خاطيقواى والناطهوج ولكمورجواى والبجدج" الذين هم جيران القباديا .

٢ - الأديغه الغربيين (الصابصيغ - والأبظاه) : لا يحكمون بواسطة أمير ، ولكن لهم نظامًا اجتماعيًا خاصًا بهم يتكون من الشريف ثم القرويين ثم العبيد .

النظام الاجتماعى عند الأوبيخ :

يشبه النظام الاجتماعى عند الأوبيخ النظام الاجتماعى نفسه عند الأديغه الغربيين وأبخازيا الصغرى ؛ فليس عند الأوبيخ فوارق واضحة بين الطبقات .

النظام الاجتماعى لدى الشيشان :

هذه البلد التى تمتلك مساحات شاسعة من الغابات ، كما تشتهر بمنتجاتها الزراعية الغنية ، كانت تعتمد فى حكمها على النظام القبلى أو العشائرى ، الذى يعتمد كلية على سلطة الأب فى الحكم ؛ فهم يحكمون بقوانين متوافقة مع أعرافهم ؛ وينقسم المجتمع فى الشيشان إلى عشائر (الكدمون) وعشائر (الطوخوم) .

وفى بداية القرن التاسع عشر بدأ نظام الإقطاع يترسخ بين نبلاء العشائر ؛ حيث حلت ملكية الفرد للأرض محل الملكية الجماعية ، كما ترك الناس مجالات الزراعة وتربية الحيوانات لتصبح فى حوزة رجال الدين ؛ فبينما رأينا النظام الإقطاعى يتقدم بخطى سريعة فى الوديان والسهول ، وجدنا النظام العشائرى القبلى راسخًا بأقدامه فى المناطق الجبلية .

فالخلافات التى كانت تحدث بين الناس داخل هذا المجتمع الجبلى كان يحكمها حاكم شيخ ، أما الخلافات التى كانت تحدث فيما بين القرى والعائلات ؛ فكانت المجالس العرفية التى يطلق عليها اسم (جماعت) هى التى كانت تقوم بحلها .

النظام الاجتماعى عند الداغيستان :

تنقسم دولة داغيستان من الناحية الاقتصادية والاجتماعية إلى قسمين :

داغيستان الجنوبية : وتعتمد فى المقام الأول على النظام الإقطاعى المتقدم ، الذى يولى اهتمامًا كبيرًا بالزراعة وتربية الحيوانات ؛ ففى هذه المنطقة تزرع جميع أنواع المحاصيل الزراعية ، كما تربى الخيول والأبقار التى يمتلكها الحكام .

كان للأهالى والفلاحين نصيب معلوم من الأرض التى يعملون فيها ؛ حيث كانت هذه الأرض تعطى من الحاكم إلى أمير أو رجل دين ؛ فالفلاحون أو الرعية ليس لهم الحق فى الهجرة من قرية إلى قرية ، أما العبيد والجوارى فلم يكن لهم حق فى شىء قط .

داغيستان الشمالية : هى مجتمع اكتسب شهرة واسعة من تربية الأبقار ، وهى مجتمع جبلى صاحب اقتصاد مغلق يعتمد على سلطة الأب المطلقة ، هذا المجتمع لا يحكم بواسطة حكام ولا أمراء ؛ فالنبلاء هم الذين يحكمون ذلك الشعب الذى يتكون من رجال الدين وأصحاب البلد والعبيد .

وإذا كان الأهالى هم الذين يعمل معظمهم فى زراعة الأرض ، فإن جزءًا منهم تابعون للنبلاء ورجال الدين .

وفى بدايات القرن ١٩ ، بدأت تظهر طبقة جديدة غنية من أهالى هذه الدولة، تمتلك المساحات الواسعة ، كما يمتلكون العبيد والجوارى ، والأطفال الذين كانوا يباعون للأغنياء بسبب الفقر .

(جـ) مواطن الشراكسة وفن عمارتهم :

تتميز مبانى الشراكسة فى كل مواطنهم بشكل واحد تقريبًا ؛ فهم يسكنون فى تجمعات سكنية عبارة عن سبع أو ثمان قرى صغيرة يسمونها (هابلة) ؛ فهذه القرى تحتوى على ما يقرب من خمسين إلى ستين منزلاً قريبة من بعضها بعضًا . وهناك ظاهرة استحدثت فى هذه البلاد، وهى اشتراك أكثر من قبيلة أو عشيرة فى السكن فى قرية واحدة ، على الرغم من أن هذا لم يكن موجودًا من قبل فى هذه البلاد ،

وعلى الرغم من هذا ؛ فيمكننا القول إن الغالبية العظمى لسكان كل قرية من هذه القرى عبارة عن عشيرة أو عشيرتين فقط .

وهناك ظاهرة أخرى وهى أن قرى الأبخاز والأديغه قد بنيت بجوار الأنهار أو منابع المياه ، ولذلك فإن هذه القرى كانت غنية بالحدائق والبساتين والمساحات الشاسعة من الأراضى الزراعية والغابات .

وفى وقتنا الحاضر ، اختلفت الحال ووجدنا كثيراً من العائلات الشركسية يعيشون فى مساكن مختلفة عما كانت فى الماضى ، لاسيما وأن كثيراً منهم أصبح يفضل الإقامة فى العواصم والمدن ؛ لذا ينبغى علينا التعريف بحياة هذا الشعب قبل أن نعبر إلى هذا العصر .

سبق وأن تحدثنا عن مواطن الشراكسة حتى القرن ١٩ ، لذلك لا ينبغى أن نغمض أعيننا عمن يعيش بداخل هذه الوحدات الاستيطانية ؛ فإذا نظرنا إلى منازل الشراكسة البدائية نجدها رباعية الشكل ، وكانوا يطلقون عليها (باتصخا) ؛ فحوائطها كانت من أغصان الأشجار، وأسقفها مغطاة بحشائش السرخس ، وكانت مستوية أحياناً ومائلة أحياناً أخرى ، وكان فوق باب المنزل قوسان متقاطعان على شكل مقص ، أحدهما مربوط فى الحائط الخلفى والآخر مربوط فى أحد أركان المنزل .

وإذا نظرنا إلى داخل المنزل ، نجد غرفة الجلوس ثم غرفة المعيشة المخصصة للاستخدام اليومى والخاصة بأهل المنزل ؛ حيث يوجد فى وسطها موقد كبير تتدلى من فوقه تنجره (إناء) كبيرة معلقة بسلسلة، كما يوجد بالغرفة أيضاً مدخنة ضيقة من أعلى؛ فالسلاسل التى تتعلق فيها آنية الطبخ سلاسل مخصوصة كان يطلق عليها (آخنيش) ؛ وتستخدم ليعلق عليها آنية الطبخ ، وكذلك لتعلق عليها اللحوم المجففة ، كما تستخدم لأغراض الأخرى. كان يوجد بهذه الغرفة أيضاً أريكة طويلة وبعض الأسرّة وصوان (دولاب)، وفى الناحية المقابلة من هذه الغرفة رف طويل توضع عليه بعض الأشياء المنزلية، كما نشاهد على جدران هذه الغرفة وحوائطها بعض الأسلحة وأسرجة الخيول وأدوات السباق .

ويقول "جابجى باج" حول عمارة المنزل الشركسي : "تتكون منازل الشراكسة عادةً من طابق واحد ، ومع هـذا فإنهم ينشئون مبانيهم بالقـرب من منـابع الميـاه ؛ فلكى لا تتسرب مياه الأمطار ومياه الثلوج من تحت منازلهم ، كانوا يضعون إفريزات واسعة لأسقف هذه المنازل ، كما كانوا يحفرون الخنادق حول هذه المنازل الخشبية لكى يضمنوا ابتعاد المياه عنها ، ولذلك كانت هذه المنازل بعيدة كل البعد عن الرطوبة ، وكانت حوائط هذه المنازل تصل إلى أربعة أمتار ، أما الباب فيتكون من جناحين أو جزأين ؛ حيث يترك أحدهما مفتوحًا فى الصيف وفى أثناء النهار فى فصل الشتاء ؛ فغلق الباب عندهم يعتبر بخلاً ؛ وإذا دخلت من الباب تجد المدفأة وقد وضعت فى منتصف الجدار الأيمن أو الأيسر على شكل مخروطى أو نصف دائرى" .

"وإذا نظرنا إلى سقف الغرفة نجده معروشًا بجذوع الأشجار تتدلى منه سلسلة بها إناء لطهى اللحم ، هذه السلسلة يتوارثها الأخ الأكبر فى العائلة عند تقسيم التركة ؛ فهى تذكار من الوالد وميراثه الباقى على مر السنين".

وبعد أن وصفنا باختصار منازل الشراكسة البدائية ، ينبغى علينا أن نصف فن المعمار الموجود حاليًا فى شمال القوقاز وتركيا وكذلك الحياة المرتبطة بهذا المعمار ، ويقول الكاتب (يوراج . أرجون) فى أثره المسمى "الحياة والثقافة فى أبخازيا" والذى ترجم إلى التركية : "يحتل فن عمارة المنازل فى حياة الأبخاز أهمية كبيرة ، ولذلك قامت الحكومة فى الوقت الحالى بإصلاح بعض هذه المبانى القديمة وجعلتها صالحة للاستخدام ، أما الغالبية العظمى من المنازل القديمة فقد هدمت وحل محلها المنازل الخرسانية" .

فعلى سبيل المثال : "بقى منزل أبخازى واحد فى قرية خوآر، وفى عام ١٩٦٨م ، كان يعيش فى قرية قولانيخوا ما يقرب من سبع وستين عائلة عدد أفرادها أربعمائة وخمسون فردًا يعيشون جميعًا فى منازل قديمة مبنية قبل عصر الجمهورية ، أما جميع المبانى الأخرى فقد بنيت على الطراز الحديث ؛ حيث بنى ما يقرب من مائتين وخمسين منزلاً فى العشرين سنة الأخيرة من القرن العشرين" .

فقرية " قولانيرخوا" لا تفترق كثيراً عن القرى الأخرى من الناحية الاقتصادية؛ فهم يعملون بالزراعة مثل سكان قرية دوريبش التى يعتبر اقتصادها أحسن حالاً من القرى الأخرى، لاسيما وأنهم قاموا ببناء ما يقرب من مائة وثلاثة وستين منزلاً من طابقين ، ومائة وثمانية وأربعين منزلاً من طابق واحد فى الفترة ما بين عامى (١٩٦٠م - ١٩٦٧م) ، وفى عام ١٩٦٩م، بنى ١٣٥١ منزلاً فى قرى الأبخاز وفى عام ١٩٧١م بنى أيضًا ٥٦٨ منزلاً ، فأكثر المنازل فى أبخازيا كانت تتكون من طابقين فقط وكانت تغطى بالقرميد .

تأتى بعد ذلك المنازل ذات السقف المحدب (الجمالون) التى تتكون من خمس إلى ست غرف ؛ فعلى الرغم من أن هذه المنازل كانت تقليدية ، سواء من ناحية مساحتها أو من ناحية فائدتها ، فقد أطلقوا عليها (أقوآسكا) ، وفى بعض المناطق الأخرى كانوا يطلقون على هذا النوع من المنازل (المنزل الكبير) أو (منزل العائلة) ؛ فمصطلح المنزل الكبير كان يستعمل من أجل المنازل التى يسكن فيها الوالد مع جميع أفراد عائلته وأولاده .

وفى وقتنا الحاضر فإن الطابق الأسفل من المنزل المسمى (أقوآسكا)، يستخدم من أجل الطعام والحياة اليومية فقط ، أو ما يسمونه غرفة المعيشة ، أما الطابق العلوى فهو للنوم فقط ، وقد كان أوسع مكان فى هذا الطابق لإكرام الضيوف ، وتسمى (غرفة الضيوف) ؛ فهم يطلقون اسم (أمهارا) على أية غرفة فارغة من غرف المنزل ، والآن تغيرت بعض الأنظمة الداخلية فى المنزل لتواكب العصر الحديث .

وبعدما كنا نرى قديمًا الأسرّة المصنوعة من الشجر لدى الأبخاز والتى كانوا يسمونها (أيفوا) ، وكذلك المقاعد الشجرية التى كانوا يسمونها (أرتيمز) أصبحنا لا نراها الآن ؛ فقد استبدلوها بالأثاثات الحديثة .

وإذا ألقينا نظرة على أشكال المعمار فى وقتنا الحاضر ، نجد أنه فى المنازل المكونة من طابقين يكون ارتفاع الطابق الواحد حوالى ثلاثة أمتار ، ونوافذ الغرف

تكون دائمًا مكونة من جزأين ، وأن ألوان هذه النوافذ واحدة يغلب عليها اللون الأبيض وكذلك اللون المائل للصفرة ، ولهذا نجد جميع الغرف تبدو مضيئة ؛ فالغرف العادية تضاء بمصباح واحد ، أما غرف الضيوف فتضاء بواسطة النجف الذى يحتوى على ثلاثة أو أربعة مصابيح .

إن جميع الأشياء الموجودة فى غرفة الضيوف مخصصة للضيوف فقط ، ولا تستعمل فى الحياة اليومية ، وإذا أردنا الصعود من الطابق الأسفل إلى الطابق الأعلى ، فلا يوجد سلم من الداخل ولكن يوجد سلم حديدى أو خرسانى من الخارج . هناك ظاهرة جديدة قد انتشرت فى هذا المجتمع ، وهى أن الأهالى أصبحوا يشترون حوائجهم ومستلزمات منازلهم من الخارج على الرغم من أنه فى أيامنا هذه ، نصادف أحيانًا أشياء منزلية تقليدية فى بعض المنازل العتيقة كالطاولة أو المنضدة مثلاً ، وكذلك المفارش ؛ فعلى سبيل المثال هناك رجل يدعى (دبارق مانيا) وجد فى منزله جميع الأشياء المنزلية من عمل يده ، فهو فى الخامسة والثمانين من عمره وهو من قرية (بلابرجهوا) ؛ فمفارش الطاولات والأسرة والبياضات والملاءات والمناشف والأحزمة والأغطية المختلفة كانت من صنع يده .

ومن الملاحظ فى الآونة الأخيرة أيضًا أنه حدث تطور فى نظم معيشة الشعب من خلال رؤيتنا للآلات الكهربائية المستخدمة فى المنازل كالمكواة والثلاجة والمكنسة الكهربائية ، وكذلك المكتبة المليئة بالكتب الحديثة والبوفيه والمذياع والتلفاز إلى جانب آلة البيانو ، التى أصبحت من الأشياء الضرورية فى المنزل الحديث ؛ فهذه المستلزمات التكنولوجية انتشرت بين القرويين وأهل المدينة على حد سواء .

إن الشراكسة الذين أقاموا فى تركيا بعد المنفى ، نقلوا طريقة معيشتهم التى كانوا يعيشونها فى القوقاز ، وكذلك فن العمارة إلى الأماكن الجديدة التى انتقلوا إليها؛ فمواطن إقامتهم فى تركيا مثل مواطن إقامتهم فى شمال القوقاز؛ فلقد أنشأوا قرى صغيرة مكونة من خمسين إلى ستين منزلاً كانوا يطلقون عليها (هابلة) ، وكذلك أنشأوا قرى كبيرة كالتى توجد فى القوقاز تمامًا، منها على سبيل

المثال : قرية الأفطنية التى تدخل فى عداد القرى الكبرى ؛ فهى تتكون من سبع قرى صغيرة مثل : قرية (زكريا) وقرية (آلبيز بك) وقرية (حاجى سليمان بك) ، وقرية (قوراق) وغيرها ، وأيضًا هناك ثلاث قرى كقرية أسماء هانم الكبرى وقرية ديلاور ، وقرية دافوتاجا.

وإذا كنا قد رأينا أن أناسًا من عائلات مختلفة يعيشون فى هذه القرى ، كما ذكرنا عند الحديث عن أبخازيا ، فإن سكان قرية"دافوتاجا" الأصليين هم من عائلة واحدة هى عائلة (أيودزا) . أما قرية أسماء هانم فيعيش بها عائلتان كبيرتان هما: عائلة قاب وعائلة صوقتار .

وإذا ما حاولنا النظر فى فن العمارة الشركسى فى تركيا فى وقتنا الحاضر ، وجدنا أن هذا النظام القادم من القوقاز قد انمحى وزال تمامًا ، لأن المهاجرين الذين جاءوا فى البداية قد أخذوا نظام فن العمارة الموجود فى تركيا وعلى الأخص الموجود فى إستانبول بدلاً من فن العمارة الشركسى ؛ حيث قاموا ببناء منازلهم الداخلية وفقًا لاحتياجتهم مخالفين بذلك النظام التقليدى الذى كانوا يتبعونه ، فإلى جانب التغييرات الكبيرة فى نظام المنزل المعمارى ؛ فقد كان نظام الحديقة موقوفًا على كل صاحب منزل حسب مزاجه الخاص ؛ فعلى سبيل المثال لا يوجد عادة إقامة فناء للمنزل عند الأبخاز وكذلك عند الشراكسة ، كما هو موجود عند الأتراك ، ولكنهم يبنون منازلهم فى وسط الحديقة الواقعة بعيدًا عن الطريق ، ليس من أجل ألا يرى أحد منازلهم من الخارج ، ولكن على العكس فهم يفضلون أن ترى منازلهم من الخارج ؛ فهم لا يسعون إلى أن يخفوا الحديقة بواسطة حوائط وأسوار عالية ، ولكنهم يحبون أن يخفوا أجزاءً أخرى من المنزل مثل حظيرة الحيوانات ، وكذلك المطبخ عن أعين المارة .

ومن اللافت للنظر أنه لا توجد للحيوانات أية علاقة بحديقة المنزل ؛ فمدخل حظيرة الحيوان من خلال طريق خاص بها ، والمنزل كما هو الحال فى عادات شعوب القوقاز القديمة معدّ دائمًا للضيافة ، وهو فى كل وقت مجهز لاستقبال الضيوف .

وقد قام العالم (ى - أجونه) بوصف الملابس الأبخازية بقوله : " بعد إعلان جمهورية أبخازيا حدثت عدة تغيرات جذرية فى نظام الملبس ؛ حيث أخذ الأبخاز يرتدون ملابس (آصبوا قوميو) وآقابا التى هى من الملابس القومية ، وظلوا يرتدون السروال الأبخازى والحذاء الجلدى والحزام الفضى والقلنسوة إلى غير ذلك ، ولكن اعتباراً من عام ١٩٣٠م، حدثت تغيرات سريعة فى نظام الملبس الأبخازى؛ فبعد الحرب العالمية الثانية ، على الرغم من أنهم قد تركوا هذه الملابس تماماً ، فقد صادفنا بعض الأبخاز فى المناطق المنعزلة أو المهجورة ، يلبسون هذه الملابس ، لاسيما الشيوخ الذين لا يزالون يرتدون هذه الملابس حتى الآن .

ومن الملاحظ أيضاً فى وقتنا الحاضر أن كبار السن عندما ينزلون ضيوفاً عند أحد ما، فإنهم يرتدون الملابس الأبخازية القومية (السروال الأبخازى ، والأحذية الجلدية ، والأحزمة الفضية ، والقبعات، والعمامات) ؛ ففى الصيف مثلاً نجدهم يرتدون الملابس القصيرة المشقوقة من الأمام ، أما الشيوخ فإنهم يشتركون فى الاجتماعات بملابسهم القومية ؛ ففى فصل الشتاء مثلاً نراهم وهم يتجولون بالخيول مرتدين المعاطف المضادة للمطر، والتى يطلقون عليها " يامجى" ، أما الشباب فهم لا يرتدون هذه الملابس إلا فى الاجتماعات ذات الصبغة القومية ، أو فى الحالات المشابهة ، ويشترون الملابس الصناعية مثل معظم الناس ، لأنها رخيصة بالمقارنة بالملابس اليدوية .

وهكذا بعد أن أصبحت الملابس القومية تباع فى المحلات للهواة ؛ فلا داعى لأحد أن يشترى قماشاً ويذهب به إلى حائك ؛ فالبياضات الداخلية والأحذية والملابس الشتوية والصيفية أصبحت تباع فى جميع المحلات . وإذا نظرنا إلى ملابس السيدات ؛ فقد حدثت بها تغيرات جذرية أيضاً ، وأصبحت السيدات يرتدين الملابس الصناعية . وإذا نظرنا إلى المرأة الشركسية ، وجدنا الكثيرات منهن يرتدين حتى الآن الملابس التقليدية القديمة ، ولا يرتدين التنورة القصيرة أو الملابس المكشوفة الذراعيين ، كما يشاهد أيضاً بعض السيدات يضعن غطاءً على رؤوسهن ، حتى إن بعض

السيدات المسنات كنّ يضعن على وجوهن خمارين فوق بعضهما ، لكن هذا لا ينطبق على الفتيات المتعلمات ؛ فهن يلبسن وفقًا لظروف العصر الذى يعشن فيه ، وخلاصة القول فإن الرجال والسيدات شبابًا وشيوخًا قد اعتادوا على ارتداء الملابس الصناعية، التى كثرت وتنوعت بالنسبة للسيدات وللرجال .

لقد حافظ الشعب الشركسى على قيافته حتى وقتنا الحاضر ؛ فعلى سبيل المثال فإن الملابس التى يرتدينها السيدات فى حفلات الزواج لا يرتدينها فى المآتم أو الجنازات ، لأنها براقة وجذابة ، بل يرتدين الملابس القاتمة اللون الخالية من النقوش ، وكذلك الرجال فإنهم لا يرتدون الملابس الفاتحة أو المزركشة فى هذه المناسبة ، حتى إن الفتيات الشابات حتى عهد قريب كنّ لا يرتدين الملابس البيضاء حتى فى أثناء عرسهن .

وبعد الحرب العالمية تغير الحال ؛ حيث وجدنا العرائس قد بدأن أولاً فى وضع خمار أو غطاء أبيض على وجوههن بدلاً من الغطاء الأسود ، ثم فجأة وجدناهن يرتدين فساتين الزفاف البيضاء ؛ حيث كانت العرائس الأبخازيات هن أول من ارتدين فساتين الزفاف البيضاء بين الشعوب الشركسية الأخرى ، التى بدأت فى تقليد الأبخاز بعد ذلك فى هذه الموضة الحديثة . ووفقًا لمعتقدات بعض هذه الشعوب ؛ فإن اللون الأبيض هو رمز الحظ ، كما هو موجود عند كثير من شعوب العالم .

ومن العادات الموجودة لدى الأبخاز أيضًا عادة (الحداد) أو ترك اللهو من أجل المتوفى ؛ حيث نجد أقارب المتوفى وأصدقاءه ذكورًا وإناثًا يتركون اللهو من أجل الميت ، وخصوصًا إذا كان هذا الميت طفلاً أو شابًا ؛ ففترة الحداد عند السيدات أطول منها عند الرجال ؛ فحداد الرجال يستمر أربعين يومًا أما حداد النساء فيستمر حوالى عام ، لاسيما إذا كان المتوفى صغيرًا ، ومن الممكن أن تستمر فترة الحداد لدى النساء أكثر من عام ، وفى أثناء هذه الفترة فإنها ترتدى ملابس خاصة بالحداد ؛ حيث تبالغ السيدات فى ملابس الحداد أكثر من الرجال .

لم يحاول الأبخاز أن يغيروا شيئًا من عاداتهم وتقاليدهم فى أثناء الحكم السوفيتى ، لاسيما أعرافهم وأطعمتهم ، بل قويت هذه العادات وازدادت انتشارًا أكثر من ذى قبل ؛ فعلى سبيل المثال ، مازلنا نرى الأبخاز يحافظون على خبزهم المفضل (آبيستة) المصنوع من دقيق الذرة ؛ فهو الخبز الشعبى لدى الأبخاز سواء فى القرى أو فى المدن ؛ حيث لا تزال تزدان المائدة الأبخازية بهذا الخبز، وإلى جانب (الآبيستة) نجد أيضًا الزبادى والجبن واللحم والدجاج والسمك والأطعمة المملحة والمقبلات (الطرشى) وغيرها . كذلك هناك نوع آخر من الخبز المصنوع من دقيق الذرة الشامية الذى لايمكن الاستغناء عنه على المائدة الأبخازية أيضًا ؛ حيث يطلقون عليه أسماء مختلفة مثل: آجاج والخالوج والأجهارج والآجامجيمطة والآقوقار والآقوهواج والهوا وغيرها.

هناك أيضًا عادة أو صفة يتصف بها الأبخاز ، وبخاصة المسنون منهم أو الشيوخ ، وهى أنهم يفضلون الأطعمة المملحة والحارة عن الأطعمة الأخرى ، وعلى الأخص المصنوعة من الفاصوليا ولحم الدجاج وعصير الطماطم والمقبلات (المخللات) كالخيار والكرنب والخرشوف ؛ فهذه الأطعمة هى الرئيسية على المائدة الأبخازية ، وإلى جانب هذه المأكولات هناك الفلفل الأحمر ودقيق الذرة الشامية والملح والأعشاب ذات الرائحة كل هذا يسحق ليصنع خليطًا باسم "آبير بيلجيقا" ؛ فهذه الوجبة قد اشتهرت خارج أباظيا ، ووجدت زبائن ومحبين لها فى كثير من الجمهوريات السوفيتية ؛ حتى إنهم فى السنوات الأخيرة قد أدمنوا هذه الوجبة .

والأبخاز بصفة عامة يفضلون دائمًا منتجات الألبان واللحوم وعلى الأخص اللحوم ؛ فهى عادة لها جذور موغلة فى القدم ، لاسيما أنها تقدم للضيوف إما مسلوقة أو مملحة أو مقلية إلى جانب لحوم الدجاج التى لا تقل أهمية عن لحوم الحيوانات ، أما الأطعمة اليومية المعتادة فهى الجبن والفاصوليا والمقبلات (المخللات) والزبادى وغيرها ، إلى جانب العصائر التى اعتادوا على شربها عند الطعام وهى عصائر مصنوعة من

عنب الإيزابيلا، أما الشراب الخالى من الكحول أيضًا ، فهو اللبن الرائب وماء العسل وعصائر الليمون والمياه المعدنية التى لا تكاد مائدة أبخازية تخلو منها .

هناك أطعمة أخرى وحلويات تقليدية أهمها عسل النحل الذى يعد الوجبة المفضلة ؛ فكما يؤكل وحده يؤكل أيضًا مع خبز القمح أو الذرة ؛ حيث يضيفونه إلى الأرز المطبوخ باللبن والزبادى ؛ كما يصنعون به الحلوى وشراب العسل أيضًا .

هناك خاصية تفردت بها النساء الشركسيات أيضًا ؛ وهى أنهن يقمن بصناعة (الدبس) من الفواكه المختلفة ، ليقدم عصيرًا عند كل طعام أو للضيوف .

يمتاز السوق الشركسى بأفضل الخضر وأنقى أنواع الفاكهة كالخيار والقرع العسلى والبطيخ ، والفاصوليا والسفرجل والتفاح والكمثرى والكريز والتين والعنب والنقل (الياميش) بأنواعه كالفستق واللوز وغيرهما ؛ حيث تنتج هذه الأشياء بكثرة ثم تجفف .

وإلى جانب هذه الفواكه التى ذكرناها ، استحدثت بفعل الهندسة الوراثية فواكه جديدة لم تكن موجودة عندهم ؛ فمن التفاح مثلاً وجدنا أنواعًا جديدة أطلق عليها الشامبانت والماثيوى والآبورت .

وإذا نظرنا إلى داخل المنزل الأبخازى ، نجد أن أول ما يلفت النظر فى هذا المنزل المدفأة ، تلك المدفأة التى تشبه إلى حد كبير المدافئ القديمة ؛ حيث تظل مشتعلة فى فصل الشتاء .

وإلى جانب منازلهم التى كانوا يطلقون عليها اسم "آقوآسكا" فإن للقرويين الأبخاز منازل أخرى للخدمة والتى يعدون فيها الطعام ، ثم يأتى أهل المنزل ليأكلوا فيها ؛ فلدى جميع العائلات الأبخازية مائدة طعام تتسع لأكثر من عشرة أشخاص أو اثنى عشر شخصًا، وفى الأعوام الأخيرة رأينا الأبخاز وقد أقاموا نزلاً خاصًا

بالضيافة يجتمعون فيها فى السراء والضراء ؛ حيث يمكن أن يأكل فى هذه النزل ما يقرب من مائتى شخص دفعة واحدة .

هناك أيضًا بعض القرى الشركسية التى أحيت مرة ثانية عادة تجفيف اللحوم والجبن على المدفأة ، والتى كانت قد نسيت أو أهملت من قبل وكانوا يسعون من وراء ذلك إلى إحياء عادة أبخازية جميلة من وجهة نظرهم ؛ فعلى الرغم من أن الفلاح الأبخازى لايمتلك أرضًا واسعة ، لكنه يمتلك منزلاً واسعًا إلى حدما وبداخله حديقة جميلة مليئة بأشجار الفاكهة للجلوس تحتها والاستمتاع بفاكهتها ؛ فعندما تقترب من المنزل الأبخازى تجد منزلاً جميلاً مكونًا من طابقين وحديقة جميلة وبجوار المنزل يوجد منزل للخدمة أيضًا والذى ذكرناه من قبل ؛ ففى جزء منفصل عن الحديقة بطول المنزل توجد حظيرة للحيوانات وقن لتربية الدواجن ، كما توجد صومعة لتخزين الغلال والخضروات والفاكهة ؛ فعندما يتوجه الإنسان تجاه المنزل ؛ فأول ما يواجهه باب حديقة مصنوع من الحديد أو من الخشب، فلقد اهتم الأبخاز فى السنوات الأخيرة بهذا الباب وجعلوه أكثر جمالاً مما كان عليه من قبل ، وإلى جانب هذا الباب ، يوجد باب صغير لدخول وخروج أهل المنزل ، كما توجد أبواب صغيرة أخرى من أجل الدخول من حديقة المنزل إلى حديقة الخضروات أو إلى حدائق منازل الجيران ، و بصفة عامة فعند الذهاب لزيارة الجيران لابد من الدخول من الباب الرئيسى .

وفى جمهورية أبخازيا تتعدد أنواع الفاكهة كالتفاح والكمثرى واليوسفى الذى يُنتج بكثرة أما الأطعمة المشهورة فهى الشوربة واللحم والياخنى ، ومن أنواع الحلوى أيضًا فطائر الجولاش والباسطة التى هى من الحلويات المشهورة بين هذه الشعوب ، والشاى ينتج بنسبة كبيرة فى جمهورية أبخازيا وهو من النوع الجيد ، لكن الناس لايقبلون عليه كثيرًا . ولقد اعتاد سكان المدن من شعب الأبخاز على أطعمة الشعوب الأخرى وأخذوا يستهلكونها بكثرة إلى جانب أطعمتهم القومية ، وكذلك الشعوب الأخرى بدأت تقبل على المطعم الأبخازى كالأرمن والروم والروس ، الذين

استهوتهم الأبيستة والجبن والآباظية والزبادى والعنب الملح وغيرها من المأكولات الأخرى ؛ حيث سبقهم فى ذلك الجورجيون الذين اعتادوا على هذه الأطعمة منذ وقت طويل .

بدأ المطبخ الأبخازى بجذب السياح الذين يفدون على بلادهم ، وأكبر دليل على ذلك هو استهلاكهم للأطعمة الأبخازية بكثرة فى المطاعم السياحية ؛ وهذه هى أسماء المطاعم السياحية التى تقدم الأطعمة الشعبية الأبخازية للسياح :

١ - بيزبطة.

٢ - خيبستة .

٣ - أفوراتصوى بيجورا .

٤ - أشيرا .

٥ - نارتا.

٦ - ماركهادل .

٧ - آراضو .

٨ - أرصافخو .

هذه المطاعم هى التى تروج للأطعمة الأبخازية أسماؤها مشتقة من أسماء الأطعمة ؛ فهذه الأطعمة المتنوعة وتقاليدها موجودة بكثرة فى جمهوريات القوقاز الجنوبية والشمالية .

وفى وقتنا الحاضر ، وجدنا كثيراً من العلماء قاموا بجهود مكثفة للتعرف على سر طول أعمار الأبخاز ؛ حيث أجمعوا على أن المناخ ، وكذلك العلاقات الاجتماعية والاقتصادية وكذلك نوعية الأطعمة الأبخازية هى سر طول أعمار هذه الشعوب ؛ فالعسل والزبادى وزيت الجوز وأكلة البيريبلجيقا المشهورة ، وكذلك الأطعمة القومية الأخرى لها تأثير كبير على طول أعمارهم .

وفى ضوء كل هذا يمكننا القول بأن المطبخ الأبخازى هو سبب إطالة أعمار هؤلاء الأبخاز ، ومن أجل هذا فإنه تبذل المساعى الكبيرة من أجل بعث المطبخ الأبخازى مرة ثانية وإحيائه فى وقتنا الحاضر .

(د) الحياة الاجتماعية عند الشراكسة :

بعد الاحتلال السوفيتى لشمال القوقاز طرأت بعض التغيرات على الثقافة القومية ، كما حدثت بعض التغيرات الجذرية على حياة العائلة الشركسية ؛ حيث هجرت العادات المترسبة من عهد الإقطاع وحل محلها عادات عصرية وسَّعت من آفاق المجتمع .

إن نظام الحياة الاشتراكية جلب معه أسلوبًا جديدًا للحياة العائلية ؛ فلكى نتعرف على التغيرات التى حدثت مع الثورة الشيوعية وأثَّرت على بناء العائلة الشركسية ، ينبغى علينا أن نلقى نظرة على بناء العائلة قبل قيام هذه الثورة .

كما هو معروف فإن تكوين السياسات الاجتماعية المرتبطة بحياة العائلة وكذلك نظام العلاقات الداخلية للعائلة متعلق بعدد أفراد الأسرة مباشرة ؛ فنظام المجتمع المختلط فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر وكذلك نظام العائلة المبنى على سلطة الأب ، والتأثيرات السلبية للإقطاع ، كان لكل هذا أثره فى إدخال اقتصاد العائلة إلى طريق مسدود . من هنا اجتهد الناس لكسب أرزاقهم من الزراعة وتربية الحيوان ؛ فليس لديهم مصادر دخل أخرى ، فى ظل هذا ظهرت طبقة إقطاعية تميزت عن هذا الشعب الكادح .

وفى القرن التاسع عشر ، رأينا غالبية الشعب الشركسى يعيشون عيشة جماعية مشتركة؛ حيث فرضت عليهم خصائص تلك الفترة أن يعيشوا عيشة تغلب عليها حياة الجماعة ، بمعنى أن تعيش العائلة الشركسية تحت سلطة الأب المطلقة فى منزل واحد ،

حتى ولو كان عدد أفراد العائلة كبيراً ؛ فبناء هذه العائلة يتكون من الأب والأم والأبناء والأحفاد؛ فالأبناء حتى إذا ما تزوجوا وأسسوا منازل منفصلة فلا يقطعون علاقاتهم بمنزل الوالد (الأب) الذى يطلق عليه بيت العائلة ؛ ففى هذه المنازل الكبيرة وحتى أوائل القرن العشرين كنا نرى أن ثلاث أو أربع عائلات يعيشون فى منزل واحد ؛ وعلى سبيل المثال : " فى منزل آجوماخاقوج من أهالى قرية دربيش هناك تسعة إخوة من أبناء هذا الرجل يسكنون معًا هم وعائلاتهم وأولادهم الذين يبلغ عددهم ثلاثة وستين فرداً " ، وكذلك مَنْ يُدعى آبيج بنيا من أهالى قرية "برميش" يسكن هو وأبناؤه الأربعة فى منزل واحد ؛ حيث تتكون هذه العائلة من اثنين وثلاثين فرداً تحت سلطة هذا الرجل ، وكذلك مَنْ يُدعى آجينجال قالامات من أهالى قرية بديا يسكن هو وأولاده وأحفاده ، الذين يبلغ عددهم اثنين وعشرين فرداً فى منزل واحد.

ونرى فى هذه العائلات الكبيرة أن السلطة الحقيقية فى يد الجد؛ فهو مسئول عن كل شىء ، وهو الذى يقبض على زمام العائلة بيد من حديد ، وهو الذى يجمعها ، ولا يمكن أن يؤخذ قرار يخص العائلة دون الرجوع إليه ؛ فتأثير الجد الكبير ليس على العائلة فقط ، بل على إخوته الذين هم أصغر منه وعلى عائلاتهم وأبنائهم وأحفادهم. وعند موت كبير العائلة هذا يتجمع أفراد العائلة حول أكبر أولاده ويكونون عائلة كبيرة من جديد صانعين الترتيب الهرمى نفسه ، إلا أن المنزل الذى ستعيش فيه هذه العائلات لابد أن يكون قريبًا من منزل العائلة القديم الذى كان يعيش فيه الجد الأكبر ؛ فعلى الرغم من انفصال الإخوة كل فى بيت مستقل ، فإنهم بعد وفاة الأب يستمرون فى المشاركة فى الثروة فترة طويلة ؛ فعند تقسيم هذه الثروة ميراث الوالد من نصيب الأولاد الذكور فقط ، وليس للبنات حق فيه ؛ فالبنات يعشن فى بيت الوالد أو الإخوة الذكور حتى الزواج ؛ فالثروة التى يمكن لهن الحصول عليها هى ملابسهن وحليهن وشوارهن فقط .

ونرى أن الوالد والإخوة الذكور يظهرون العناية الكاملة بالفتيات من ناحية الجهاز والملبس وكل شىء يتعلق بالمنزل الذى سيذهبن إليه ؛ ولا يفوتنا أن نبين أن حياة

السيـدات فى هذه العـائلات الصـغـيرة هادئة وليـس فيها أى نـوع من أنواع التكلف أو البزخ الملحوظ .

هناك ظاهرة أخرى استمرت حتى النصف الثانى من القرن التاسع عشر ، وهى ظاهرة عـدم ذهاب الأزواج الذكـور للفـحص فـى المسـتـشـفـيـات أو فى المصـحـات المتخصصة ، لأن هذا من وجهة نظرهم أمر يدعو للخجل ، ومعنى هذا أن سلطة الأب وتحكمه فى الأبناء كان لها الأثر الكبير، وإلى جانب هذا فإن الرجل الذى يذهب إلى المستشفى ليس له الحق فى القرارات التى تُتخذ داخل العائلة التى يعيش فيها ، فى مقابل هذا ؛ فإن الزوجة تكون هى صاحبة الكلمة والقرار .

إن نظام العائلة الشركسية المبنى أساساً على السلطة المطلقة للأب ، والتى كنا قد تحدثنا عنها من قبل ، كان له دور فى بقاء الأبخاز مستعمرين من قبل العثمانيين قرابة ثلاثة قرون .

ففى النصف الثانى من القرن التاسع عشر ، وبعد الهجرة المأساوية للشعب الشركسى، لاسيما بعد الإصلاحات التى طرأت على هذا الشعب ؛ بدأت سياسة الاقتصاد الرأسمالى تتغلغل فى شمال القوقاز ؛ فعلى الرغم من أن الشراكسة قد أظهروا عناداً وصموداً فوق العادة فى مواجهة هذه السياسة ، لكنهم وقفوا عاجزين أمام هذا التيار الجارف ؛ حيث رأينا العائلات التى كانت تعيش تحت سلطة الأب قد انقسمت بسرعة وتفرقت وصارت عائلات صغيرة ؛ كما رأينا فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر ، بينما كان متوسط عدد أفراد العائلة الشركسية عشرة أشخاص قد بلغ فى نهاية هذا القرن أربعة أو خمسة أشخاص ؛ وقلة عدد أفراد العائلة ليس بسبب تأثير الرأسمالية فقط ، ولكن بسبب هجرات الشراكسة من وطنهم الأم التى كان لها الدور الرئيسى فى هذا الخصوص. وفى أوائل القرن العشرين بدأ متوسط عدد أفراد العائلة فى الازدياد مرة ثانية .

فعلى سبيل المثال : وفقًا لسجلات عام ١٩٢٦م؛ فإن متوسط عدد أفراد العائلة عند الأبخاز قد ارتفع إلى ثلاثة أو خمسة أفراد، وفى الإحصاء السكانى لعام ١٩٥٩م رأينا أن هذه النسبة قد انخفضت مرة ثانية وقد أصبحت الإحصائية الجديدة ٤,٤ ٪ .

وفى عصرنا الحاضر فإذا نظرنا إلى متوسط عدد أفراد العائلة فى الشعوب ، التى تعيش فى جمهورية أبخازيا نرى أن الأبخاز هم أصحاب أعلى نسبة فى عدد أفراد العائلة ، فوفقًا لإحصائيات عام ١٩٧٦م ، كان متوسط عدد أفراد العائلة عند الأبخاز (٤ -٧) وعند الجورجيين (٣-٤) وعند الأرمن (٢-٤) ، أما عند الروس (١-٣) فقط ، ومثال ذلك فى عام ١٩٦٣م فى قرية آتارا من أعمال مقاطعة أوجامجيرا ؛ فإن العائلات المكونة من ثلاثة أفراد تمثل ٣١٪ من المجموع العام للسكان، أما العائلات المكونة من فردين اثنين فكانت تمثل ٦٠٪ من عدد العائلات بوجه عام .

وإذا نظرنا إلى العائلة الشركسية ؛ فإن كثرة عدد أفرادها يعدّ إيجابيًا بالنسبة لهذه العائلة ؛ فالعائلة الثنائية كما ذكرنا من قبل هى التى تمثل الأب والابن والأحفاد بمعنى أن نظام العائلة التى تعيش معيشة جماعية مكونة من الأب والابن والأحفاد هى التى تمثل الغالبية العظمى . أما العائلة الثلاثية فتتكون من أب وولدين وعائلاتهما ، وهى تلاحظ بكثرة فى العائلات التى يكون عدد أفرادها قليلاً ؛ لأن زيادة عدد الأولاد يستلزم الانفصال الإجبارى .

وأحيانا نرى بعض الإخوة فى العائلة يذهبون إلى المدينة للدراسة أو العمل ، وأحيانًا يبقى أحدهم للعمل بجانب والده ، لاسيما إذا لم تكن لديه الرغبة فى الدراسة أو التعلم ، أما فى عصرنا الحاضر ؛ فإن إقامة شخص متزوج فى العائلات الشركسية مع والده يعد من الحالات النادرة ؛ فعلى الرغم من مصادفتنا أحيانًا إقامة أكثر من أخ فى منزل واحد ، فإن هؤلاء الإخوة يكونون مستقلين عن بعضهم بعضًا من الناحية الاقتصادية وكذلك من ناحية العمل ، ولكن عند قدوم ضيف أو فى مواجهة ظلم أو جور يأتى لهم من الخارج تجدهم يدًا واحدة .

وإذا حاولنا إلقاء الضوء على حياة العائلة من الداخل ؛ فإنه بسبب الحكم السوفيتي انمحت بعض العادات والتقاليد التي اعتاد عليها الناس من قبل ؛ وعلى سبيل المثال عدم التحدث مع العروس بعد خطبتها أو إعطائها نقوداً أو خطف البنات وإخفاؤهن أو أعمال السلب ، أو حتى الأسماء ، كل هذه العادات قد تغيرت وانمحت معها مشكلات الثأر التي كانت منتشرة فيما بينهم ، كما زال أيضًا التأثير القديم لرجال الدين الذين حققوا من وراء هذا منافع كثيرة بسبب جهل الشعب.

ومن العادات التي تغيرت تغيراً جذرياً أيضًا من نظام العائلة بوجه عام هو القضاء على سطوة أو سيطرة الرجل في العائلة ، أما الأرملة التي مات عنها زوجها، فقد كانت سطوتها قوية في العائلة حتى على أولادها المتزوجين.

فالزوج مثلاً لا يستطيع أن يوائم بين نفقات المنزل وبين دخله دون مشورة زوجته لأنها أكثر خبرة وصلاحية في هذا الشان ؛ فالمرأة تستطيع أن تعمل في كل عمل يعمل فيه الرجل ، كما تستطيع أن تحقق تفوقًا ومهارة في أي عمل تكلف به ، حتى إنها أحيانًا تكتسب أموالاً أكثر من زوجها ؛ باختصار فإن المرأة الشركسية في عصرنا الحاضر صاحبة مكانة محترمة في العائلة والمجتمع.

ومن الملاحظ في المجتمع الشركسي أيضًا ، أن العائلات الكبيرة ما زالت تحافظ على العادات والتقاليد القديمة ؛ حيث كان للشيوخ الدور الرئيسي في هذا ، كما كان للجهل وانعدام المستوى الثقافي دور أيضًا في هذا الشأن.

وإذا نظرنا إلى المنزل الشركسي من الداخل ، نجد أن العروس حتى الآن لا يمكن أن تتحدث مع أحد ولا تجلس ولا تأكل الطعام مع الحاضرين ؛ فهي تتصرف بحياء شديد حتى داخل منزلها ، كما لا تدخل إلى الشيوخ حتى مع زوجها ؛ فالذي يحافظ على هذه العادات الآن هم أقلية صغيرة جداً ؛ لأن الغالبية العظمى من الشعب قد سايروا الحياة العصرية الحديثة ؛ فوسائل الإعلام المسموعة والمرئية والصحافة ، وكذلك المسرح كان لها أبلغ الأثر في التطور الثقافي للشعوب الشركسية ؛ حيث تغلغلت تأثيراتها على أهل المدن و أهل القرى على حد سواء ؛ فعدد

العائلات الشركسية التى تعيش فى المدن فى عصرنا الحاضر أكثر من التى تعيش فى القرى ولكن معظم هذه العائلات جذورها قروية ، ولذلك حافظوا على علاقاتهم بالقرى التى رحلوا عنها ، لاسيما علاقات "التعاون أو التضامن الاقتصادى" ؛ فأصحاب الجذور القروية الذين يعيشون فى المدينة كانوا يحصلون من القرى التى رحلوا عنها على احتياجاتهم الضرورية من مأكل ومشرب ، وفى مقابل ذلك لم ينسوا واجبهم نحو تطوير قراهم التى نزحوا عنها ؛ فهذه العلاقات المتبادلة كان لها أبلغ الأثر فى تقوية العلاقات الثقافية بين أهل القرى والمدن ، فالشعوب الأخرى من سكان شمال القوقاز يغبطون غيرهم من سكان هذه المنطقة على روابطهم وعاداتهم القومية الأصيلة، التى تعتمد على الاحترام المتبادل وكذلك الحب والتضامن ويتمنون أن يكونوا مثل أقرانهم الشراكسة .

إن التطور الاقتصادى والاجتماعى للشراكسة قد سار فى الخط الموازى نفسه مع الشعوب الأخرى ؛ فالتطورات الاقتصادية تلاحظ فى كل شكل من أشكال المنزل الحديث من شكل الغرف ومن الملبس والمأكل والمشرب .

وإذا نحن ذهبنا إلى شمال القوقاز ، لشاهدنا الأراضى والبساتين الواسعة التى يمتلكها الفلاحون ، التى تنتج أجمل الفاكهة والخضروات الطازجة التى اشتهرت بها الأطعمة الشركسية ؛ فعائلة كل فلاح تمتلك بقرة وعدة حظائر للطيور والحيوانات بنيت بالجهد والعرق حتى أصبحت منتجة ؛ فكل فرد فى العائلة الشركسية يقتسم العمل مع الأفراد الآخرين؛ والسيدة بوجه عام تقوم بإعداد الطعام والشراب ونظافة المنزل وغسل الملابس ورعاية الأطفال وزراعة الخضروات، وكل أعمال الزراعة كالجنى والحصاد وقطف الثمار؛ فهذه الأعمال التى تشترك فيها المرأة ليست سهلة ، كذلك تربى الطيور والحيوانات فى الحظيرة وتجمع الشاى والتبغ ؛ فهى على الرغم من أنها أضعف من الرجل ، لكن الرجل لا ينظف المنزل ولا يغسل الملابس ولا يرعى الأطفال ولا يجنى التبغ ولا الشاى .

عندما بدأ الأبخاز ينتجون الشاى فى عام ١٩٣٠م ، امتنع الرجال عن القيام بهذا العمل وهو جمع الشاى قائلين: "إن هذا العمل هو عمل السيدات فقط وليس من عمل الرجال " ، أما الآن فهم يقومون بمشاركة السيدات فى جمع الشاى أيضًا .

كان الشراكسة قديمًا يخجلون من بيع الخضر والفاكهة ؛ أما الآن فتجارة الفاكهة والخضر تعد عملاً مربحًا ؛ فهى من الأعمال التى تدر ربحًا كبيرًا على الأسرة الشركسية .

كذلك فإن حلب البقر قديمًا كان يعد عيبًا بالنسبة للرجل الشركسى ، أما الآن فهو عمل يشترك فيه الرجل والمرأة على حد سواء ، أما تربية الحيوانات فهى للرجال سواء فى الحظائر الخاصة أو فى المزارع الجماعية .

لقد كثر نشاط الشباب من الجنسين فى جميع فروع العمل ، ولم يخجلوا من العمل معًا فى حرفة دون حرفة أخرى، أما بالنسبة للأعمال التى تحتاج مجهودًا عضليًا فهى تقتصر على الشباب دون الشابات ؛ فإذا كانت الفتيات يساعدن أمهاتهن فى أعمال المنزل ؛ فإن الشباب يساعدون آباءهم فى جميع الأعمال ، إلى جانب الأعمال الأخرى التى يمارسونها فى أوقات فراغهم ، فمن عادة الشراكسة أنهم يلقنون الأطفال حب العمل منذ سن الخامسة أو السادسة ؛ وخاصية حب العمل التى تبدأ بمشاعر المساعدة للعائلة فى المقام الأول تتحول بعد ذلك إلى المجتمع عند الكبر ؛ فنحن نراهم أحيانًا يأخذون أطفال المدارس الابتدائية إلى أماكن العمل؛ ليزرعوا فيهم حب العمل منذ الصغر .

واليوم فإن ما يواجه الديموقراطية فى شمال القوقاز من الأعراف والتقاليد ربما أهمها احترام الكبير ؛ فعندما يأتى الكبير إلى أى مكان يقف الجميع على الأقدام، ويسرعون لمقابلته ومصافحته فى احترام تام تقديرًا لسنه ، والكل يسعى لمساعدته وتقديم واجب الضيافة له من مأكل ومشرب .

وقد ذكر كتَّاب القرن التاسع عشر هذه العادات الجميلة للشراكسة ، وعلى سبيل المثال "ياوجانى مارفو" الذى عرف الشراكسة بقوله :"هذا الشعب يتسم بخاصيتين

جميلتين هما "الشرف والروح النظيفة" ، ويقول الجورجيون عنهم أيضًا: "إن الأبخاز هم فرنسيو القوقاز"؛ فقلب القوقاز نظيف وطاهر وأهم خصلة من خصالهم أيضًا هى إكرام الضيف ؛ فهم يقابلون الضيف بقلب طاهر ونظيف .

وهناك مثل أبخازى قديم يقول :"إذا جاء ضيف إلى بيت أبخازى لا يسأله أهل البيت عن أصله أو فصله أو عمله ، حتى يكرموه دون سؤاله عن هذه الأشياء ؛ فعادة إكرام الضيف فى فترة الإقطاع كانت على أعلى مستوى ؛ حيث كان النبلاء يتجولون بلا عمل فكانوا ينزلون ضيوفًا على الأهالى مصادفة ؛ فيكرمونهم ويبذلون كل ما فى وسعهم فى سبيل خدمتهم" ، والآن وفى وقتنا الحاضر فقد انقرضت هذه العادة ولم يصبح أحد بلا عمل ؛ فعلى أية حال إذا جاء ضيف إلى شركسى حتى ولو كان أجنبيًا يفرحون به قائلين: "ليس من المهم أن نعرفك" ، ثم بعد ذلك يقومون بإكرامه إكرامًا كاملاً .

وكما هو معروف فإن الذى يكون المؤسسة العائلية هو حياة المشاركة بين الرجل والمرأة ؛ فالزواج عند الشراكسة مؤسسة قائمة على الاحترام المتبادل ، وهو سبب السعادة الأبدية ، ولذلك فمراسم الزواج عندهم لابد وأن تتم بفرح كبير ؛ فالشراكسة يعطون أهمية كبيرة لأفراحهم.

إن عادات الزواج لدى الشراكسة قد أصابها بعض التغيير ، لاسيما بعدما وطأ الاتحاد السوفيتى بأقدامه فوق أراضى القوقاز ؛ واليوم فإن الشراكسة لا يقفون حجر عثرة فى مواجهة الزواج كما كان يحدث قديمًا ، يرفضون العريس بسبب الحسب أو النسب ، والآن وفى وقتنا الحاضر نجد الشباب يتزوجون حسبما يريدون وكيفما يريدون دون النظر فى الأحساب والأنساب، المهم أن العروسين يريد كل منهما الآخر ، وحتى لو ظهرت فى بعض الأحيان أية عوائق ولو صغيرة ؛ فإنه فى النهاية نجد الشاب وقد تزوج ما يصبو إليها قلبه دائمًا .

وكثيراً ما يحدث تزاوج بين أشخاص من بلاد مختلفة ، ففى عام ١٩٣٦م ، فى مقاطعة "جودوتة" وجدنا ثلاثة من الأبخاز قد تزوجوا بثلاث فتيات من بلاد مختلفة، وقد حدث الشئ نفسه فى العام نفسه؛ حيث تزوج ستة أشخاص من فتيات من بلاد مختلفة وفى عام ١٩٦٦م وفى المدينة نفسها ، تزوج ستة عشر شخصًا من اثنين وخمسين قد لجأوا إلى هذه المدينة، واستقروا بها وتزوجوا بفتيات أبخازيات وهكذا .

هذا النوع من الزواج كان يحدث بكثرة فى أماكن اللجوء أو الهجرة ، وطبقًا للأبحاث التى أشارت إلى هذه الزيجات تقول إنه فى العائلات التى تزوجت فى أماكن اللجوء أو الهجرة كانت لغة المحادثة هى لغة البلد التى يقيمون بها ، فمثلاً فى شمال القوقاز كانت الروسية ، وفى تركيا كانت التركية ، وفى البلاد العربية كانت العربية على الرغم من صعوبتها ، وغير هذا فحتى لو كان الأم والأب من الشعب نفسه؛ فإن الأطفال الذين يعيشون فى الأماكن التى يولدون فيها يتحدثون بلغتها أكثر مما يتحدثون بلغتهم القومية ، ولا يوجد سن ثابت للزواج عند الشراكسة ، فعالم السلالات اللغوية البروفسير"ينال أيبا" ، فى كتابه الزواج عند الشراكسة وتاريخ الأعراف عند العائلة الشركسية ، يقول :"كان الشراكسة يزوجون البنات قديمًا فيما بين الخامسة عشرة والعشرين أما الشباب فإنهم يتزوجون فى أعمار تتراوح بين (٢٥-٣٥) سنة ، أما الباحث "قوجباريا" فقد حدد سن الزواج عند الشراكسة للبنات مابين (٢٥-٢٨) سنة وللشباب مابين (٣٥-٤٥) سنة ، ثم قال أيضًا بضرورة أن يحقق الشباب الاسم والشهرة حتى سن الزواج وإلا فلا يقبل ولا يصح زواجهم .

أما باحثو العصر الحديث فيخمنون بأن سن الزواج لدى الفتيات هو ما بين (١٨-٢٠) سنة ، أما الشباب فهو بين (٢٠-٢٥) سنة ؛ فالشراكسة الموجودون فى تركيا يزوجون البنات فى أعمار تتراوح ما بين (٢٠ -٣٠) سنة، أما الشباب ما بين (٣٠-٤٠) سنة.

إن أحد أسباب ارتفاع سن الزواج قديمًا وفقًا لعاداتهم أنه لا يمكن أن يتزوج الأخ الأصغر قبل أن يتزوج الأخ الأكبر بأى حال من الأحوال ؛ فكثير من الشباب

يضيعون أعمارهم هباء وهم ينتظرون زواج إخوانهم الكبار، ولهذا يبقى كثير من الشباب بلا زواج ، وبسبب الزواج المتأخر أحيانًا لا يستطيعون إنجاب الأطفال، وكثير من الشباب حتى وقتنا هذا نجدهم ينتظرون دورهم من أجل الزواج ، بعد زواج من يكبرهم .

هناك عادة أخرى أو (عرف آخر) يؤخر سن الزواج أيضًا وهو موت أحد الأقارب، ولنعطى مثالاً على ذلك ، فتاة مخطوبة يموت أحد أقاربها عنها وهى على وشك (الزفاف) فيؤجل زفافها ، ويستمر الحداد فترة طويلة، وبمجرد أن ينتهى ويحين وقت الزفاف ويبدأون الاستعداد لمراسم الزفاف يموت قريب آخر للفتاة ، ويبدأ الحداد الثانى فترة أخرى وهكذا يستمر هذا الحال حتى يكبر سن الفتاة المسكينة . واليوم فى شمال القوقاز سواء فى القرى أو فى المدن، بسبب هذه العادات نرى كثيراً من الشباب والفتيات بلا زواج حتى الآن .

ومن الصعب الاعتماد على الإحصاءات المتعلقة بالزواج ؛ لأن الشراكسة حتى وقتنا هذا على الرغم من قيامهم بعمل أفراح غاية فى البهجة، فإنهم لايقيدون هذا الزواج فى السجلات الرسمية . وبعد مرور عام على هذا الزواج، وعندما يأتى طفل يفكرون فى عملية التسجيل هذه ويقيدون أطفالهم فى السجلات الرسمية ، وسبب هذا أنه من أجل استخراج شهادة ميلاد للطفل لابد من وثيقة زواج .

ففى قرية دوربيش حدث ما يقرب من ستة وعشرين حالة زواج ، إلا أننا وجدنا أن أربع حالات فقط قد قامت بتسجيل نفسها والحالات الاثنتان والعشرون الأخرى لم يتم تسجيلها ، إلا بعد أن رزقت بأطفال بفترة طويلة ، وأيضًا فى العام نفسه وفى قرية "خواب" رأينا اثنتى عشرة عائلة قد سجلت نفسها فى سجل الزواج، هذه العائلات جميعها لديها أطفال ؛ حيث كان من بين الذين سجلوا أنفسهم فى هذه السجلات أناس تبلغ أعمارهم ما بين الخمسين والستين . وعلى سبيل المثال : فى عام ١٩٦٠م ، فى قرية "قولانيرخوا" وجدنا حالتى زواج قد سجلتا فى قيد السجلات إحداهما لسيدة تبلغ ستين عامًا ورجل يبلغ ثمانية وخمسين عامًا ، أما الحالة الأخرى فالسيدة عمرها

ستون عامًا والرجل ثلاثة وثمانون عامًا فعلى الرغم من أنهما قد تزوجا من قبل ذلك بكثير ؛ لكنهما لم يسجلا زواجهما فى السجلات .

وفى ضوء المعلومات التى أشرنا إليها فإننا نستطيع أن نقول إن متوسط سن الزواج عند الشركس من الصعب تحديده بسبب المغالطات التى يقوم بها الناس عند تسجيل أسمائهم فى السجلات الرسمية ؛ حيث يدلون عن أسمائهم بتواريخ خاطئة ، ولكن بالاستبيانات المعمولة مباشرة فى الوحدات السكنية الصغيرة نستطيع أن نحصل على نتائج قريبة من الصواب .

ووفقًا للسجلات الرسمية ، وجدنا فى قرية "بلابيرخوا" أن إحصائية المتزوجين فى خلال ثلاث سنوات أى فى عامى (١٩٦٥م - ١٩٦٧م) ، هى خمس عشرة حالة فقط؛ حيث يبلغ سن أصغر شاب من بين هؤلاء المتزوجين ستة وعشرين عامًا ، أما أكبر شاب من بين هؤلاء فيبلغ واحدًا وأربعين عامًا ، حينئذ يكون متوسط سن زواج الشباب ثلاثين عامًا ، أما بالنسبة للفتيات فأصغرهن تبلغ من العمر اثنين وعشرين عامًا ، وأما أكبرهن فتبلغ من العمر تسعة وثلاثين عامًا ، حينئذ يكون متوسط سن زواج الفتيات تسعة وعشرين عامًا .

إن النقطة التى تستوجب النظر فى هذا الخصوص هى أن الذين قد سجلوا أنفسهم فى السجلات الرسمية خمس عشرة عائلة ، ثلاث عشرة منها لديهم أطفال؛ حيث قامت هذه العائلات بتسجيل زواجها بعد عام واحد ومنهم بعد عامين ومنهم بعد خمسة أعوام .

هناك فروق واضحة حول سن الزواج فيما بين سكان القرى وسكان المدن وكذلك فى تسجيل زواجهم ، ولنأخذ مدينة "جودوتة" نموذجًا للمدن ؛ ففى عام ١٩٦٦م كان عدد العائلات الأبخازية التى سجلت زواجها فى هذه المدينة حوالى أربعين عائلة فقط ؛ حيث وجدنا أن من بينهم أربع عائلات فقط قامت بتسجيل زواجها بعد أن صار لهم أطفال ؛ حيث كان أصغر سن زواج بين الفتيات تسعة عشر عامًا ، وعند

الشباب عشرين عامًا ، فمتوسط سن الزواج للذكور فى المدينة أعلى منه بالنسبة لسكان القرية حيث يكون الشاب فى سن الواحد والثلاثين أما بالنسبة للفتيات فى المدينة فمتوسط سن الزواج هو ستة وعشرون عامًا ، فالسيدات فى المدن يظللن يحتفظن بأسمائهن ، حتى سن الثامنة والأربعين أى بعد زواجهن بعكس القرى فلا يمكن مصادفة هذا فيها .

فى ضوء المعلومات التى أشرنا إليها من قبل يمكن أن نعرف متوسط سن الزواج عند الشراكسة ؛ فعند الشباب مابين السابعة والعشرين والثلاثين ، عند الفتيات ما بين الخامسة والعشرين والسابعة والعشرين ؛ فهذه الإحصائيات مناسبة ومقبولة من أجل بناء العائلة الأبخازية والأديغية .

لقد أصبح متوسط سن الزواج لدى شعوب الشيشان والداغيستان منخفضًا جدًا، أما متوسط سن الزواج لدى الشراكسة الذين يعيشون فى القوقاز فهو أعلى من متوسط سن الزواج لدى الشعوب الأخرى التى تعيش فى هذه المنطقة ، وكما أن هذا قد قلل نسبة المواليد ، ومنع أيضًا زيادة السكان بنسبة كبيرة.

وهكذا بسبب الزواج المتأخر فإنه فى خلال مائة عام لم يأت سوى ثلاثة أجيال فقط ، أما مائة عام عند الشعوب الأخرى فإنه يعنى مجىء خمسة أو ستة أجيال ، وهكذا يمكن القول إنه قد زادت نسبة سكان الشعوب الأخرى التى تعيش فى القوقاز .

أما حالة الشراكسة الذين يعيشون فى تركيا فهى أسوأ من هذا بكثير ؛ ففى السنوات العشر أو الخمس عشرة الأخيرة فإن عدد سكان الشراكسة فى تركيا قد بدأ فى التناقص إلى حد كبير. وفقًا للإحصائيات التى قمنا بها فى بعض القرى أمثال قرية " أسماء هانم" وقرية "أفطنية "و"بيوك بيجقى " فإن من ٦٠٪ إلى٧٠٪ من السكان الذين تبلغ أعمارهم من عشرين إلى أربعين عامًا لم يتزوجوا بعد ، وأن من ٨٠٪ إلى٩٠٪ من أعداد المتزوجين ليس لديهم أكثر من طفل أو طفلين .

إن عادات الزواج وتقاليده عند الشراكسة نصادفها بكثرة فى آدابهم ؛ فقبل الخوض فى تفاصيل هذا الموضوع نرى أنه من الواجب أن نلقى نظرة على الملابثات الجديدة التى ولدتها ظروف العصر الحاضر .

هناك فتاة شابة على الرغم من مرور فترة طويلة على ثورة ١٩١٧م فإنها لم تستطع أن تتزوج بمَنْ تحب؛ لأنه كان ضد رغبة أبويها وأخيها ؛ لأن الزواج غير المرغوب فيه من قبل الأسرة يعنى جلب العداوات وكراهية الأقارب لفترات طويلة ؛ وعلى الرغم من أن هذه العادات التى من هذا النوع، مازالت موجودة حتى وقتنا هذا فإن الفتيات يمكنهن الزواج بمَنْ يردن ؛ فحتى إذا أخذت الفتاة رأى بعض أقاربها فإن القرار الأخير هو قرارها.

كانت فترة الخطوبة قديمًا تمتد من ثلاث إلى أربع سنوات ، ولكن فى وقتنا الحاضر يستطيع العروسان الزواج بعد شهرين أو ثلاثة من بداية خطبتهما ؛ حيث يضع كل من الشاب والفتاة المخطوبين خاتمًا فى يدهما للدلالة على خطبتهما ؛ فالفتاة لابد وأن تقدم هدية ثمينة لخطيبها والشبان والشابات الذين كانوا يتعرفون على بعضهم البعض فى الأفراح والاجتماعات قديمًا ، الآن يمكنهم التعرف على بعضهم البعض فى المعاهد والمدارس ؛ حيث صار التعارف فى الأفراح والاجتماعات من الأشياء النادرة فى وقتنا الحاضر .

ومنذ ما يقرب من عشر أو خمس عشرة سنة ، فإن المتزوجين طبقًا لعادات زواج الشراكسة قد قلت نسبتهم إلى حد ما ، أما فى وقتنا الحاضر فإنهم يأتون بالعروس إلى منزل الزوجية أولاً ، ثم بعد ذلك تستكمل (استعدادات) الزواج وتقام الأفراح بعكس ما كان متبعًا فى العهد القديم . فإشهار الزواج والدعوة إليه كانت قبل عشر سنوات تتم بزفاف العروس فوق الخيول من قرية إلى قرية ويقوم المنادى بإخبار أهالى هذه القرى ، أما الآن فالأمر قد اختلف تمامًا حيث يتم عن طريق طبع كروت الدعوات التى توزع على أصدقاء العمل والمدرسة الذين يأتون للمشاركة فى حفل الزواج . فعلى الرغم من أنه قد قلت عادات الغناء فى حفلات الزفاف ؛ فإن العروس بينما هى فى

طريقها إلى منزل الزوجية يستوقفونها فى حديقة المنزل ويغنون لها أغنية خاصة بالزواج يطلق عليها "الفورافيدة" ؛ حيث يكون ملاصقًا للعريس صديق له يدعى " آخاتسايوزا" بالإضافة إلى صديقة للعروس أو نديمة لها تكون ملاصقة لها طوال مدة العرس يطلق عليها "تاستايوزة" ؛ حيث انمحت عادة إحضار العروس إلى بيت الزوج فوق الخيول وحل محلها العربة . وفى السنوات الأخيرة فإن الأفراح التى كانت تقام ليلاً قد بدأت فى التناقص، وأصبحت تقام نهارًا حيث كانت الأفراح تُقام يوم السبت من كل أسبوع.

هكذا فإن واجبات إكرام الضيف التى تتمثل فى المأكل والمشرب والنوم قلت أو انحسرت تمامًا؛ لأن المضيف كان يكرس جهوده نهارًا لهذا الغرض فالتقصير تجاه القادم نهارًا قد انتهى تمامًا ، وبمعنى لاداعى للمأكل أو للمبيت .

إن إعادة التعاون أو المشاركة الاجتماعية فى الأفراح قد حافظ عليها الشراكسة، وكان أول مَنْ يقدم هذه المساعدة هو والد العريس ، ثم بعد ذلك مَنْ يأتى للعرس من صديق أو قريب ، فالكل يساعد على قدر طاقته ؛ ومن أوجه المشاركة الاجتماعية النقطة (النقود) التى تعطى للعروس ؛ فبهذه النقود تغطى مصاريف الفرح أولاً ثم بعد ذلك تدفع لسداد ديون الأشياء المشتراه إلى جانب الهدايا الكثيرة التى تأتى للعروسين .

إن بعض الشراكسة فى وقتنا الحاضر ينتقدون فكرة المشاركة الاجتماعية فى الأفراح ، ولكن على الرغم من ذلك لم يستطيعوا هم الإقلاع عنها ؛ حيث يقولون إن الغرض من هذه المشاركة هو جمع أكبر قدر من المال وهذه العادة باقية من أجل هذا الغرض .

وإذا انتقلنا إلى مراسم الجنازات، فإنها قد تغيرت تغيرًا سريعًا بالقياس بالعادات الأخرى ، فمراسم دفن الموتى عندهم تشبه مراسم دفن الموتى عند الشعوب الأخرى ؛ فالشخص لا يبكى ولكن يضرب يده على رأسه، والمشتركون فى الجنازة يخلعون

قبعاتهم ثم ينتظرون فترة على رأس الميت ، ثم بعد ذلك يقدمون العزاء لأهل الميت راجين لهم دوام الصحة والعافية ثم ينصرفون ، فعلى الرغم من أن شكل هذا السلوك كان له رد فعل منذ البداية ، لكنه مع مرور الزمن قد اعتاد الناس عليه .

ولكن في وقتنا الحاضر أيضًا ، يوجد مَنْ يسعون إلى إحياء هذه العادات البالية، التى لا تحقق نفعًا ولا فائدة للمتوفى ؛ فالصراخ على رأس الميت وسكب الدموع وحلق الرأس وارتداء الملابس السوداء ، كان ينظر إليها الأبخاز الأقدمون بعدم الرضا ولا أدل على ذلك سوى هذا المثل القائل :"مَنْ لا يبكى فقد أراح رأسه ؛ فلا يستفيد الميت شيئًا من هذه الدموع" .

إن تربية الطفل عند الشراكسة من الأمور التى ينظر إليها باهتمام شديد ؛ فهناك مثل شعبى أبخازى يقول :" إذا تربى الطفل تربية حسنة فنفعه يعود على العائلة وكذلك على المجتمع "، أى تعود فائدته على العائلة والمجتمع ، ولكن إذا تربى تربية سيئة فضرره يعود على عائلته فقط ؛ فمثل واحد من الأمثال الشعبية هو كافٍ لإظهار الأهمية التى كان يعطيها الشراكسة لتربية الطفل منذ القدم .

فالعائلات العريقة منذ القدم كانوا يذهبون بأطفالهم إلى إحدى العائلات من عامة الشعب كى تقوم بتربيته ، إلا أن الأمور اليوم قد اختلفت عما قبل ؛ فأبناء اليوم سواء كانوا ذكورًا أو إناثًا قد اتجهوا إلى الدراسة والتعلم ، ولكن إلى جانب المدرسة فإن العائلات كانت تبث فى أبنائها حب الناس واحترامهم والإخلاص والاجتهاد وحب الأمة والوطن واحترام الكبير .

واليوم يجب أن ننظر إلى التطور السريع الذى حدث للثقافة فى شمال القوقاز؛ حيث لم يوجد بيت تقريبًا لا يقرأ الصحف والمجلات والكتب ، كذلك لا يوجد بيت أيضًا لم يتابع برامج الراديو والتلفاز ويولع بها.

كذلك فإن هناك بعض العادات القديمة التى استطاعت أن تحافظ على وجودها حتى وقتنا الحاضر فى حياة العائلة الشركسية ؛ فصلات القرابة والصداقة داخل العائلة الشركسية واسعة إلى حد كبير ؛ فمثلما استطاعت الشجرة أن تقف شاهقة

بفضل جذورها، كذلك المجتمع الشركسى استطاع أن يقف صامداً وخالداً بفضل صلات القرابة والصداقة ، التى نتج عنها نتائج إيجابية بصرف النظر عن بعض الحالات السلبية ؛ فالأقارب والأصهار والأصدقاء دائمًا يقفون جنبًا إلى جنب فى المناسبات الحسنة وغير الحسنة ؛ فمثلاً فى حالة الوفاة فإن هناك رسولاً يقوم بإبلاغ الخبر لجميع الأقارب والأصدقاء ، لكى يأتوا للوقوف بجانب أهل المتوفى ، وكذلك فى حالة الفرح يوجد مَنْ يخبر الأقارب والأصدقاء بموعد الفرح لكى يحضروا للمشاركة ؛ فلضرورة هذه الأشياء سواء فى الأفراح أو الأحزان لم يحدث بها تغيير كبير .

فعلى الرغم من وجود عادات لم نوافق عليها ، فإنه حتى الآن توجد بعض السيدات تبكى خلف الميت حاسرة رأسها حالقة شعرها حيث تظل فى حداد فترة طويلة وهى ترتدى الملابس السوداء ؛ فتغيير هذه العادات يحتاج لفترة طويلة ؛ وعلى الرغم من كون الدين يعيش فى أعماق شعوب شمال القوقاز منذ عهود قديمة ، فإنه لم يكتسب أبعاداً عاطفية فى أى زمان قط .

فالمسيحية موجودة فى بلاد الشركس منذ القرن الرابع الميلادى ، ولكن لم تستطع الوصول إلى الحد المفرط أو الزائد عن الحد ؛ فأحد هذه الأسباب هو عدم كون اللغة الشركسية لغة مكتوبة ، أى لم تصل إلى حد أن تكون لغة مكتوبة ؛ فالشراكسة فى العصور التى تلت ذلك اعتنقوا الإسلام ولكن الإسلام أيضًا لم يستطع أن يزيد عن الحد أو يأخذ منهم أبعاداً كبيرة للأسباب نفسها ؛ فالشراكسة بعد أن أسلموا لم يتورعوا أن يشربوا الخمور؛ حيث نجدهم يدعون الله والقدح فى أيديهم .

وفى وقتنا الحاضر نجد كثيراً من الشيوخ الذين لا يعرفون القراءة والكتابة مفرطين فى التدين ، ولكن عندما تبدأ فى الحديث معهم حول بعض الموضوعات الدينية، تجد أن معظم عقائدهم واقعة تحت تأثير عادات الأديان المتعددة الآلهة ، التى كانت قبل المسيحية ، كما تقابل بمجموعة من الثقافات الإلهية التى لا تشبه بعضها بعضاً التى ترسم صورة طبيعية لله على أية حال ؛ فمراسم الجنازات عندهم عندما كانوا مسيحيين أو مسلمين واحدة.

إن المساعي والجهود المبذولة من أجل القضاء على المعتقدات والأعراف والعادات غير المتحضرة في القوقاز قد بدأت تعطي نتائج ناجحة ؛ فالناس عندما اكتشفوا الحقائق لم يرغبوا في الكذب ولا الخداع .

والآن ينبغي علينا إلقاء نظرة على مكانة المرأة الشركسية في المجتمع ؛ فالاحترام الذي يظهره الشراكسة منذ العصور السحيقة للمرأة يبين كون هؤلاء القوم أصحاب تقاليد ذات جذور عريقة . وكما قال " كارل ماركس" : " إن صفة البرنامج الشعبي القومي يفهم من دور المرأة ونشاطها في هذا البرنامج " ، وقد أعطى الشراكسة الأمثلة الجميلة على مر العصور فيما يتعلق بحماية المرأة واحترامها ، وفي المقابل تحملت المرأة الشركسية العبء الملقى على عاتقها وأثبتت بحق أنها جديرة بهذا الاحترام من قبل المجتمع .

ومثلما اتضح من خلال رواية "د.ى.جوليا" مؤسس الأدب الأبخازي، التي تسمى "قاماجيج" :"فإن المرأة الشركسية لا تحني قامتها حتى إلى زوجها مهما كانت الظروف" .

فعندما تستوجب الأمور تتسلح بالسلاح وتمتطي الحصان (الخيل) وتأخذ بالثأر؛ فعلى الرغم من الاحترام الظاهر للمرأة وحمايتها واحترام مكانتها في المجتمع لا تزال توجد بقايا من "نظام سلطة " الأب التي قللت من شأنها؛ فعلى سبيل المثال : كان قديماً إذا جاء ضيف تقوم المرأة بغسل قدميه ، أما في وقتنا الحاضر فإنه من غير اللائق أن يحدث مثل هذا؛ ولكن أيضاً لدينا بعض العادات والتقاليد التي تصعب من حياة المرأة ؛ فعلى سبيل المثال فإنها ، إلى جانب أنها تؤدي العمل نفسه الذي يقوم به الرجال ، مضطرة لأن تقوم بالأعمال المنزلية ؛مثل طهي الطعام وترتيب المنزل وتنظيفه، وتنظيف الحديقة وغسل الملابس ورعاية الأطفال، وتجهيز الطعام للضيف إذا جاء في أي وقت وتظل واقفة على خدمته حتى ينصرف .

أما الرجل فيجب عليه أن يجلس مع الضيوف ويأكل معهم الطعام ويسعى فى ألا يقصر فى خدمتهم وغير ذلك ؛ فهو مضطر إلى الذهاب إلى مراسم الأفراح والجنازات ويده مليئة بالهدايا .

والعروس إذا نوت الذهاب إلى أى مكان بالحافلة مع والدة زوجها ؛ فعليها أن تقف وتجلس حماتها ؛ وهذا التصرف أو السلوك ليس من أجل والدة الزوج فقط ، ولكن يجب أن ينطبق على الأقارب والآخرين .

هناك شىء آخر وهو ألا تتحدث العروس مع كبار السن من الأقارب حتى إذا كانت فى سوق أو فى محل تجارى ؛ فهى تدخل ولا تشترى شيئًا لأنها إذا تحدثت سيسمع أقاربها صوتها ؛ فلهذه العادات غير الحضارية لا يمكن أن تتحدث المرأة فى بعض القرى فى الاجتماعات أو الاحتفالات . وللمرأة حدود لا يمكن أن تتخطاها فى شغل بعض الوظائف ؛ فلا يصح مثلاً أن تشغل وظيفة مديرة فى المزارع الجماعية مثلاً ، أو أن تشغل وظيفة فى حزب من الأحزاب .

ووفقًا لما صرح به بعض الباحثين فإن الفتيات كنّ يتمتعن بحرية واستقلالية كبيرة فى منازل آبائهن قبل الزواج ، ولكن عندما يتزوجن يتغير الحال ويصبحن تحت رحمة العادات البالية. لقد أفسد هذا النوع من العادات البالية حياة المرأة القروية الشركسية ، كما أفسد أيضًا احترامها فى المجتمع ؛ فبعض الناس من أصحاب العقول المتشددة يعتبرون أنه إذا تحدثت العرائس أمام الكبار أو أمام شقيق الزوج أو أكلت أو جلست معهم أو اهتمت بعناية أطفالها ؛ فإنهن يصبحن مغايرات للعادات الشركسية ؛ فهم لا يفكرون أن هذا النوع من العادات باقٍ من عصر سلطة الأب ، والتحقير من زوجاتهم لا يمكن أن يحقق توافقًا أو انسجامًا مع العادات الجميلة التى كانوا ينظرون إليها بغرور ؛ فمنذ عشرة أو خمسة عشر عامًا رأينا تراجع هذا النوع من العادات تراجعًا ملحوظًا ؛ حيث أصبحت السيدات لا يراعين العادات البالية

المفرطة فى التعقيد مثل عدم الجلوس مع الأقارب أو الحديث معهم ؛ حيث وجدنا السيدات اللاتى قد نلن قسطًا من التعليم أو جلسن فى المدن لا يرغبن فى مسايرة هذه العادات ؛ حيث رأيناهن يتحدثن مع والد الزوج أو يطعن الزوج بحرية مطلقة بعكس ما كان فى السابق ، كما كنا نشاهدهن وهن يقمن بمناظرات ومحاورات صريحة مع الأقارب .

فمن العادات التى لا يمكن أن تنفصل عن حياة العائلة مراسم الأفراح والجنازات ؛ فمثلاً عدد المشتركين من الأصدقاء والأقارب فى عرس شركسى يصل من ألف إلى ألف وخمسمائة شخص .

وكذلك الحال عندما يتوفى شخص له مكانة مرموقة فى المجتمع نجد اهتمامًا كبيرًا بمراسم جنازته كالاهتمام بالعرس تمامًا ؛ حيث يصل عدد المشيعين لهذه الجنازة من ألف إلى ألف وخمسمائة شخص أيضًا ، وسبب هذا أن عدد أقارب هذا المتوفى وأصدقائه كبير جدًا ، ويرجع ازدحام الجنازات والأفراح فى السنوات الأخيرة إلى سهولة المواصلات وكثرتها بخلاف ما كان فى السابق ، كما كان لتحسن الظروف الاقتصادية أثره على تقوية العلاقات الاجتماعية بين الشعب .

وإذا دققنا النظر فى أهم العادات الشركسية نجدها منحصرة فى مراسم الأفراح والجنازات ، التى بدأت تطرأ عليها بعض التغييرات السلبية كالرقص والضحك والسمر واللعب والغناء ، التى شاهدناها بكثرة فى الأفراح الكبرى .

كانت أكبر مشكلة تواجه أصحاب الأفراح وأهالى العروسين مشكلة إكرام الضيوف من مأكل ومشرب ؛ فإطعام أكثر من ألف شخص والقيام على ضيافتهم لا تكفيه المساعدات الاجتماعية التى تأتى من الأقارب أو الأصدقاء ؛ ومن أجل هذا أصبحت هذه العادات السيئة سببًا فى إفساد هذه المساعدة الاجتماعية .

إن شكل موائد الأفراح قديمًا لم يظل على حاله بسبب الازدحام الشديد ؛ فالموائد فى الماضى كانت تقدم أغلى الأشربة وأثمنها ؛ ولكن فى الوقت الحالى حل محلها أشربة عادية مصنوعة من السكر .

ومثلما حدثت تغييرات فى نظام الأفراح حدث كذلك تغييرات فى نظام الجنازات ودفن الموتى . فبعدما كانت تقام الموائد من أجل تقديم الأشربة حدادًا على المتوفى مايقرب من سبعة إلى ثمانية أيام انتهت هذه العادة وزالت تمامًا .

وإذا نظرنا إلى نظام دفن الموتى ومراسم الجنازة فى تركيا نجدها تطبق وفقًا للشريعة الإسلامية ، لكنهم يجعلون الميت ينتظر بلا دفن فترة حتى يأتى جميع أقاربه بعد يوم أو يومين من وفاته.

ففى العشر سنوات الأخيرة ، اهتمت الصحف الصادرة فى شمال القوقاز بهذه الموضوعات، وكذلك فى جميع معاهد العلوم السياسية وكذلك فى جميع جمهوريات القوقاز، وجدنا اهتمامًا بالغًا بمسألة القضاء على هذه العادات البالية ؛ حيث أُسست لجنة بغرض النظر فى العادات والأعراف القديمة ؛ إذ لا فائدة من العودة إليها. وكما هو معلوم فإن هناك شعوبًا غير شركسية لها أيضًا أعراف وتقاليد قديمة يطبقونها على حياتهم بصرف النظر عن ثقافاتهم أو حضارتهم المادية، هذه الشعوب أيضًا استطاعت الحفاظ على أعرافها وتقاليدها الاجتماعية .

إن تغيير العادات والتقاليد ليس بالأمر السهل ، ولكنه يحتاج إلى نَفَس طويل؛ فوفقًا لما ذكره عالم السلالات المعروف (ف.ى.لنين): "بأن كل شيء يمكن أن يهدم فى لحظة ، ثم يبنى مرة أخرى إلا العادات ليست بالأمر الذى يمكن هدمه وبناؤه مرة أخرى "؛ فلم يحدث حتى الآن أن صنعت تقاليد وأعراف وفقًا لشعوب معينة ، وهذا لم يتحقق ولن يتحقق بعد .

فعلوم السلالات البشرية عند بلاروسية أقامت بناءً منهجيًا متكاملاً للأعراف

والتقاليد ، كذلك وجد مثقفون قاموا بجهود منهجية منظمة من أجل إحياء عادات الشعوب القديمة ؛ حيث أقروا العادات والأعراف وجعلوا لها أساسًا واضحًا ؛ فليس من الأهمية بحث الجوانب الإيجابية التى ليس لها ضرر فى تطور المجتمع على الرغم من أهميتها فى سير الحياة إلى الأفضل ، ولكن هناك بعض الأعراف التى تكون ضد حياة الإنسان ، والتى كانت عبئًا ثقيلاً على المجتمع التى هى من بقايا العصور الموغلة فى القدم .

إن مسألة التربية والتعليم فى الفترات التى خرجت فيها تلك العادات ليست موضوع كلمتنا ، ولكن أكثر من نصف الذين أحيوا هذه العادات فى وقتنا الحاضر نالوا قسطًا من التعليم ؛ فهم يقرأون الصحف والكتب والمجلات ويشاهدون التلفاز ويستمعون للإذاعة ؛ وهذه الوسائل دليل على زيادة الثقافة العامة للإنسان ؛ فعلى الرغم من جميع هذه التأثيرات الإيجابية ؛ فإن شهية المجتمع لم تكن مفتوحة لهذه التغيرات السريعة ؛ ولا شك أن القضاء على هذه العادات البالية سيأخذ وقتًا طويلاً .

كذلك فإن للتطور الاقتصادى أثرًا بالغًا فى تغيّر العادات والتقاليد ، ولكن دور التعليم فى هذا الخصوص أكثر من دور الاقتصاد . ولذلك فالتمسك بالتعليم وبالوسائل التعليمية الحديثة هو الحل الوحيد لهذه المسألة ، وقد رأينا أن العائلة الشركسية قد اختارت هذا الطريق هدفًا لها .

فبقيام الثورة السوفيتية حدثت تغييرات جذرية فى حياة العائلة الشركسية ؛ وقبل هذه الثورة كان الشعب الشركسى يعيش ظروفًا معيشية يصعب معها التطور أو التجدد ؛ حيث كان يعيش فى ظروف طبقية قاتلة خاضعة لسلطة الأب ومرتبطة ببقايا العادات الموغلة فى القدم ، ولكن بمجرد أن جاءت الحكومة الشيوعية فإن الشعب الشركسى استطاع وفى خلال فترة قصيرة أن ينسى قضايا الثأر ، كما قضى

على نظام الرقيق ، ووضع نهاية للعادات البدائية القميئة كالاغتصاب وخطف البنات والنهب والسلب .

بدأ بناء العائلة الشركسية يبلغ مبلغًا كبيرًا من الناحية الثقافية والناحية المدنية ؛ حيث امتزجت حياة القروى الثقافية بحياة أهل المدينة ، وتغير نمط أفراد العائلة الشركسية تغيرًا جذريًا من ناحية التعليم وعادات الزواج ، سواء فى القرية أو فى المدينة.

وإلى جانب هذه التغييرات الكبيرة فإن صعوبة تغيير هذه العادات البالية كان سببًا لبقاء بعض تلك العادات المتخلفة حتى يومنا هذا، حيث إن بعض هذه العادات مازالت متغلغلة داخل كثير من العائلات الشركسية ، وعلى الرغم من كل هذا فإن الشراكسة قد تركوا كثيرًا من هذه العادات وتقدموا بسرعة نحو الحداثة والتجديد .

لقد واجه الشراكسة مشكلة مهمة فى الفترة الانتقالية من القرن العشرين إلى القرن الواحد والعشرين ، تلك الفترة التى كان يطلق عليها الانحطاط الثقافى الذى (عَمَّ) جميع أرجاء الدنيا ؛ حيث أثرت وسائل الإعلام المختلفة على حياة المجتمع تأثيرًا كبيرًا جدًا، وقد تأثر الشراكسة بها تأثرًا كبيرًا وتأثر معها الإنسان الشركسى الذى هو أساس الثقافة الشركسية التى كنا قد تحدثنا عنها فى الصفحات السابقة ، بالإضافة إلى أن المجتمع القروى بدأ يفقد خصائصه ، وكانت نتيجة ذلك أن ظهر فراغ ثقافى لدى الشراكسة.

إن الشعوب الشركسية التى هى فى حكم الأقلية بصفة عامة سواء فى وطنهم الأم أو فى وطن الهجرة هم بعيدون كل البعد عن البناء الثقافى للمدينة ؛ حيث حاولت هذه الشعوب قديمًا أن تحافظ على قيمها الثقافية التى نقلوها من القرى إلى المدن لكنهم لم ينجحوا فى ذلك .

إن أبرز خصائص الشعب الشركسى هو تفرده بالنشاط والحيوية الشخصية أكثر من الشعوب الأخرى ، ولذلك نجد أن كثيراً من الباحثين الأجانب قد استطاعوا وصف الشركس بسهولة من خلال هذه الصفة البارزة فيه، حيث عكسوها فى آثارهم ، وكذلك فعل المثقفون الشراكسة الذين أكدوا أن بروز هذه الصفة فى الشراكسة كان سبباً لحماية ثقافتهم وتقاليدهم الأصيلة .

الفصل السادس

بعض مشاهدات الأجانب عن الشراكسة

انتشر الإسلام فى بلاد القوقاز بفضل الدولة العثمانية التى كان لها السبق فى إعداد جيش شركسى قوى ؛ حيث أرسلت لهذا الغرض القائد فروح على باشا إلى القوقاز، وقد وجدنا هاشم أفندى الكاتب الخاص لهذا القائد يصف هؤلاء الشراكسة بقوله :"إن الشراكسة والآباظية أقوام شجعان عقلاء أبطال صادقون فى كلامهم لا يكذبون ولا يقسمون كذبًا ؛ فحتى إذا صادفنا شركسيًا أو آباظيًا متمردًا أو شقيًا ؛ فلا يمكن أن يفعل شيئًا يغاير مبادئه ولا يمكن أن يقسم أو يحلف كذبًا ؛ فعندما يؤدى اليمين أو يقسم فلابد من توضيح كل مادة بدقة يقسم عليها ؛ فهو لا يقسم إلا إذا كان متأكدًا من المواد التى يقسم عليها؛ فإذا ظهر سوء فهم فإنه يصرح بأن هذه المادة لم تكن موجودة ضمن هذا القسم ".

يتصف الشراكسة والآباظية بالكرم ؛ فصاحب البيت إذا حل به ضيف حتى لو كان هذا الضيف من الطبقة الثالثة ؛ فإن صاحب البيت لا يجلس فى حضور الضيف ، وإنما يقف على قدميه لخدمته ولا ينام حتى الصباح لكى يرعى هذا الضيف إذا تطلب ذلك .

من ناحية الملابس نجد أن ملابس الشراكسة والآباظية متشابهة فلا فرق بين ملابس الأغنياء والفقراء ، كما لا تستطيع أيضًا أن تفرق بين فقرائهم وأغنيائهم بسهولة، لأنهم يؤمنون بمبدأ الأخوة والتكافل الذى لا يمكن أن نجده عند أقوام أخرى؛

فالفقير إذا طلب شيئًا من الغنى فلا يتأخر الغنى عن تقديم ما يزيد عن حاجته لهذا الفقير ، وهكذا نجد صورة التكافل واضحة فيما بينهم .

والخاصية اللافتة للنظر هى أنهم عندما تضيق بهم السبل ويفتقرون إلى المال نجدهم يعبرون الحدود الروسية ، ويستولون على الحيوانات والأسرى، فهم لا يخافون من الروس ؛ حيث نراهم يتعاملون مع أسراهم معاملة حسنة ؛ فلا يضربونهم أو يقتلونهم أو حتى يسببوا لهم ألمًا ، أو ينسوهم أو يهملوهم فى المأكل والمشرب والملبس .

إن الأجنبى لا يمكن أن يتجول وحده ؛ فلابد أن يتجول وهو فى صحبة مرشد من الشراكسة .

وهناك خاصية أخرى جديرة بالذكر وهى تتعلق بأخلاق الشراكسة من حيث "التزامهم بقواعد القبيلة ومبادئها" ؛ فعلى سبيل المثال :"عندما يذهب شخص فى طريق ما ويحاصره قطاع الطرق أو اللصوص ، ثم يقول : أنا تابع لقبيلة فلان أو أنا رجل من قبيلة فلان فلا يمكن أن يمسه أحد من هؤلاء اللصوص بأذى " ؛ فإذا لم يراع هؤلاء اللصوص قانون القبيلة أو مبادئها وقاموا بسلب ماله من يده أو أسروه ؛ فإن القبيلة التى ينتمى إليها ذلك الشخص تطلب من الذين قاموا بعملية السرقة بالإكراه هذه تسعة أمثال ما أخذوه طبقًا لقانون القبيلة ؛ فإذا لم تكن لدى الذين قاموا بعملية النهب هذه مقدرة على إعطاء تسعة أمثال ما سرقوه ؛ فإنهم يبيعون واحداً منهم ليكون بدلاً أو عوضًا عما أخذوه .

من هنا نفهم أن مَنْ أراد العيش فى أمان تام بين الشراكسة عليه أن يدخل تحت حمايتهم ؛ بمعنى إذا طلبنا حماية أحد القبائل ؛ فمن اللازم علينا أن نحافظ على مبادئها وتقاليدها .

إن أكبر جرم عند الشراكسة أو الآباظية هو جريمة القتل ؛ فإذا قتل شخص من أحد القبائل خطأ ينبغى على القاتل أن يدفع الدية .

هذا السرد الذى قمنا به مأخوذ عن ملاحظات "هاشم أفندى " المراقب الأجنبى ، الذى عرف الشراكسة عن كثب .

ومن العجيب أن الحكايات التى عكسها الروم للرأى العام الأوروبى من أجل إظهار أنهم على حق فى أعمال القتل والنفى تجاه شعوب القوقاز لا تتلاءم مع بعضها البعض ؛ حيث كانت حكايات ملفقة لا أساس لها من الصحة .

فقد حاول الروس إقناع الأوروبيين أن الشراكسة ما هم إلا بربر بدائيون متخلفون عن الحضارة الإنسانية ، ولكن بعض الأوروبيين الذين سنحت لهم الفرصة لمعرفة الشراكسة عند عودتهم من بلاد الشركس قافلين إلى بلادهم أحبوا هؤلاء الشعوب وعشقوهم وقاموا بالدفاع عنهم وعن أمجادهم وأخلاقهم ؛ فعلى سبيل المثال :"اللورد بونصوبنى " الذى عمل فى قنصلية إنجلترا فى إستانبول حتى عام ١٨٣٠م ، وداوود أورجوهارد مستشار القنصلية الإنجليزية بإستانبول أيضًا أحب الشراكسة ، وكان صديقًا لهم ، فداوود أورجوهارد الذى قام بجولة لمدة أسبوعين فى الشركستان عند عودته إلى بلاده جاهد ، وكأنه شركسى جاء لتحرير بلاد الشركس ، حتى إنه أصبح مدافعًا ناريًا عن قضية الشراكسة فى صحيفة ""بورت فوليو " التى كانت تصدر فى لندن ؛ فالباحثون الأوروبيون أمثال "ج ستيوارث " و"ج.س.بيل" و"جاً ـ لونجورت"و"ج.هدسون"، الذين عاشوا هناك فى تلك الفترات أيضًا أحبوا الشراكسة وأعجبوا بهم وظلوا متعلقين بهم حتى بعد عودتهم إلى بلادهم .

ونريد أن نختم هذا الباب من هذا الكتاب بعمل بعض التدقيقات عن أفكار بعض الأوروبيين حول الشراكسة ؛ فالشاعر الروسى "بوشكين" يقول :" إن الشراكسة ديموقراطيون بسلوكهم أرستقراطيون بقلوبهم ، كما يقول الشاعر الألمانى مولر ": الشركسى يتمتع بكيان خاص به ؛ فهو لا يتخفى أو يستتر أو ينحنى مهما كان ماشيًا أو راكبًا" ، كما يقول الباحث الإنجليزى (ج.إس.بيل) "إن الشراكسة أصحاب أفكار متجددة ، كما هم أصحاب براعة كبيرة فى الإفادة الواضحة والعبارة السريعة" .

الباب السابع

لغات القوقاز

تعرف لغات شعوب القوقاز منذ عصور سحيقة بأنها لغات جبلية ؛ حيث قيل إن الرومان كانوا يستخدمون سبعين مترجمًا للتجوال فى القوقاز ؛ فاللغات المتحدث بها فى هذه المنطقة هى ثلث اللغات التى يُتحدث بها فى الاتحاد السوفيتى . ويطلق على لغات الأوتوختن القوقاز اسم لغات "أيبرقوقاز "، ولكن هناك لغات أخرى يتحدث بها فى هذا الإقليم بخلاف لغات أيبرقوقاز ؛ منها على سبيل المثال : " اللغات الآزرية والقوموق والبلقار" ولغات أخرى مثل : لغة التركيك والأوسيت ولغة الأرمن ولغة الثات واللغة الكردية وغيرها؛ فهذه اللغات هى لغات هند أوروبية، أما لغات أيبرقوقاز فتشتمل على مجموعتين رئيسيتين :

١ – لغات شمال القوقاز .

٢ – لغات جنوب القوقاز .

١ – لغات شمال القوقاز :

تنقسم لغات شمال القوقاز فى بنيتها إلى مجموعتين :

(أ) لغات الأبخاز – الأديغه :

حيث تشتمل هذه اللغات على اللغة الأبخازية والآباظية ولغة الأوبيخ ولغة الأديغه ولغة القبارتاى ، وقد تحدث العالم الروسى (جولدنشدت) عن التشابه الموجود بين لغات الأديغه ولغة الأبخاز فى أثره المسمى "رحلة من روسيا إلى جبال القوقاز" ، وفى السنوات التالية تناول كثير من الباحثين هذا الموضوع بالدراسة ، ولكن الذى قام بالبحث فى لغات الأبخاز والأديغه هو الباحث (شرفى) الذى نشر عام ١٩٣٢م أثرًا أطلق عليه اسم "التشابه بين لغات القوقاز الشرقيين والغربيين"، ولكن عندما ندقق فى هذا الأثر لا نجده قد غاص فى أعماق هذه اللغات .

وقد كان للعالمين الكبيرين (لومطاطى) و (جوارف) جهود واضحة فى الكشف عن جذور لغات الأبخاز والأديغه؛ فقرابة لغات غرب القوقاز بعضها ببعض ليست واحدة ؛ فإذا دققنا فى خصائص القرابة التى تربط هذه اللغات بعضها ببعض، نجدها مثل الإخوة الأشقاء الذين جاءوا من أم واحدة وأب واحد، أما اللغات الأخرى فإن قرابتها كقرابة أولاد العم بعضهم ببعض ؛ فعلى سبيل المثال :"فإن لغة القبارتاى والأديغه يمكن أن تقول إنهما من أب واحد وأم واحدة وكذلك الشىء نفسه فى اللغتين الأبخازية والآباظية ، أما لغة الأوبيخ فليس لها أخ قريب كاللغات الأخرى ، ولكن تشترك مع اللغتين الآباظية والأديغية فى أنها إحدى لغات غرب القوقاز"؛ فإذا نظرنا بمنطق القرابة فإن هذه اللغات الثلاث يمكن أن يقال عنها إنها أولاد عمومة واحدة .

(ب) لغات الأبخاز :

تعد اللغة الأبخازية التى هى إحدى لغات غرب القوقاز من وجهة نظر العالم "طورشانينوف" ، أقدم لغة مكتوبة بين لغات الشعوب التى تعيش على أراضى الاتحاد السوفيتى القديم .

وقد ذكر "طورشانينوف" أنه ظهرت لوحات أبخازية فى نقوش القوبان والكولخيد؛ حيث إن اللغة الأبخازية هى لغة كتابة لا يقل عمرها عن ثلاثة آلاف ومائتى عام ، ولكن الأبخاز هجروا حروفهم الهجائية فى العصور القديمة واستبدلوها بحروف هجائية جديدة فى القرن التاسع عشر ، وفى وقتنا الحاضر فإن اللغة الأبخازية تُستخدم فقط فى جمهورية أبخازيا للكتابة ؛ حيث تعد اللغة الأولى لشعب يبلغ عدد سكانه أكثر من مائة ألف شخص .

إن الغالبية العظمى من الأبخاز يعيشون فى تركيا وفى دول الشرق الأوسط ، وجزء كبير من هؤلاء الناس لا يزالون يعرفون الأبخازية حتى وقتنا الحالى ؛ فبعضهم يستخدمونها لغة أولى لهم والبعض الآخر يستخدمونها لغة ثانية .

ويتحدث الأبخاز الأبخازية فى تركيا بكثرة فى مقاطعة "دوزجة" فى مدن (أدابازارى ، وإزميت ، وإسكيشهر ، وبورصة) ، وكذلك فى مقاطعة "آينة كول" فى مدن (بيله جك ، وسمسون) . إن الجهود العلمية الأولى حول لغة الأبخاز قام بها العالم "ب.ق.أوصلار" ، وأول من أنشأ أول قواعد لهذه اللغة هما شرفى وأوصلار ؛ ففى عام ١٨٦٢م ، قام العالم أوصلار بعمل حروف أبخازية مستخدمًا الحروف الروسية ، وفى بدايات القرن التاسع عشر طُبعت كثير من الكتب التعليمية والدينية باللغة الأبخازية .

وفى مؤتمر الأبخاز والأديغه عام ١٩٢٨ م ، ونتيجة للقرار المأخوذ من أجل تحويل لغة الكتابة الأبخازية إلى اللاتينية، استخدمت هذه الكتابة مدة عشر سنوات؛ أى حتى عام ١٩٣٨م ، ومن عام ١٩٣٨م وحتى عام ١٩٥٤ م ، استبدلوها بالحروف الهجائية الجورجية، وبعد ذلك تحولوا مرة أخرى إلى الحروف الهجائية الروسية ، فاللغة الأبخازية غنية بالحروف غيرالصوتية أو الصامتة ؛ حيث يكثر فى هذه اللغة اللواحق المتعددة ، كما يوجد بها أيضًا ما يقرب من خمسة وستين مقطعًا صوتيًا .

وقد تطورت لغة الأدب القومى الأبخازى فى أثناء الحكم السوفيتى ؛ حيث وصلت إلى أرقى مستوياتها، وتستخدم هذه اللغة فى وقتنا الحاضر فى الإذاعة والتليفزيون ، كما تستخدم كوسيلة تعليمية فى معهد التربية فى مدينة "صوخوم" ، وكذلك فى كلية الآداب وفى المنشورات الاجتماعية والسياسية ، وفى كتابة الشعر والرواية والقصة القصيرة ؛ فتطور هذه اللغة وتحديثها مدين فى المقام الأول للعلماء " د جوليا، إس شابثا، إى كوجونبا، راى بافاصخيرى، وب سينكوبا ، وإم خاشبا، وإى طاربا" ؛ فاللغة الآباظية تُحدث بها فى منطقة" الأوطونوم " التابعة لإقليم "سترافروبول" التابع للاتحاد الروسى وكذلك تُحدث بها فى تركيا.

ففى الاتحاد السوفيتى يعيش ما يقرب من أربعين ألفًا من الآباظية قبلوا جميعًا اللغة الآباظية لغة أساسية لهم ، إلا ألفًا أو ألفين فقط منهم قبلوا اللغة الروسية لغة أم لهم، أما الآخرون منهم فقد قبلوا لغات أخرى غير لغتهم الأم .

وتشتمل اللغة الآباظية على لهجتين رئيسيتين هما (الكاينتا) و (الأشقاروا)؛ فهما يختلفان عن بعضهما بعضًا من الناحية الصوتية ، فلهجة "كاينتا " تنتشر بين آباظية شمال القوقاز ، وهى لغة مكتوبة ؛ حيث كتبت ولأول مرة بالحروف اللاتينية عام ١٩٣٢م، ثم ما لبثوا أن عادوا مرة أخرى إلى الحروف الروسية عام ١٩٣٨م ، وفى وقتنا الحاضر، فإنه يكتب بهذه اللغة الكتب التعليمية والصحف اليومية وكذلك الأعمال الأدبية ، كما تستخدم فى المدارس الابتدائية لكى يتعلمها الأطفال ، وتستخدم فى النشرات الإذاعية إلى جانب اللغة الروسية التى يستخدمها الآباظية بشكل واسع .

لغات الأديغه :

تنقسم لغة الأديغه إلى قسمين هما : اللغة الأديغية ولغة القبارتاى .

يتحدث هذه اللغة سكان شمال غرب القوقاز الذين ظلوا يتحدثون بها بشكل واسع حتى القرن التاسع عشر ؛ حيث واجهت خطر الفناء فى الوطن الأم بعد المنفى عام ١٨٦٤م .

وقد ساعد على الحفاظ على هذه اللغة أن قامت الحكومة السوفيتية بتأسيس جمهورية الأديغه ، التى جعلت اللغة الأديغية لغة رسمية إلى جانب اللغة الروسية .

يتحدث باللغة الأديغية بالإضافة إلى جمهورية الأديغه ما يقرب من عشرين قرية مجاورة .

واللغة القبارتائية التى هى الفرع الرئيسى الآخر للغات الأديغية هى واحدة من اللغات الرسمية لجمهورية القبارتاى – البلقار المستقلة؛ حيث يتحدث بها ما يقرب من ثلاثمائة وأربعين ألفًا، وفى جمهورية القارجاى الشركس المستقلة يتحدث أكثر من اثنين وخمسين ألفًا اللغة الأديغية .

وللغات الأديغية انتشار واسع ، وهى بمثابة اللغة الأولى أو الثانية لأكثر من أربعين ألفًا يعيشون فى تركيا والشرق الأوسط ؛ ففرع من لغة الأديغه ينقسم إلى أربع لهجات رئيسية هى :

١ – الأبظاة .

٢ – بجادوج .

٣– تميرجوى .

٤– صابصيغ .

وفى عام ١٩١٨م ، بذلت جهود مضنية لتكوين حروف هجائية للغة الأديغية ، وقد حدث قبل هذا التاريخ أن صنعت أبجدية مأخوذ أساسها من الحروف العربية ، ولكن هذه الحروف هُجرت وتركت تمامًا . وفى عام ١٩٢٧ م ، رأينا الحروف الهجائية الأديغية قد أصبحت لاتينية ، وقد ساعدت هذه الأبجدية الجديدة على ازدهار الأدب الأديغى وإلى جعل هذه اللغة لغة لها خواصها فى الكتابة كبقية اللغات الأخرى . وفى

عام ١٩٣٨م تغيرت الأبجدية الأديغية آخذة الحروف الروسية هذه المرة أساسًا لها ، أما في وقتنا الحاضر فلا تزال تستخدم هذه الأبجدية المأخوذة عن الروسية حتى الآن .

إن الأدب الأديغي الذي ارتفع وسما على لهجة "البجادوج" ، كان يحمل في طياته تأثيرات لهجة "التميرجوي" التي كانت تستخدم في البداية ، وعلى الرغم من قلة عدد سكان الشعب الأديغي الذي لا يزيد عن ١٢٠ ألف نسمة ، فقد أنتج شعراء وأدباء عظام .

وإذا نظرنا إلى لغة القبارتاي التي هي الفرع الرئيسي الآخر للغة الأديغية ، نجدها تنتشر بين عدد كبير من سكان القوقاز بالمقارنة باللغة الأديغية ؛ فالذين يستخدمون لغة القبارتاي في القوقاز لغة أولى لهم يعيشون في جمهورية القبارتاي - البلقار المستقلة ، ولكن الشعب الأديغي الذي يعيش في جمهورية القارجاي الشركس المستقلة؛ فإنهم يستخدمون لهجة البسلناي .

طبعت الحروف الهجائية الأولى للغة القبارتاي المكتوبة عام ١٩٢٣ م، ولكنه هذه الحروف الهجائية أعيد تنظيمها مرة ثانية من قبل العالم "إف. ياقولاف" ، الذي وضع أساس الأبجدية القبارتائية ؛ حيث أصبحت هذه اللغة بعد هذا التاريخ لغة أدب، وطبعت الكثير من الآثار الأدبية بهذه اللغة كالرواية والشعر والمسرحيات والصحف والمجلات ، التي ساعدت على إثراء لغة الكتابة القبارتائية .

كان لجمعية التعاون الشركسية دور كبير في تأسيس أبجدية أديغية في أرض الهجرة ؛ حيث استعملت الحروف الهجائية الأديغية والأبخازية في مدرسة هذه الجمعية النموذجية ، وبعد أن أغلقت الحكومة التركية هذه الجمعية حدث فتور ملحوظ في الجهود ، التي كانت تبذل لإحياء هذه اللغة ، وفي السنوات الثلاثين أو الأربعين الأخيرة من القرن العشرين وجدنا نشاطًا ملحوظًا لتأسيس أدب تركي شرقي .

لغات الناخو - داغيستان

مجموعة الناخ:

يطلق أيضًا على هذه المجموعة مجموعة الشيشان ؛ فهذه المجموعة تتكون من لغات الشيشان والأنجوش والباتسى ؛ ففى مقابل أن لغة الأنجوش والشيشان لغتان مفهومتان فى المحادثة والحوار ؛ فإن لغة الباتسى تختلف عنهما اختلافًا كبيرًا .

وهناك لهجة تسمى لهجة الآقين ، هذه اللهجة وسط بين اللغتين الأنجوشية والشيشانية ؛ فالذين يستخدمون لهجة الآقين يستخدمون اللغة الشيشانية لغة أدب ، وإذا دققنا النظر نجد أن اللغة الشيشانية هى الأكثر استعمالاً فيما بين لغات (الناخ) ؛ فهى لغة جمهورية الشيشان "الأنجوش" ؛ حيث يعيش حوالى تسعمائة ألف شخص فى هذه الجمهورية ، وكان للثورة الشيوعية دور كبير فى تأسيس لغة الأدب الشيشانى .

ففى عام ١٩٢٣م ، أسست الأبجدية الشيشانية من الحروف العربية ، ولكن هذه الأبجدية تحولت إلى الحروف اللاتينية مرة أخرى. وفى عام ١٩٣٨م ، تحولت هذه الأبجدية تحولت إلى الحروف الروسية وقد كان للعلماء" ن - ف ياقولاف، وإيه - ن جنكو ، و م . يا ناميروسكى" والباحثين المحليين أمثال: د.مالصاجوف و ذ. مالصاجوف ودسريف وجوجابييف وأوصايف وماتصييف ، كل هذه الاسماء كان لها دور كبير فى جعل هذه اللغة لغة كتابة .

إن تأسيس أدب شيشانى - على أسس سليمة ، نشأ تحت ظل كتاب أساتذة أمثال بادوييف و أرصانوف ماما فاييف وموزاييف . وقد استطاع الشعب الشيشانى على الرغم من قبوله اللغة الروسية - المحافظة على أدبه دون أن يعتريه تغيير أو تبديل .

إن تأثير اللغة الأنجوشية التى هى فرع من فروع لغات الناخ الأخرى ضيق بالقياس إلى اللغات الأخرى ، التى هى من أصل هذا الفرع ؛ حيث تستخدم هذه اللغة

من قبل بعض الأنجوش الذين يعيشون فى المنطقة الغربية لجمهورية الشيشان وعلى حدود جمهورية أوسيتا الشمالية .

لقد كان للشيوعية فضل كبير على اللغة الأنجوشية وكذلك على الخط الأنجوشى ، ففى عام ١٩٢٠م ، قام العالم "مالصاجوف" بإنشاء أبجدية أنجوشية بالحروف اللاتينية ؛ حيث طبعت أول جريدة أنجوشية فى مايو عام ١٩٢٣م ؛ فاللغة الأنجوشية مثلها مثل كثير من لغات شمال القوقاز قد تحولت إلى أبجدية يطلق عليها أبجدية كريل .

لغات داغيستان:

هى مجموعة لغوية تحوى فى أحشائها أكثر من ثلاثين لغة تتوطن جبال القوقاز ، فلغات داغيستان هى لغات قريبة للغات الناخ ؛ حيث تنضم لمجموعة لغات الناخ – داغيستان ؛ فلغات داغيستان على الرغم من البحوث الكثيرة المبذولة عليها ؛ يمكن أن نقسمها إلى مجموعات لغوية وفقًا لدرجة القرابة فيما بينها.

فالبحوث التى أجريت حول تصنيف لغات داغيستان تقسمها إلى مجموعتين :

١ – مجموعة الآوار – آندى .

٢– مجموعة اللزجى .

أما مجموعة اللاق ومجموعة الدارجى فهما خارج هاتين المجموعتين .

وفى مجموعة آندى توجد ثمانى لغات هى:آندى – جودابرى – جامالال – تيندى – بوتليك – باجوالال – آقراق – قراته ؛ فهذه اللغات قريبة جداً من بعضها حتى إنها تعد لهجات لبعضها البعض ؛ حيث يبلغ عدد الذين يتحدثون هذه اللغات فى مجموعة الآندى حوالى ستين ألف شخص ؛ فجزء كبير من الذين يتحدثون مجموعة آندى اللغوية يعرفون اللغة الآوارية ويستخدمونها .

ومجموعة تز اللغوية تحتوى على خمس لغات ليس لها أبجدية هى على الوجه التالى : تز(ديدو) قفارش وجينوخ وقابوجه (بزيته) وقونزال (جونزيب) ؛ حيث توجد فوارق واضحة فيما بين هذه اللغات ، وشعوب هذه المجموعة اللغوية يعرفون أيضًا اللغة الآوارية ، الذين يصل عددهم إلى نحو عشرين ألف شخص .

تتكون مجموعة لزجى من عشر لغات : هى على الوجه التالى: اللزجية والطبصاران والآغول والرتول والصاقورو الكريز والبودوق وكينالوك والأودى والآرشى؛ فمجموع مَنْ يتحدثون اللغة اللزجية يبلغون خمسمائة ألف شخص، ٨٠ ٪ منهم يتحدثون اللغة اللزجية .

إن البحوث الأولى الخاصة بلغات القوقاز نشرت فى نهايات القرن الثامن عشر على يد الباحثين أمثال :جولد نشدت باكياس وقولد بروت ، وهناك بحوث أخرى تتعلق بلغات الآوار واللاق واللزجى والطبصاران نشرت فى القرن التاسع عشر ، أما لغات الداغيستان ، فإلى جانب البحوث المحلية هناك باحثون أجانب أمثال : ن – س – طوروبتكوى ودومازيل ولافون.

فاللغة الآوارية يتحدث بها نحو ٤٥٠ ألف شخص ؛ فالأوار يمثلون ٢٥٪ من عدد سكان جمهورية داغيستان ، إلى جانب أنهم يعيشون أيضًا فى مناطق نفاتالى وديلوقانصق فى جمهورية أزاربيجان .

كانت أول أبجدية للغة الآوارية قد كتبت بالحروف العربية بعد ثورة أكتوبر ، فإذا نظرنا إلى تطور الأبجدية الآوارية نرى أنها كتبت بالحروف اللاتينية عام ١٩٢٨م ، هذه الأبجدية استخدمت حتى عام ١٩٣٨م ، ثم بعد ذلك تركت مكانها لأبجدية كريل التى كتب بها أدب آوارى حديث .

ومن أشهر الأدباء الذين أعطوا إنتاجًا باللغة الآوارية "رسول حمزة طوف" ، الذى ترجم عمله المسمى بلدى داغيستان إلى التركية الحديثة .

وتعدّ لغة اللزجى أشهر لغة داغيستانية بعد الآوارية ؛ حيث يتحدث بها ما يزيد عن ثلاثمائة وستين ألف شخص ؛ فالذين يتحدثون هذه اللغة يشكلون ٢٠٪ من عدد سكان جمهورية داغيستان .

تشتمل اللغة اللزجية على ثلاث لهجات هى : قورين وصامور وقويا، فاللهجتان قورين وصامور تستخدمان فى داغيستان ، أما لهجة القويا فتستخدم فى بعض مناطق من جمهورية أزربيجان ، وبسبب الفروق أو الاختلافات الطفيفة بين هذه اللهجات كان من السهل إنشاء أدب مشترك بينها، وقد أعدت أبجدية للغة اللزجية بعد ثورة أكتوبر؛ حيث استخدمت فى البداية الحروف العربية ، ومثلما حدث فى اللغة الآوارية فإنه فيما بين "١٩٢٨م – ١٩٣٨ م "، استخدمت الحروف الهجائية اللاتينية ، ثم بعد ذلك استخدمت" لهجة الكريل " وظلت تستخدم حتى وقتنا هذا .

هناك أيضًا لغة أخرى يطلق عليها لغة الدارجى التى يتحدث بها حوالى ثلاثمائة ألف شخص ، وتستخدم فى داغيستان فقط ، فتطور الحروف الهجائية فى هذه اللغة كالآوارية واللزجية تمامًا ؛ حيث الحروف اللاتينية ثم الكريل ، وهذه اللغة تشتمل على سبع لهجات هى على النحو التالى : قورقولين ، وآقوس ، وتصودافخان ، والقايداق ، والآربوق أو قوياقين ثم صيركين وموهارين ، ولغة الأدب فى لغة الدارجى هى لهجة آقوصخين ، أما لغة لاق فهى لغة يتحدث بها ما يقرب من مائة وعشرين ألف شخص تقريبًا .

كتبت أبجدية لاق بالحروف العربية قبل ثورة أكتوبر؛ حيث كانت الكتب الأولى التى كتبت بهذه الحروف العربية كتبًا دينية ، وحدث معها مثلما حدث مع اللغات السابقة ؛ حيث كتبت بالحروف اللاتينية فى الفترة مابين "١٩٢٨م – ١٩٣٨م "، ثم بعد عام ١٩٣٨م ، كتبت بأبجدية كريل .

وإلى جانب هذه اللغات توجد لغة الطبصاران التى يتحدث بها نحو سبعين ألف شخص ؛ فقد كتبت فى عام ١٩٣٢م بالحروف اللاتينية ثم بعد عام ١٩٣٨م كتبت بأبجدية كريل .

مجموعة الكرتفاليان :

تشتمل مجموعة الكرتفاليان اللغوية على ثلاث لغات هى : الجورجية وجان (لازوميجريل) وصوان ؛ فهذه اللغات على الرغم من وجود اختلافات أو فروق نسبية فيما بينها ، فإنه توجد أبجدية جورجية فقط ؛ فاللغة الجورجية هى لغة كتابة إجبارية لشعوب اللاذ والميجريل والصوان إلى جانب الشعب الجورجي .

يعيش حوالى أربعة ملايين فى جمهورية جورجيا من مجموعة الكرتفاليان ؛ حيث يصعب التحقق أو التثبت من عدد من يستخدمون لغات الميجريل واللاذ والصوان والمدرجين ضمن سكان جورجيا فى سجلات عدد السكان ؛ فالتخمينات المتعلقة بعدد سكان الميجريل واللاذ تشير إلى أنهم ما بين مليون ونصف مليون ومليون وسبعمائة ألف نسمة ، والمسجلون فى السجلات الجورجية فى وقتنا الحاضر هم على الوجه التالى : القرتفال (الجورجيون) ، وقاخيت والكوسور والإيمارات والجورى والبصاف والآجار وغيرهم من الصوان والميجريل واللاذ الذين ما زالوا يستخدمون لغاتهم الأم فى حياتهم اليومية ، كما يستخدمون أيضًا اللغة الجورجية لغة كتابة إجبارية، أما لغة الأدب الجورجى فتنقسم إلى قسمين :

١ - الأدب الجورجى القديم : الذى يستمر حتى القرن الثانى عشر بعد الميلاد .

٢ - الأدب الجورجى الحديث .

إن لغة الأدب الجورجى تطورت بفضل الأدباء الجورجيين أمثال : "جاوجاوادزة ، وآقاقى تسرتلى ، وواضحة بصاويلا؛ فعلى الرغم من أن عمر اللغات (اللاذ والميجريل والصوان) ، يرجع إلى أكثر من أربعة إلى خمسة آلاف سنة ، فإنه لم يتكون لها لغات كتابة حتى وقتنا هذا؛ فكل لغة من هذه اللغات الثلاث تركت نفسها للفناء فى ظل اللغة الجورجية .

الخاتمـــة

إن جنسية الناس وقومياتهم إنما تأتى من واقع المصادفة البحتة ، فكون حسن عربيًا أو جورج إنجليزيًا أو بوريس روسيًا جاء بمحض المصادفة ودون تدخل أحد فى هذا الشأن ؛ فالخواص التى اكتسبوها بمحض الصدفة لا تدل على كونهم أكثر تفوقًا من الآخرين أو أكثر ضعفًا منهم .

ففى تحديد القيم المتعلقة بالإنسانية وبنى الإنسان فى حق نفسه الذى بلغ فى العلوم والتكنولوجيا مبلغًا كبيرًا ، هذا الإنسان قد ارتكب جرمًا كبيرًا، لأنه اعتقد أنه يوجد أناس أصحاب أوصاف رقيقة ومميزة أو أن بشرًا أفضل من بشر؛ فهم بتشبيههم هذا مثل الذين يفرقون أو يميزون بين الحيوانات بعضها بعضًا زاعمين أن هناك حيوانات أفضل من حيوانات ، ومع الأسف فهذا المنطق الفاسد قد شغل حيزًا كبيرًا فى حياة الإنسان على مدى قرون طويلة ؛ حتى بلغ منهم مبلغًا كبيرًا فى عصرنا هذا .

وإذا ألقينا نظرة فاحصة على الماضى نجد أن كثيرًا من الأمم قد نظرت إلى العنصرية أو الشيوعية على أنها منهاج يجب الحفاظ عليه ؛ حيث استولت هذه الأيديولوجية الفاسدة على كل مناحى الحياة فى هذه الدول ، هذه العنصرية عاشت أزهى عصورها فى القرن العشرين .

إن الشراكسة الذين هم ضمن شعوب شمال القوقاز قد استطاعوا الحفاظ على ثقافاتهم فى أوطانهم آلاف السنين ، دون أن يغيروا منها أو يتخلوا عنها على الرغم من الأيام الصعبة والعصيبة التى عاشوها .

لم يستطع الشراكسة أن يجمعوا شتاتهم مرة ثانية بعد المنفى الكبير الذى عاشوه فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر؛ حيث وقعوا فريسة حرب هوية لا نظير لها بين كماشة الروس والجورجيين الذين خنقوهم حتى أوشكوا على الفناء ، ومن أجل أن نوضح صفة هذه الحرب أو شكلها يجب علينا أن نرجع إلى الوراء ثلاث سنوات قبل ذلك .

العام هو ١٩٨٥م ، والمكان هو مدينة صوخوم عاصمة آبخازيا ، عندما أرادت حكومة جورجيا أن تربط أكاديمية العلوم اللغوية فى هذه المدينة الجميلة (صوخوم) - بمدينة تفليس ، إلا أن الأبخاز اعترضوا وقاموا بالمظاهرات ضد هذا العمل ، حيث وقف فى مواجهتهم أكثر من ألف جورجى ، مما أدى إلى مقتل أكثر من عشرين شخصًا فى هذه المظاهرة وقد تدخل الجيش لفضها.

وفى الفترة من ٢٥ إلى ٢٦ أغسطس عام ١٩٨٩ م ، اجتمع مثقفو جمهوريات شمال القوقاز وجمعية شعوب القوقاز الجبلية ، واتفقوا على منع الاحتكاكات والصدامات بين الشعبين الجورجى والأبخازى ، كما اتفقوا أيضًا على تشكيل اتحاد شمال القوقاز للنظر فى مشكلاتهم .

ينبغى علينا أن نوضح أن جهود اتحاد شمال القوقاز لم تكن من قبل جمعية (أو منظمة) أسستها تنظيمات دولة مستقلة فى هذه المنطقة ، ولكنها حركة شعبية جاءت من داخل وجدان المثقفين ومشاعرهم ، بمعنى أنه جاء من صميم وجدان هؤلاء المثقفين ، ولم يكن نابعًا من القائمين على الجمهوريات المستقلة لشمال القوقاز أو رؤساء حكومات جمهوريات هذه المنطقة .

إن هذه الشعوب الصغيرة عندما أدركت صعوبة أن تعيش بمفردها بين عالم مبنى على نظرية البقاء للأقوى آمنت بفكرة الاتحاد (الوحدة) فى جميع أرجاء شمال القوقاز ، وقد وجدت هذه الفكرة دعمًا شعبيًا قويًا .

واليوم فى عصرنا هذا ، فإن هذا الاتحاد قد جمع فى طياته أكثر من ست عشرة دولة من دول شمال القوقاز ، حتى إن القزاق الروس الذين وطنهم الروس قسرًا فى

القوقاز بغرض ترويس بلاد الشركس فى القرن التاسع عشر كانوا ينظرون بعين الرضا إلى هذا الاتحاد ، والآن وعلى الرغم من عدم كونهم أحد أعضاء هذا الاتحاد ، فقد أرسلوا مراقباً عنهم فى الاجتماع الأخير لهذا الاتحاد .

لقد حاق الخطر بشعوب هذه الدول وثقافاتها التى وقعت بين فكى كماشة الجورجيين والروس ، هذه الشعوب التى تشترك مع بعضها البعض من ناحية الصفات اللغوية والسلالية ، وتمثل هذا الخطر فى إمكانية القضاء على ثقافتهم العريقة، لذلك كان عليهم المحاربة بقوة لدحر هذا الخطر الشديد ، ولكن الاتحاد الذى سبق أن تحدثت عنه والمكون من عشرات الشعوب قد أخذ الدعم التام والمساندة الكاملة من قبل المهاجرين الشراكسة ، الذين يبلغون قرابة خمسة ملايين شركسى مشتتين فى مختلف بقاع الأرض .

إن هذه الوحدة الشمال قوقازية لهى تمثل أسمى وأجمل رمز بين هذه الشعوب، التى لا يمكن أن تتفق مع بعضها لولا هذا الاتحاد ، ومن بين أعمال هذا الاتحاد إحداث التوافق بين الأبخاز والجورجيين والمصالحة بينهم ، وعلى الأخص بعد أحداث عام ١٩٨٩م ، وكذلك التعاون مع مجلس السوفيت الأعلى فى حل المشكلات بين الأبخاز والجورجيين بالطرائق السلمية .

وفى عام ١٩٩٢م ، تفكك الاتحاد السوفيتى ، وانحل معه دستور هذه الدولة وعادت جمهورية جورجيا إلى دستور عام ١٩٢١ م ، وأصبحت جمهورية أبخازيا بلا قانون أو دستور تسير عليه .

وهكذا فإن جمهورية أبخازيا التى كانت ضمن جمهوريات القوقاز كدولة تتمتع بالحقوق نفسها مثل جورجيا وتربطهما معاهدات ثنائية وفقًا لقانون عام ١٩٢١م وجدناها عام ١٩٣٨م ، قد أصبحت جمهورية تابعة لجمهورية جورجيا فى نطاق القانون الأساسى للاتحاد السوفيتى ، ثم تركت أو تخلت تمامًا عن دستورها أو قانونها الذى كانت تسير عليه ، وهذا يعنى أن جمهورية أبخازيا أصبحت مرتبطة بجمهورية

جورجيا طبقًا لدستور الاتحاد السوفيتي مثلما كانت جورجيا مرتبطة بالاتحاد السوفيتي من ناحية القانون الأساسي . فعندما استقلت وانفصلت أنهت أيضًا علاقتها بالقانون الأساسي للاتحاد السوفيتي ، كما أنهت أبخازيا أيضًا علاقتها بجورجيا وانفصلت عنها انفصالاً تامًا .

قام مجلس نواب جمهورية أبخازيا بعمل لقاءات ثنائية بحكومة جورجيا من أجل وضع قانون أو دستور بدلاً من الدستور القديم ، إلا أن جورجيا التي دخلت في الاتحاد الروسي الجديد بعد حل الشيوعية ، رفضت ما نتج عن هذه اللقاءات متزرعة بحجج قدسية الحقوق ، وعدم تغيرها وثبوتها ؛ حيث سعت لكي تظهر جمهورية أبخازيا التي هي وحدة مستقلة واضحة المعالم بحدودها وقانونها على أنها أقلية داخل جمهورية جورجيا وليست جمهورية لها كيانها واستقلالها، وقد ظلت جمهورية أبخازيا تكرر وتجدد طلب عقد لقاءات ما يقرب من عامين كاملين .

وعندما علم مجلس نواب جمهورية أبخازيا برفض حكومة جورجيا هذه اللقاءات أعلن استقلال أبخازيا عائدًا إلى دستور عام ١٩٢٥م ، وكان إعلان هذا الاستقلال قرارًا قد أخذه بالإجماع أعضاء برلمان الأبخاز والروس والروم والأرمن الذين يتكون منهم مجلس نواب جمهورية أبخازيا ؛ حيث يعني أن أعضاء برلمان أبخازيا لم يأخذوا هذا القرار بمفردهم وأن بعضًا من أعضاء برلمان اللاذ والجورجيين ، الذين اشتركوا في مجلس نواب أبخازيا قد اشتركوا في هذا القرار بأحاسيسهم ومشاعرهم ، إلا أنه بسبب ضغط حكومة تفليس لم تدخل هذه الأفكار حيز التنفيذ .

سبّب قرار جمهورية أبخازيا صدمة كبيرة لحكومة جورجيا ،لا سيما بعدما أيقنت أن قرار أبخازيا قرار نهائي لارجعة فيه ، لهذا حشدت جيوشها على حدود أبخازيا، ولكن من أجل أن تقوم بالهجوم كان يلزمها ذريعة واضحة ؛ فوجدت هذه الذريعة التي أضحكت حتى الغربان ؛ حيث قاموا بالهجوم عليها بحجة أن الميجريل (اللاذ) قاموا بتهريب" جامصا هورديا " ، الذي كان وزير داخلية جورجيا والذي كان يقيم بالقرب من حدود هذه الجمهورية أي خارج جمهورية أبخازيا ؛ فهاجموا جميع المدن الأبخازية

بالدبابات والمدافع والطائرات الهليكوبتر وبجميع الأسلحة الثقيلة بدءًا من مدينة جاجرا الواقعة فى أقصى الغرب من أبخازيا متعللين بأن هذا الحدث الذى تمّ فى إحدى مدن اللاذ القريبة من الحدود الشرقية لجمهورية أبخازيا هو السبب الحقيقى وراء هذه الحرب .

أرادت حكومة جورجيا بقيادة "شفرنادزة" ، أن تحل هذه المشكلة بالقضاء على هذا الشعب ، وقد ساعد على هذا شخصية "شفرنادزة" المتلونة مع كل عصر ، فهى شخصية شيوعية بالأمس وديموقراطية فى الوقت الحاضر .

وفى البداية اندهش الأبخاز فى مواجهة هذا الهجوم الذى لم يتوقعوه من قبل ، ولكنهم ما لبثوا أن هبوا للدفاع عن وطنهم بكل ما يملكون من قوة فى مواجهة الدبابات والمدافع والسفن الحديثة والطائرات الهليكوبتر ، على الرغم من أنهم لم يكونوا يملكون سوى المسدسات والبنادق وسكاكين الطعام ؛ فلم ترهبهم أسلحة العدو ولم يخافوا بطشه و جبروته ؛ فحكومة شفرنادزه بينما هى تواجه مشكلة من أهم مشكلات حكومة جورجيا وهى البطالة والفقر أخذت كل التدابير لاحتلال بلد آخر وهى أبخازيا ، فاستمالت روسيا إلى جانبها ، كما استمالت تركيا إليها أيضًا ؛ حيث أصبحت وجهًا لوجه مع دولة صغيرة كأبخازيا بلا مدافع وبلا حتى بندقية .

ولكن الشىء الذى لم تحسب حسابه حكومة تفليس هى الست عشرة دولة التى ستقف بجانب أبخازيا الصغيرة بأعدادها الكبيرة وبقلوبها ومشاعرها ؛ فبمجرد أن قامت جورجيا على أبخازيا اعترض عليها أول رئيس لاتحاد شمال القوقاز، والذى كان يدعى "يوراشانيبة" وطلب منها سحب قواتها فورًا من أبخازيا ، ثم شاهدنا بعد ذلك الفدائيين من الجمهوريات الجبلية الصغيرة التابعة لاتحاد روسيا يتدفقون إلى الجبهة من أجل الدفاع عن أبخازيا بجانب إخوانهم الأبخاز على الرغم

من منع روسيا لهم ، وفى هذه الساعات التى أكتب فيها هذه السطور لا تزال الحرب مستمرة وتزداد ضراوة .

وفى النهاية فإن الشراكسة قد آمنوا بضرورة هزيمة الإمبريالية والاستعمار فى حرب الأبخاز ، وأنهم سيضحون بأرواحهم فداء لأبخازيا ؛ لأن انتصار الروس والجورجيين فى هذه الحرب معناه النهاية الحقيقية لشعوب الشراكسة جميعها ، وبإرادة العالم سيكون العقل والمنطق وحب الإنسان هو الحاكم على كل الأمور .

المؤلفان فى سطور:

خيرى أرصو وآيصون قاماجي

وهما من الشراكسة .

الأنجاز الذين يعيشون فى شمال القوقاز.

كان من السهل على هذين المؤلفين أن يتناولا هذا الموضوع وهو تاريخ شراكسة القوقاز - لاسيما وأنهما يجيدان اللغة الأنجازية إجادة تامة إلى جانب إجادتهما اللغة التركية التى كتبا بها كتابهما. كما أنهما يعرفان معرفة جيدة عادات هذه الشعوب الشركسية وتقاليدها.

ومع الأسف لم نستطع أن نجد فى هذا الكتاب أو غيره معلومة تشير ولو بشىء قليل إلى حياتهما أو أعمالهما الأخرى .

لذلك اكتفينا بما كتباه هما عن نفسيهما فى تقديمهما للكتاب بأنهما من الشراكسة الأنجاز.

المترجم فى سطور:

فؤاد أحمد السيد كامل

من مواليد الصوالحة – مركز شبين القناطر – محافظة القليوبية .

تخرج فى كلية الآداب – جامعة عين شمس – قسم اللغات الشرقية .

عمل معيداً فى قسم اللغة التركية – كلية اللغات والترجمة جامعة الأزهر عام ١٩٧٥م . ثم مدرساً مساعداً بعد حصوله على الماجستير عام ١٩٨١ م . وحصل على الدكتوراه فى ألمانيا الغربية عام ١٩٨٧ م .

عمل فى المملكة العربية السعودية عام ١٩٨٩م أستاذاً مساعداً فى معهد اللغة العربية لغير الناطقين بها لتدريس اللغة العربية للطلاب الأتراك فى الفترة من عام ١٩٨٩ ، حتى عام ١٩٩٤ م.

يعمل الآن أستاذاً مساعداً فى كليات اللغات والترجمة ؛ حيث يقوم بتدريس اللغة التركية فى كلية الآداب جامعة الإسكندرية ، وكلية الآداب جامعة بنى سويف ، وكلية الدراسات الإنسانية جامعة الأزهر .

المراجع فى سطور:

الصفصافى أحمد المرسى

تخرج فى قسم اللغات الشرقية وآدابها عام ١٩٦٣ م فى جامعة عين شمس، حيث سافر إلى إستانبول لإعداد أطروحة الدكتوراه .. وتدرج فى السلك الأكاديمى .

أستاذ اللغات التركية وأدابها ولهجاتها وحضارتها المتفرغ حاليًا فى جامعة عين شمس والجامعات المصرية والعربية .

مشرف على شعبة الدراسات التركية فى مركز بحوث الشرق الأوسط والدراسات المستقبلية بجامعته ..

حصل على الجائزة الأولى فى ترجمة القصة القصيرة فى الأدب الإسلامى .

له معاجم وكتب لغوية وترجمات وكتب حول الثقافة والحضارة التركية السلجوقية والعثمانية والتركية المعاصرة متداولة محليًا وعربيًا ودوليًا .

انفتح على اللهجات التركية الأخرى ، فإلى جانب ترجماته عن العثمانية ترجم عن الأذربيجانية والتركمانية وقريبًا الجنطانية .

التصحيح اللغوى : محمد فهمى
الإشراف الفنى : حسن كامل